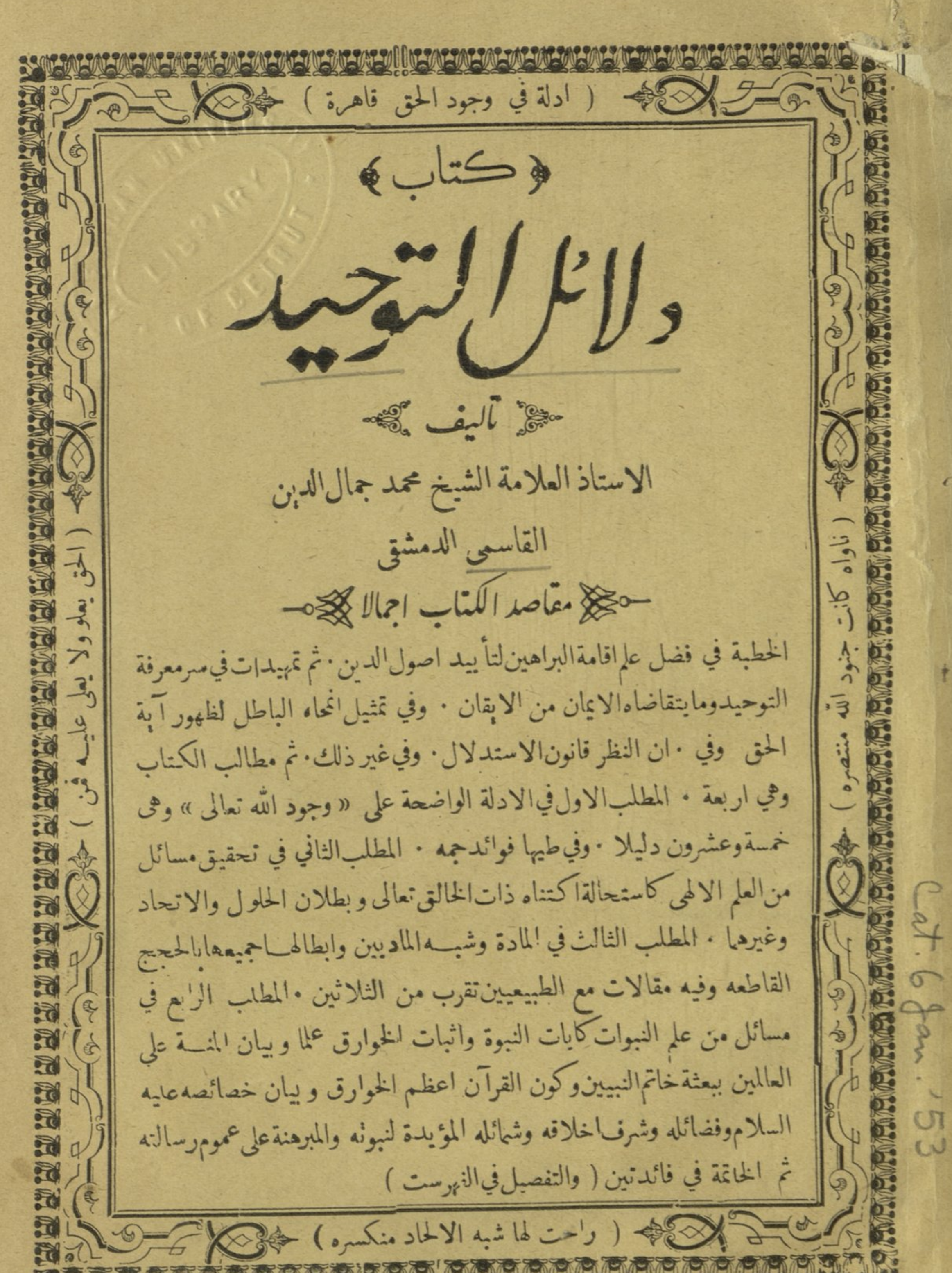


(ادلة في وجود الحق قاهرة)

(الحق يعلو ولا يعلى عليه فمن) (ناواه كانت جنود الله منصوره)

كتاب

دلائل التوحيد

تأليف

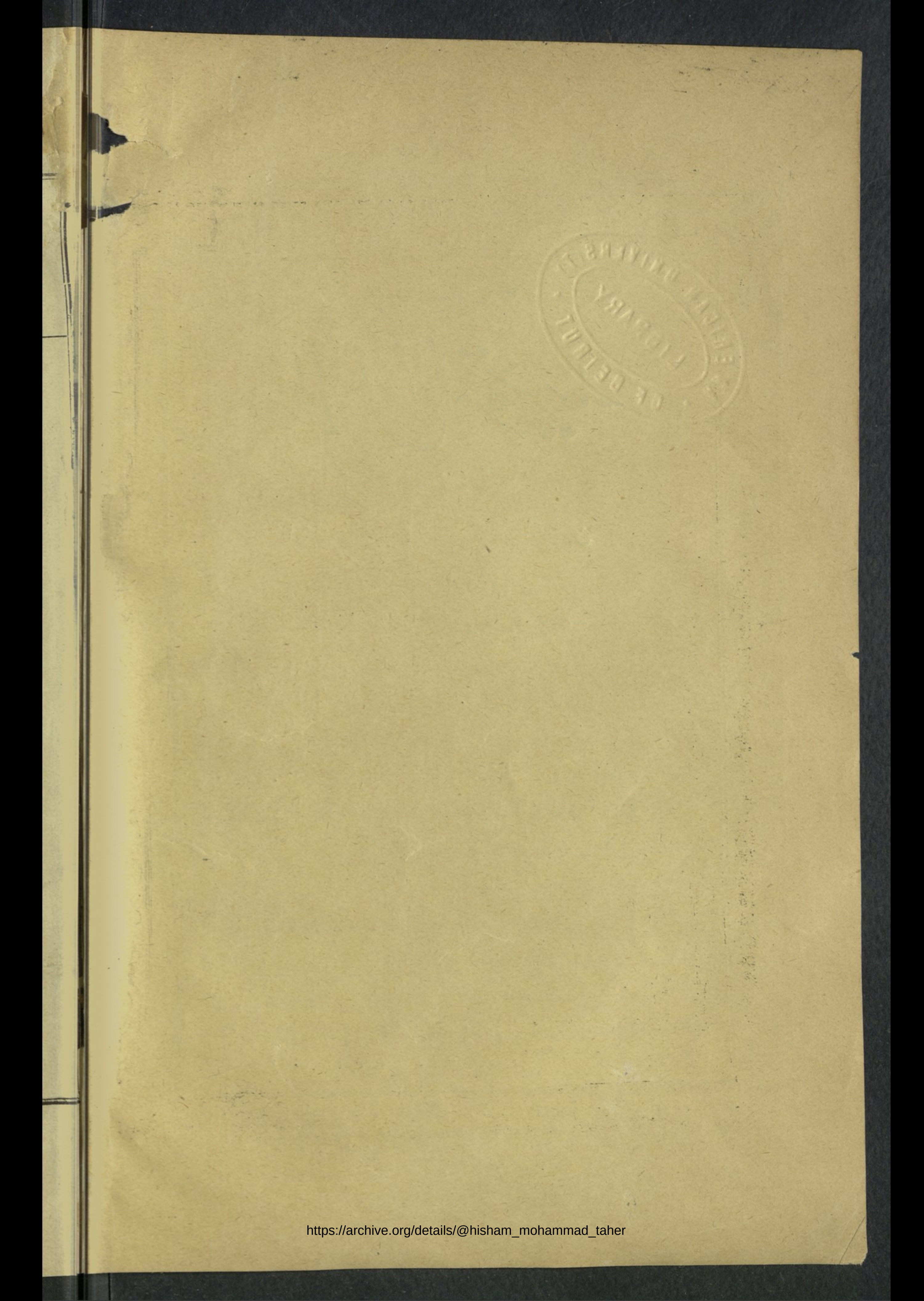
الاستاذ العلامة الشيخ محمد جمال الدين

القاسمي الدمشقي

مقاصد الكتاب اجمالا

الخطبة في فضل علم اقامة البراهين لتأييد اصول الدين . ثم تمهيدات في سر معرفة التوحيد وما يتقاضاه الايمان من الايقان . وفي تمثيل انمحاء الباطل لظهور آية الحق وفي . ان النظر قانون الاستدلال . وفي غير ذلك . ثم مطالب الكتاب وهي اربعة . المطلب الاول في الادلة الواضحة على « وجود الله تعالى » وهي خمسة وعشرون دليلا . وفي طيها فوائد جمه . المطلب الثاني في تحقيق مسائل من العلم الالهي كاستحالة اكتناه ذات الخالق تعالى و بطلان الحلول والاتحاد وغيرهما . المطلب الثالث في المادة وشبه الماديين وابطالها جميعها بالحجج القاطعه وفيه مقالات مع الطبيعيين تقرب من الثلاثين . المطلب الرابع في مسائل من علم النبوات كآيات النبوة واثبات الخوارق عقلا و بيان المنة على العالمين ببعثة خاتم النبيين وكون القرآن اعظم الخوارق و بيان خصائصه عليه السلام وفضائله وشرف اخلاقه وشمائله المؤيدة لنبوته والمبرهنة على عموم رسالته ثم الخاتمة في فائدتين (والتفصيل في الفهرست)

(وراحت لها شبه الالحاد منكسره)



فهرست « دلائل التوحيد » وتعليقاته

تنبيه	صحيفه

صحيفه	
١٠٣	برهان حدوث المادة من العدم
١٠٤	معنى قولهم ماوراء المادة
١٠٨	استحالة القول بالاتفاق من جهة الحكمة
١٠٩	برهان البعث والاعاده
١١٢	رد الاستدلال بالنفي المجرد في باب النظريات
١١٣	نزوع الماديين الى نزعات الجدال العقيم
١١٥	بيان آداب الجدل القويم وسبيل الاشراف على الحق
١١٨	الزام الواقفة وارباب الحيرة
١٢٠	وقوع الاشارة الى الماديين فى القرآن الكريم وان الفلسفة رائد الحق
١٢٣	اعتراف الفلاسفة اليوم بالقصور عن بلوغ الحقائق وان مقلديهم آفة العلم والدين
١٢٩	مطابقة الشرع للعقل ومواخاة العلم للدين تحقيق ان احكام الشرع كلها معقولة المعنى ليس فيها تعبدي محض
١٣١	اتفاقهم على انه اذا تعارض العقل والنقل اوّل النقل
١٣٢	تحقيق ان المجاز ابلغ من الحقيقة واكثر
١٣٣	اضطرار الانسان الى الايمان وآفات الماديين على العمران
١٣٦	رسوخ العقيدة بالرسوخ في العلم
١٣٨	طرف للسلف مع الدهرية

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب :

الحمد لله الذي بطن عن الأبصار وظهر للبصائر [1] ، وبيّن برهان الاستبصار [2] أن الخلق إلى فطرته صائر [3] . أظهر بالدليل لأولي الألباب ، في كل صوب من الأصواب : إنه مسبب الاسباب ، ومرسل الرسل ومنزل الكتاب ، لا تحصر الاهوام ؛ ولا تصوره الافهام ، بل هو الباطن فما لنظرة الحس إلى حضرة القدس سبيل ، وهو الظاهر فعليه للعقل في كل شيء آية ودليل . شهدت بوحدانيته شواهد الاعتبار [4] عياناً ، فأنّى تطرف الناظر [5] تعرف برهاناً . فبعداً للذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً ، وطوبى للذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

أحمده على نعمه التي أسبغها باطنه وظاهره . واستنصر به اليه [6]

(١) جمع بصيرة . وهي الفطنة وقوة القلب المدركة اهـ. قاموس وشرحه .

(٢) أي في جوده . يقال : استبصر الطريق استبان ووضح . والتبصر في الشيء التأمل والتعرف اهـ . قاموس .

(٣) أي راجع اليها . فالفطرة أي فطرة المرء على معرفته خالقه واعتراف قلبه به هي المرجع في باب الاستدلال على الحق تعالى ، كما سيفصل في الدليل الأول الآتي .

(٤) وهي آيات الأنفس والآفاق . والاعتبار التأمل في الشيء ليستدل به على غيره .

(٥) يقال طرف بصره إذالحظ وحرك جفنه في النظر وأوثر المزيد ليدل على زيادة المعنى وليجانس تعرف .

(٦) أي إلى رضائه والدعوة اليه ، فإلى : بمعنى اللام مثلها في آية « والأمر اليك » كما في مغني اللبيب .

وما خذل من كان الله ناصره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أوضح البرهان سبيلها ، وصحح العيان دليلها ، ومهد العلم اليقيني مقيلها [١] شهادة من عرف الحق فاتبعه واستمع القول فاتبع أحسن ما استمعه . وصدع بالحق فزلزل صرح الشيطان وصدعه ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المرسلين . أرسله منار الحق على شفا [٢] فشفاه . وشرار [٣] الشرك قد طفا [٤] فأطفاه . وحزب الطاغوت قد عفا [٥] فعفاه . ففتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . وشرح له صدراً . ورفع له ذكراً . وقربه زلفاً . صلى الله عليه وعلى آله ذوي المناقب المؤثلة [٦] . وأصحابه نجوم الهدى في الخطوب المعضلة [٧] . ما انبرت الأقلام لحل المهام [٨] فنسخت الحقائق ونسخت الأوهام [٩] .

أما بعد ؛ فإن علم اقامة الحجج والبراهين ، لتأييد مباني أصول الدين . ورد شبه الملحدين . علم رفيع مناره . عظيم مقداره . تجب العناية به على العلماء ، ودراسته على أذكياء النبهاء ، لتصير دلائل الأصول ملكة راسخة للعقول .

---

(١) أي مستقرها ، فهي في مقام مكين لا تزلزله الأهواء ، ولا تزعزعه عواصف الشبه والتمهيد ترشيح للاستعارة .

(٢) الشفا حرف كل شيء ويضرب به المثل في القرب من الهلكة ، وقوله : فشفاه أي أبرأه من هلكته .

(٣) بفتح الشين كسحاب ، وقد خطىء صاحب القاموس في ضبطها بالكسر ، وهو كما في المصباح ما تطاير من النار والواحدة شرارة .

(٤) أي علا .

(٥) أي زاد أو غطى : ويقال : عفا عليه في كذا أي زاد وعفت الأرض : غطاها النبات. وعفا شعر البعير : كثر وطال . وقوله : فعفاه بالتشديد والتخفيف أي محاه ودرس أثره.

(٦) أي المؤصلة فلها مجد قديم .

(٧) بكسر الضاد أي الشديدة الصعبة . والخطوب جمع خطب وهو الأمر العظيم .

(٨) كأنه جمع مهمة مصدر ميمي بمعنى الهم في القاموس همه الأمر هماً ومهمة حزنه وأقلقه إلا أن المستعمل هو المهمات وهي كما في شرح القاموس الشدائد المحرقة من الأمور .

(٩) فيه الجناس التام لا رادة نقل من نسخ الأولى ، وأزال من نسخ الثانية وهو ظاهر .

وقد كان لهذا العلم أيام كانت بضاعة العلوم رائجة . وبحور الفنون بسفن المحصلين مائجة . مقام مكين وركن ركين . وعضب قاضب . وشهاب ثاقب . لأنه عماد الفرض المحتّم . والأمر الواجب تقديمه على كل مقدم . وهو معرفة واجب الوجود لذاته . وباعث الرسل لاقامة الحجة على الخلق بمحكم آياته . وجلي أن قوام هذه المعرفة ببراهينها . وتحرير قوانينها . ليتميز صحيح الاعتقاد مـــن فاسده . ويتبين طريق الحق لقاصده . وقـــد منّ الله علينا بجمع نموذج [١] من ذلك في هذا الكتاب . انتقينـــاه من درر الحكماء المحققين وممـــا اشتقه الفكر من غرر ذوي الألباب . قسمناه إلى مطالب فريدة . يتفرع عنها مباحث عديدة . يرجع حاصلها إلى دلائل وجود المعبود . والرد على الماديين أهل الجحود . ودحر شبههم بالحجج البازغة . والبراهين الدامغة . ثم بيان آيات خاتم النبيين . وكريم أخلاقه التي فضل بها العالمين . ولم آل جهداً في تجويد أسلوبه . وتجديد ترتيبه . فإن الاسلوب المخترع . والنمط المفترع [٢] أقرب للافادة وأجذب للاستفادة ، وما برح علماء الكلام لهم في هذه الحلبة [٣] محمود المقام ، إلا أن لكل دور من الأدوار طوراً يبلغه ، ولكل عصر قوي من حقائقه يقذف بها على الباطل فيدمغه . واعداد ما يستطاع من البرهان . لمن ينازل الحق في هذا الرهان من أهم المهمات وآكد الواجبات . والمجاهد لإبانة الحق بيراعه ولسانه أعظم درجة من المجاهد بسيفه وسنانه . وإني أبرأ اليه تعالى من القول والحول ، وأستغفره مما طغى به القول : وأسأله أن يجعلنا من أصحاب صراطه السوي وممن يدعون إلى الخير الدنيوي والأخروي . آمين .

---

(١) النموذج بفتح النون مثال الشيء . ويقال : أنموذج بضم الهمزة .

(٢) أي المبتدأ يقال افترعوا الحديث ابتدأوه . نقله شارح القاموس عن شمر أحد أئمة اللغة اهـ.

(٣) الحلبة الدفعة من الخيل في الرهان ، وخيل تجتمع للسباق من كل أوب كناية عن الاجتهاد وبذل غاية الوسع في ذلك اهـ .

تمهيـدات

التمهيد الأول

في سر معرفة التوحيد وما يتقاضاه الايمان من الايقان :

سر علم التوحيد وروحه هو تحقيق الايمان بالله تعالى . أي جزم القلب بوجوده سبحانه ، وما يتبعه من صفاته الجليلة . ونعوته الجميلة ، جزماً بالغاً النهاية ومتجاوزاً من الحدود الغاية ، بحيث لا يصاحبه ريب ولا يشوبه شك . وإنما يتم ذلك بالوقوف على ما يقوي الفطرة من قواطع الدلائل ومسالح البراهين ، والبرهان سلاح الايمان يتقى به غرة الشيطان . ومن لا عدة له يوشك أن يصرع إذا قامت الهيجاء ، ويدهش لمباغتة الأعداء . والحوار في هذا الفن يكاد أن يكون لازماً من لوازمه ، وخاصة من خواصه .

قال ولي الدين فيه : هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات . ولذا يبدو لقارئه حوار مع الفرق وتجالد مع النِحَل ؛ وقراع للاهواء ونزال للالداء، وقد أفضى التوسع ببعض المصنفين فيه إلى سبر معظم الفرق حكاية لمذهبهم، ورداً على أدلتهم مفرقة في أبواب ، ومجموعة في باب كما فعل العضد في مواقفه . وببعضهم إلى وضع التأليف كله لمقارعة ذوي الأهواء ، كما فعل الامام ابن حزم في الفصل ، فقد نهض بقوى الادلة ، وكرّ بالنقض والابطال على الفرق المضلة . ولم يدع فرقة إلا نازلها ولا نحلة إلا صارعها . ولم تزل هذه سنّة الراسخين في كل عصر وهدى ورثة الأنبياء في كل قطر . حفظاً لصحيح العقيدة من أن تعبث بها الأهواء ،

أو تنفث فيها سموم الأعداء . ولا يخلو عصر ما من مجادل عن هوى وضلالة سيما إذا قلّت العناية بالعلم وامتد رواق الجهالة .

التمهيد الثاني

في تمثيل انمحاء الباطل لظهور آية الحق :

قد ينتزع السوفسطائي من مادة خياله أمشاجاً يؤلفها ، وعناصر يركبها ، ليدهش الغر بجداله ويذعر الجبان بختاله ، وقد يخلو له جوّ المراء فيصفر ويحلّق ويطير حيث شاء الهوى ويحملق . حتى إذا طلع موكب الحق بسطوته . وفيلق البرهان بعدته . نسف التل المركوم . واجتث البرج الموهوم وانقذف على الباطل فأزهقه ، وعلى التمويه فأرهقه ، وأنار بضيائه السبيل ، ومحا ظلمات الأباطيل ، وعمر من القلوب مواتها ، وأحيا من العقول أمواتها ، وللحق قوة جذب لا يتمكن من يراه إلا وينجذب طبعاً اليه . قدرة باهرة لا يدركها أحد إلا ويخضع طوعاً أو كرهاً لديه ﴿ ولله يَسْجُدُ مَنْ في السّموات والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالهُم بالغُدُوِّ والآصالِ ﴾ [1] والحقيقة متى وجدت طريقاً جرت فيها بقوة الصاعقة وسرعة البرق ، فلا يقف في وجهها شيء من الأشياء وطاردت بضيائها الظلماء وقذفت بتيارها الغثاء وحقت لها الكلمة العلياء: ﴿ فأمّا الزّبدُ فيَذْهبُ جُفاء وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فيَمْكُثُ في الأرْضِ كذلكَ يَضْربُ اللهُ الأمْثالَ ﴾ [2] .

التمهيد الثالث

في أن النظر قانون الاستدلال :

قال جمال الدين الخوارزمي : النظر قانون الاستدلال في الأمور ، وحاكم العدل وقاضي الصدق ، وبرهان الشريعة ، ومحك الحق والباطل ،

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٥ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

وبريد المعرفة ، وسلطان الحقيقة ، وترجمان الايمان ، وحجة الأنبياء ومحجة الأولياء ، والسيف القاطع على الأعداء ﴿ شَجَرَة طيِّبة أصْلُها ثَابِتٌ وفَرْعُها في السَّماء ﴾ [١] فالنظر رأس السعادة عند أهل الدنيا والدين . فأساس التدبير وصحة الاعتقاد وخلاصة التوحيد في ناصية النظر ، كما أن أساس الكفر والشرك في جانب التقليد والنظر هو الفكر في حال المنظور فيه لمعرفة حكمه ، أو فكر القلب في شاهد يدل على غائب.

فإن قيل ؛ ما الحجة على صحة النظر وأنه مؤد إلى العلم ؟ .

فيقال ؛ إن في العالم حقاً وباطلاً . والناس صنفان : أهل الحق وأهل الباطل ، ولا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر . والانسان خلق كامل الرأي ، عظيم الفكر درّاكاً للمعاني ، وأوتي الادراك وهو العقل ؛ فإذا استعمله على وجهه وقع عنده العلم بالمنظور فيه ، كما يقع العلم بالمدركات عند الادراك ؛ فعند فتح الاجفان يبصر الأشياء ، وعند الاستماع والاصغاء يسمع ، وعند استعمال اللسان يتكلم ، فعند النظر يعلم . ولو كان فاسداً لم يتضمن العلم لأن الفاسد لا يحكم له بقضية صحيحة.

والدليل على أن النظر يوصل إلى العلم — وهو طريق الحقائق — فزع العقلاء اليه إذا التبس عليهم حكم شيء من الغائبات كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعريف ما يخفى من أحوال المرئيات والمسموعات فالنظر دليل العلم .

ولما رأينا عقلاء العالم وجهابذة المعاني مهما نزلت بهم نازلة أو حدث لهم حادث من المشكلات المهمات فزعوا إلى النظر ، وتفكروا وتدبروا ليعرفوا وجه الصواب من الخطأ والحق من الباطل . عرفنا بضرورة العقل أن النظر طريق العلم .

فنحن معشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر ، ونعرف الكفر من الايمان بالنظر ، ونعرف الله ورسوله بالنظر ، ونعرف أن التقليد بلا برهان باطل ، ولا معصوم إلا رسول الله ﷺ كل ذلك بالنظر .

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٤ .

وبالجملة ؛ فالناس من عهد آدم عليه السلام إلى منقرض العالم إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر ، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا ويقول بعضهم لبعض : انظروا وتفكروا ، ولا يقولون اسمعوا وتفكروا ، فلولا أنه طريق واضح ومنهج لائح لما فزعوا اليه .

التمهيد الرابع

في مرتبة العقل في مدارك الحقائق :

اتفق الحكماء على أن الانسان إنما يدرك حقائق الأمور بطريقين :

أحدهما ، ما يدركه بالحواس الخمس ، ويشاركه في ادراكها البهائم والحيوانات كلها .

والآخر ، ما يدركه بالعقل (١) ، وهو ما يختص به الانسان ويتميز به عن البهائم ويفضل عليها . فمن ارتاض بما يفتح عيون عقله وأدمن النظر إلى المعقولات حتى ألفها تبين له شرف المعقولات ، وفضلها على المحسوسات ، وظهر له ظهوراً بيناً أن المحسوس عند العقل بمنزلة الشيء المموه عند الشيء المحقق ، فأفضى به العقل إلى ما أفضى بغيره من أهل الحكمة ، ووقف به حيث وقفوا ، ولذا كان تعويل القرآن الكريم في الدعوة إلى الاعتراف بوجود الله ووحدته ، إنما هو على تنبيه العقل كما يأتي ، وهذه الدعوة التي جاءها آخر كتاب أُنزل على خاتم نبي أُرسل صلوات الله وسلامه عليه دعوة غير معتادة للناس قبله ، لأنها من أواخر الفلسفة وهي التي مات بحسرتها الحكماء — كما سنفصله — فليس يتحققها العامة ولا من نزل عن رتبة الخواص ، لأنهم إنما يعرفون الحس ، فكل ما لا يحصل لهم من هذا الوجه لم يلتفتوا اليه ، وظنوه باطلاً لأنهم لا يرونها إذ كانت العين التي تبصر بها هذه الأشياء ليست موجودة ،

---

(١) في حواشي الاشارات . أن العقل قوة للنفس تدرك بها المجردات والذهن قوة للنفس مهيأة نحو الاكتساب ، والفكر حركة للنفس إلى المبادىء لترجع منها إلى المطالب ، والنظر هو تحديق العقل نحو المعقول . اه .

لم يلتفتوا اليه وظنوه باطلا لانهم لا يرونها اذ كانت العين التى تبصر بها هذه الاشياء ليست موجودة و بينهم و بين الحقائق حجب كثيفة من الحواس والحقائق يعدونها اوهاما وارباب البصائر يرحمونهم كما يرحمون العميان ولذلك كانت الانبياء عليهم السلام تحتملهم وتصبر على تفنيدهم وتضرب لهم الامثال ليسكنوا الى ممثلها، وقد برهن علماء الحكمة على ان مدركات العقل اشرف من مدركات الحسّ وان الادراكات العقلية اقوى من الادراكات الحسية من عدة اوجه ، منها ان مدركات الحسّ ليست الا كيفيات مخصوصة كالالوان والطعوم والروائح والحرارة والبرودة وامثالها ومدركات العقل هو ذات البارىء تعالى وصفاته والجواهر العقلية والمعارف النظرية وغيرها ومن البين ان لا نسبة لاحدهما فى الشرف الى الآخر . ومنها ان الادراك العقلىّ واصل الى كنه الشيء حتى تميز بين الماهية واجزائها واعراضها ثم تميز بين الجنس والفصل وجنس الجنس وجنس الفصل بالغة مابلغت وتميز بين الخارج اللازم والمفارق وبين اللازم بوسط وبغير وسط ، واما الادراك الحسي فلا يصل الا الى الظاهر المحسوس فيكون الادراك العقلي اقوى . ومنها ان الادراكات العقلية غير متناهية بخلاف الادراكات الحسية . ومن هذا — اعني ثبوت ان الادراك العقلي اقوى من الادراك الحسي وان مدركات العقل اشرف من مدركات الحس — يعلم ثبوت ان اللذة العقلية اكمل من اللذة الحسية . وتتمة المسئلة معروفة فى مطولات الحكمة

﴿ الخامس ﴾

(فى ان العقل ام العلم وان العلم الناشىء عنه ضرورى وكسبى وانواع كل منهما)

قال الامام الماوردى : الادلة ماأوصلت الى العلم بالمدلول عليه . والدليل معلوم بالعقل . والمدلول عليه معلوم بالدليل . فيكون العقل موصلا الى الدليل وليس بدليل لان العقل اصل كل معلوم من دليل ومدلول عليه ولذلك سمى (أمّ العلم) فصار العقل مستدلا وان لم يكن دليلا ، والعلم الحادث عنه مايتميز به الحق من الباطل والصحيح من الفاسد والممكن من الممتنع ، وهو على ضربين علم اضطرار وعلم اكتساب ، فاما علم الاضطرار فهو ماادرك ببداهة العقول وهو نوعان حس ظاهر وخبر متواتر ، وعلم الحس متاخر عن العقل وعلم الخبر متقدم عليه ، ولا يفتقر علم الاضطرار الى نظر واستدلال لادراكه ببديهة العقل ويشترك فيه الخاصة والعامة ولا يتوجه اليه جحد ولاتحسن المطالبة فيه بدليل لانه غاية لتناهى النظر

واما علم الاكتساب فطريقه النظر والاستدلال لانه غيرمدرك ببديهة العقل فصح ان يتوجه اليه الاعتراض فيه بطلب الدليل عليه فلذلك لم يتوصل اليه الا بالنظر والاستدلال . وهو على ضربين احدهما ماكان من قضايا العقول ، والثانى ماكان من احكام السمع ، فاما قضايا العقول فضربان احدهما ماعلم استدلالا بضرورة العقل ، والثانى ماعلم استدلالا بدليل العقل ، فاما المعلوم بضرورة العقل فهو مالا يجوز ان يكون على خلاف ماهو به كالتوحيد فيوجب العلم الضرورى وان كان عن استدلال للوصول اليه بضرورة العقل . واما

المعلوم بدليل العقل فهو ما يجوز ان يكون على خلاف ماهو به كدعوى النبوة فيوجب علم الاستدلال ولا يوجب علم الاضطرار لحدوثه عن دليل العقل لا عن ضرورته ، فاذا ثبت ان كلا الضربين مدرك بقضية العقل فيما علم بضرورته من التوحيد او بدليله من النبوة صار بعد العلم به واجبا · وهل وجب بما صار معلوما به من قضية العقل او بالسمع قولان

* السادس *

(فى وجوب العناية بالحجج الدامغه ، لازهاق شبه الفرق الزائغه ،)

ان اهم مايهتم به الآن هو بذل غاية الوسع لدحر شبه المعطلة (١) وقد استبان لكل خبير انها لاتحمل على مسألة نظرية او بحث فرعى ولا تكتفى بهصر أغصان الشجرة بل تجد فى جد دعائمها الراسخه التى يعتمد عليها كل نظام ادبى ومدنى وقد اصبحت تخدع بزخارفها بعض الاحداث وحلوم بعض الحمقى لذلك مست الحاجة الى التشمير عن ساعد الجد للفتك بغواياتها المضلة خوف سريان وبائها وذلك بتوسيع نطاق مباحث الادلة التوحيديه والبراهين الاصوليه الاولية بما تتناوله الايدى على طبقاتها وما ابعد ذوى الاستعداد من اهل الذكر عن جدد الصواب ان انقطعوا الى تفنيد الاهواء القديمة التى مضى اهلها وذهبوا مع امس الدابر والى مناقشتهم فى برازخهم وقد واراهم التراب وانقرضوا فى الغابرين ولم يتاهبوا لما يجد من فنون ألحاد المعطلين · نعم لامناص عن منازلة كل الغوايات وتفويق الاسهم اليها وارسال شهب الحق لرجم شياطينها دحراً لباطلها

(١) وهم الماديون ويسمون دهريين وطبيعيين ·

وهتكا لاستارها الا ان الاجدر بالعناية هو الاهم فالاهم لذا كان الباعث على تأليف هذا الكتاب حمية توقدت فى الفؤاد · انتصاراً للحق من ان تغشاه ظلمات ذوى الالحاد ، قياما بالمستطاع من واجبات الدفاع « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف نفسا الاما آتاها » قال الامام الغزالى فى منهاج العابدين : (فان قلت) فهل يفترض علىّ ان التعلم من علم التوحيد ماانقض به ملل الكفر والزمهم حجة الاسلام وانقض به جميع البدع والزمهم حجة السنة (فاعلم) ان هذا فرض على الكفايه وانما يتعين عليك ماتصحح به اعتقادك فى اصول الدين لاغير وكذلك لايتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والاتيان على جميع مسائله · نعم ان وردت عليك شبهة فى اصول الدين تخاف ان تقدح فى اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما امكن من الكلام المقنع واياك والمماراة والمجادلة فانه داء محض لادواء له فاحترز منه جهدك فان من ارتداه لايفلح ابدا الا ان يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه · (ثم اعلم) أنه اذا كان فى كل قطر داع من دعاة اهل السنة يحل الشبه ويرد على اهل البدع ويستقل بهذا العلم ويصفى قلوب اهل الحق عن وسواس المبتدعة فقد سقط الفرض عمن سواه انتهى

وقال الامام النووى فى الروضة فى مسافة بعد المصرين اللذين يجب ان يكون فى كل منهما شخص عالم بتفاصيل الدلائل اربعة اقوال الاول مسافة شهر · والثانى اختلاف المطالع كالعراق وخراسان · والثالث اختلاف الاقليم · والرابع مسافة القصر وبهذا قطع الغزالى وصاحب التهذيب وادعى امام الحرمين

الاتفاق عليه والاصح الثاني ، وقال العلامة الدواني : ذكر الفقهاء انه لابد ان يكون في كل حد من مسافة القصر شخص يعلم تفصيل الدلائل بحيث يتمكن من ازالة الشبهة والزام المعاندين وارشاد المسترشدين ويسمى المنصوب للذب والمنع . ويحرم على الامام إخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص كما يحرم عليه إخلاء مسافة الغدوى (١) عن العالم بظواهر الشرع والاحكام التي يحتاج اليها العامة ، وقال الامام الاصفهاني في الذريعة : حق من هو بصدد تعلم علم من العلوم ان لا يصغى الى الاختلافات المشككة والشبه الملبسة مالم يتهذب في قوانين ماهو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيه . ولأجل ذلك كره للعامة ان يجالسوا اهل الاهواء والبدع لئلا يغووهم فالعامي اذا خلا باهل البدع فكالشاة اذا خلت بالسبع . فاما الحكيم فلا بأس بمجالسته اياهم فانه جار مجرى سلطان ذي اجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيث ماتوجه . ولهذا جوّز له الاستماع الى الشبه بل اوجب عليه ان يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم . فالعالم افضل المجاهدين الذابين عن الدين والجهاد جهادان جهاد بالبنان . وجهاد بالبيان . ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطانا في غير موضع من كتابه العزيز كقوله — حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام — « إني آتيكم بسلطان مبين » انتهى ومن الآيات في هذا المعنى قوله تعالى « وجاهدهم به جهادا كبيرا » وكم عهد في السلف من امام آثر الاشتغال بعلم الكلام . واحتمل للتفرغ له مرارة الايام

---

(١) هي التي يمكن للمبكر اليها الرجوع الى بيته ليلاً

قال الجاحظ : فكان الفقر والقلة مع إحكام الاصول آثر عندهم من الغنى والكثرة مع إحكام الفروع فتركوا مساند المناصب مع معرفتهم بان آلتهم اتم وآدابهم اكمل · والسنتهم احد · ونظرهم اثبت · وحفظهم احضر · فلولم يكن لهم من الفضل الا انهم قد راوا إدبار الدنيا عن علمهم واقبالها الى غيره لكفى فان من اغتفر الخمول ضنا بالدين وآثر الآجلة على العاجلة دل ذلك على رجاحة عقله · وقلة حرصه · وسعة صدره · وشدة زهده · وفرط سماحته وأصالة رايه · ومتى سخت نفس امرء عن هذا الخطب الجليل والامر الجزيل نزل من الله تعالى بغاية منازل الدين انتهى

السابع

(فى تحقيق البحث فى ان معرفة الله ضرورية ام نظرية)

اعلم ان للمتكلمين فى ذلك مذهبين معروفين وقد حاول كثير الجمع بينهما فقال بعضهم ان المسألة ضرورية فى الحقيقة لا تحتاج الى النظر وانما تحتاج الى اصلاحها والى مذكر يوقظ من سنة الغفلة عنها كتذكر الموت الذى تقع الغفلة عنه وهو ضرورى حتى قال تعالى فى مخاطبة العقلاء « انك ميت وانهم ميتون » وقال « ثم انكم بعد ذلك لميتون » فاقامة الانبياء وورثتهم الحجج لذلك ولاصلاح فطرة من عرضت لهم الشبه فيها وفى بعض صفاته تعالى · وقال الحكيم ابوحيان التحقيق انها ضرورة من ناحية العقل واستدلال من ناحية الحس وذلك انه لما كان كل مطلوب من العلم اما ان يطلب بالعقل فى المعقول او بالحس فى المحسوس وهذا هو الشاهد والغائب ساغ ان يظن مرة ان معرفة الله اكتساب واستدلال

لان الحس يتصفح ويستقرئ بموازرة العقل ومظاهرته وتحصيله — وان يظن تارة اخرى انها ضرورة ضرورة ان العقل السليم من الآفة البرئ من العاهة يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ويحظر على صاحبه جحده وانكاره والتشكك فيه لكن ضرورة لائقة بالعقل لان ضرورة العقل ليست كضرورة الحس فان ضرورة الحس فيها جذب واختيار وحمل واكراه فاما ضرورة العقل فهى لطيفة جدا لانه يعظ ويلاطف وينصح ويخوف فعلى هذا فان الله تعالى وتقدس معروف عند العقل بالاضطرار لا ريب عنده فى وجوده ومستدل عليه عند الحس فمن استدل ترقى من الجزئيات ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات (١) وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار وكفى موءونة الخبط والاكثار اه ويأتى ان شاء الله الزيادة على ذلك فى برهان الفطرة فارتقب

﴿ بيان مطالب الكتاب ﴾

(المطلب الاول فى الادلة الواضحة على وجوده تعالى)

اعلم ان البراهين فى هذا المقام تفوت الحصر . وتفوق السبر . كما قيل ان لله طرائق (اى للاستدلال عليه) بعدد انفاس الخلائق ،

وفى كل شيء له آية * تدل على انه واحد

وللمتقدمين والمتأخرين فى تسديدها وتايدها مسالك ماثوره ، ومناهج مشهوره

(١) هذا نظير قول الفارابى فى فصوص الحكم فى الفص ١٤ لك ان تلحظ عالم الخلق فترى فيه امارات الصنعة ولك ان تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض وتعلم انه لابد من وجود الذات وتعلم كيف ينبغى ان يكون عليه الموجود بالذات فان اعتبرت عالم الخلق فانت صاعد وان اعتبرت عالم الوجود المحض فانت نازل

وقد اقتطفت من نفائسها التليده ، واستنبطت من عيونهـا الجديده ، مابلـغ خمسا وعشرين دليلا ، وذلك من فضل الله علينا اذ هدانا لما هو اوضح سبيلا واقوم قيلا ، وكلما ترقى العلم فتح لمعرفة الحق بدليله ابواب ، وتنوعت لرواد الحقيقة السبل وتسهلت الاسباب ،

﴿ الدليل الاول ﴾

(برهان الفطرة)

انما جعلنا الفطرة برهانا مع انها ضرورية — كما تقدم والضروري قسيم النظرى الاستدلالى لانا نعنى بالبرهان هنا كل قاطع محتج به ، والضرورى وان لم يبرهن عليه فانه يبرهن به ويشار اليه .

دليل الفطرة يوءثره كثير على غيره من الادلة ويجعله اُولاها واَولاها لالان الجبلة لها السبق طبعا فتقدم وضعا لان ذلك من لطائف نكت المؤلفين فى ترصيف التصنيف وهذا المقام مقام حقائق لاخيالات الظرائف والرقائق بل لان الشعور بوجود الله تعالى والاذعان بخالق قادر فوق المادة محيط من وراء الطبيعة امر غريزى فى الانسان مفطور عليه لاتغيره ريب المرتابين ، ولا تزلزله شكوك المشككين ، لانه عقد فى المرء طبع عليه جنانه ، وتاثره لسانه وبيانه ، ومن اثره مايرى من انطلاق الالسنة فى الكوارث ، وما تندفع اليه فى الحوادث من اللجأ اليه ، والتضرع فى دفع مايمسها عليه انطلاقا وتضرعا لا يرده راد ولا يصده صاد ، ولو قيد لسان المضطر اوإيف لنطق جنانه ، وافصحت اشائره واركانه ، ووجد حرارة تدفعه الى بارئه ، وتضطره الى الاستكانة لمنشئه .

حالة لاتزعزع رواسيها عواصف الشبهات ، ولا تميل رواسخها رياح التمويهات لاجرم ان هذا الشعور لاصنع فيه للبشر، ولا كسب فيه بتقليد ولا نظر ، فهو لازم من لوازم الانسانية ، وصفة من صفاتها الذاتيه ، اشتبك بها اشتباك اللحم بالعظم ، وسرى فى قواها سريان الدم فى الجسم ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون » قال الامام القزوينى فى سراج العقول : الدليل على ان معرفة الله واجبة كونها من الامور التى تصل العقول اليها فان الانسان اذا دهاه امر وضاقت به المسالك فلا بد ان يستند الى آله يتألّه له، ويتضرع نحوه، ويلجأ اليه فى كشف بلواه، ويسمو قلبه صعوداً الى السماء، ويشخص ناظره اليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلائق اجمعين ، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة، لاتكلفاً وحيلة، ومثل ذلك قد يوجد فى الاطفال والوحوش والبهائم ايضا فانها ظاهرة الخوف والرجاء ، رافعة رؤسها الى السماء ، عند فقدان الكلأ والماء (١) واحساسها بالهلاك والفناء ، هذا كله مركوز فى جبلة الحيوانات فضلا عن الانسان العاقل وهى الفطرة المذكورة فى القرآن والحديث ولكن اكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك فى حالة السراء ، وانما يردون اليه فى الضراء قال تعالى « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه » وايضا فان عامة الناس فى جميع اقطار الارض دعت انفسهم الى

---

(١) هذا يعلمه من يستقرئ احوال الحيوانات ويتتبع عجائبها . وفي علم طبائع الحيوان عجائب وغرائب يبحث عنها النقابة في هذا الفن من المتقدمين والمتاخرين . وانظر الى ماكتب في النمل من مدارك مدهشة مما يؤيد ماهنا والمسئلة معروفة فى ذلك العلم

الاعتراف بان لهم خالقا من غير معلم ولا لاثبات حجة عندهم ولا اصطلاح وقع بين كافتهم من اهل البوادي واقاصي الهند والصين واهل الجزائر الذين لم تبلغهم داع الى الاسلام ولا الى الشرك فانهم استغنوا بشهادة انفسهم على الاعم الاغلب بالخالق جل جلاله وذلك قوله تعالى « قالت لهم رسلهم افي الله شك فاطر السموات والارض » وهذا كله قريب من الضروريات ولذلك قال بعضهم المعرفة ضرورية ، فالناس كلهم يشيرون الى الصانع جل وعلا (١) وان اختلفت طرائقهم ومللهم ولا يجهلون سوى كنه الذات ، ولذلك لم يات الانبياء والرسل ليعلموا بوجود الصانع وانما اتوا ليدعوا الى التوحيد قال تعالى « فاعلم انه لا اله الا الله » وقال سبحانه « وليعلموا انما هو اله واحد » والخلق انما اشركوا بعد الاعتراف بالموجود تعالى لما اعتقدوه من الشركاء لله تعالى اولنفي واجب من صفاته اولاثبات مستحيل منها اولانكارهم النبوات (ثم قال القزويني) فان قيل فلاى شئ سلك اهل الاصول طريق الاستدلال على هذا ، فالجواب انما سلكوا ذلك قطعا للاطماع التي تشرئب الى ذلك والا فهم يعلمون ان ماشهدت به الفطرة أقرب الى الخلق واسرع تعقلا ، لان الممكن الخارج والحادث الدال على محدث موقوفان على النظر الصحيح ، وتلك داعية ضرورية من الناظر قال تعالى « ام من يجيب المضطر اذا دعاه ام من يبدأ الخلق ثم يعيده . ام من جعل

(١) اطلاق الصانع عليه تعالى اما على مذهب من جوز اطلاق كل وصف اشعر بمدح . او من جوز اشتقاق الاسامي من الافعال المنسوبة اليه تعالى في القرآن كقوله « صنع الله الذى اتقن كل شئ » اومن جوز ارادة الوصف دون التسمية وفي اواخر المقصد الاسنى للامام الغزالي تجويد لهذه المسئلة فانظره

الارض قرارا » الى غيرها من الآيات التي كلها استفهامات تقرير كانه تعالى يقرر عباده على شىء فطرهم عليه . ومثله قوله تعالى « الست بربكم » وقوله « افى الله شك » ولهذا ورد فى الحديث مرفوعا : ان الله تعالى خلق العباد على معرفته فاجتالهم (حولهم) الشيطان عنها : فما بعثت الرسل الا للتذكير بتوحيد الفطرة وتطهيره عن تسويلات الشيطان بالاستدلالات النظرية والدلائل العقلية وبها توجهت التكاليف على العقلاء اه

وقال الامام الراغب الاصفهانى فى الذريعة : من اشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته — فمعرفة الله العامية مركوزة فى النفس وهى معرفة كل احد انه مفعول وأن له فاعلا فعله ونقله من الاحوال المختلفة وهى المشار اليها بقوله تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وبقوله « صبغة الله ومن احسن من الله صبغة » و بقوله « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » (١) الآية فهذا القدر من المعرفة فى نفس كل واحد . ويتنبه الغافل اذا نبه عليه فيعرفه كما يعرف ان من هو مساو لغيره فذلك الغير مساو له ، ومن هذا الوجه قال تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله » وقال فى مخاطبة المؤمنين والكافرين « ثم اذا مسكم الضر فاليه

(١) الآية من باب التمثيل قال الزمخشرى ومعنى ذلك انه نصب لهم الادلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم و بصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكانه اشهدهم على انفسهم وقررهم وقال لهم الست بربكم وكانهم قالوا بلى انت ربنا شهدنا على انفسنا واقررنا بوحدانيتك . وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام وفى كلام العرب اه

تجأرون » وقال بعده « ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » واما معرفة الله المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب ان يثبت له من الصفات وما يجب ان ينفى عنه ، وهذه المعرفة هى التى دعا الانبياء عليهم الصلاة والسلام اليها وحثوا عليها ولهذا قال كلهم : قولوا لا اله الا الله ولم يدع احد الى معرفة الله تعالى بل دعا الى توحيده وهذه المعرفة — اعنى المكتسبة — على ثلاثة اضرب ، ضرب لايكاد يدركه الا نبى وصديق وشهيد ومن داناهم وذلك معرفته بالنور الالهى من حيث لايعتريه شك بوجه كما قال تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » وضرب يدرك بغلبة الظن — اعنى الظن الذى يفسره اهل اللغة باليقين — كما قال تعالى « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون » ، وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات واياه عني بقوله « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » فالاول يجرى مجرى ادراك الشىء من قريب ولهذا قال الله تعالى فى وصفهم « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب اوالقى السمع وهو شهيد » والثانى يجرى مجرى ادراك الشىء من بعيد وقد تعتريه شبهة ولكن تزول بادنى تامل كما قال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » والثالث يجرى مجرى من يرى الشىء من وراء ستر فلا ينفك من شبهات كما اخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله « ان نظن الا ظنا ومانحن بمستيقنين » ولاجل صعوبة معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص الانسان من آفات الشرك قال تعالى « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » وقال تعالى « قل انى

امرت انْ اعبد الله مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه » وقال عليه الصلاة والسلام : من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة (١) وغاية معرفة الانسان ربه ان يعرف اجناس الموجودات جواهرها واعراضها المحسوسة والمعقولة ويعرف اثر الصنعة فيها وانها محدثة وان محدثها ليس اياها ولا مثلا لها بل هو الذى يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ولا يصح بقاؤها وارتفاعه ، وبهذا النظر قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه ((سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته)) بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام ((تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى ذات الله)) ولما كانت معرفة العالم كله تصعب على الانسان الواحد لقصور افهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التى يعرفها منهم جعل تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالما صغيرا اوجد فيه مثل ماهو موجود فى العالم الكبير ليجرى ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل احد نسخة يتاملها فى الحضر والسفر والليل والنهار فان نشط وتفرغ للتوسط فى العلم نظر فى الكتاب الكبير الذى هو العالم فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه ، ويتسع فهمه ، والا فله مقنع بالمختصر الذى معه ولهذا قال « وفى انفسكم افلا تبصرون » ولشرف متاملى ذلك قال تعالى « ان فى

(١) قال ابن حزم في الفصل ص « ٣٥٠ » ج ٣ : واما الاخبار التي فيها من قال لا اله الا الله دخل الجنة فقد جاءت احاديث أُخر بزيادة على هذا الخبر لا يجوز ترك تلك الزيادة وهي قوله عليه السلام : امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وانى رسول الله ويؤمنوا بما ارسلت به ؛ فهذا هو الذى لا ايمان لاحد بدونه . وذكر في ص ١٩١ ان الايمان عقد وقول وعمل عند الجمهور من اهل السنة واصحاب الآثار فانظره

خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب » الآية
فنبه بمدحهم حيث قالوا « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » انهم عرفوا
المقصود بخلقه وذلك آخر الابحاث لان الابحاث اربعة ، بحث عن وجود الشيء
بهل هو ، وبحث عن جنسه بما هو ، وبحث عما يباين به غيره باى شيء هو ،
وبحث عن الغرض بلم هو ، وهذه الابحاث يبتنى بعضها على بعض فلا يصح
معرفة الثانى الا بمعرفة الاول ولا معرفة الثالث الا بمعرفة الثانى ولا معرفة
الرابع الا بمعرفة الثالث ، وقولهم « ربنا ماخلقت هذا باطلا » يقتضى انهم عرفوا
الابحاث الاربعة ، فدلت هذه الآية على ان البحث الذى يؤدى الى معرفة
حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة البارى تعالى هو من العلوم الشريفة
بخلاف قول الصم البكم العمى الذين لم يجعل الله لهم نورا حيث بدّعوا من اشتغل
بمعرفة ذلك اه كلامه فى الباب الثامن ، وقرر ايضا شأن الفطرة على التوحيد فى
الباب السابع عشر فى بحث كون العلوم مركوزة فى نفوس الناس وعبارته ،
نفس الانسان معدن الحكمة والعلوم وهى مركوزة فيها بالفطرة مجعولة لها بالقوة
كالنار فى الحجر والنخل فى النواة والذهب فى الحجارة وكالماء تحت الارض
لكن كما ان من الماء مايجرى من غير فعل بشرى ومنه مايعاين تحت الارض
لكن لايتوصل اليه الا بدلو ورشاء ومنه ماهو كامن يحتاج فى استنباطه الى
حفر وتعب شديد فان عُنى به ادرك والا بقى غير منتفع به كذا العلم في نفوس
البشر منه مايوجد من غير تعلم بشرى وذلك كحال الانبياء عليهم السلام فانهم
تفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الاعلى ومنه ما يوجد بادنى تعلم ، ومنه

مايصعب وجوده لحال اكثر عوام الناس ولكون العلوم مركوزة فى النفوس قال الله تعالى « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى » فاقروا ان الله هو الذي يربّهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية فهذا اقرار نفوسهم كلهم بما ركز فى عقولهم فاما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم وكذا المعنيّ بقوله « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » اى لئن اعتبرت احوالهم لرايت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك وعلى ذلك قوله « فاقم وجهك للدين حنيفا » الآية فبين ان الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه اى خلقهم عالمين به فان المعاندين وان قصدوا بتبديله وازالة الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى « صبغة الله ومن احسن من الله صبغة » وقال تعالي فيمن قويت فى قلوبهم الصبغة والفطرة « اولئك الذين كتب فى قلوبهم الايمان » فسمى ذلك كتابا ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة : واما هذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان ضرب اجالوا خواطرهم حتى ادركوا حقائقها فصاروا كمن حُمّلوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ولذلك قال فى غير موضع « لعلهم يذكرون » « وليتذكر اولو الالباب » وضرب اهملوا انفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ماحملوا من الشهادة كما قال تعالى « واذا ذكروا لا يذكرون » فهم فى الجهالة يتسكعون وعلى هذا حثنا الله تعالى على التذكر بقوله « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم » وقال « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » اى يسرنا القرآن ليكون سببا تتوصفون به الى تذكر ماسبق من عهدكم ، والتذكر على

اضرب · الاول ان يكون باللسان عن صورة ماحصل في القلب · الثاني ان يكون بالقلب لصورة حصلت عن شيء معهود اما من البصر او البصيرة اوغيره من المشاعر · الثالث ان يكون عن صورة مضمنة بالفطرة فى الانسان · وهو المشار اليه بهذه الآيات ومن هذا قال الحكماء ، التعليم ليس يجلب الى الانسان من خارج في الحقيقة وانما يكشف الغطاء عما حصل فى النفس فيبرزه بجلائه فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الارض وكالصيقل الذى يبرز الجلاء فى المرآة وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله اه وحكى الزمخشرى فى ربيع الابرار عن على رضى الله عنه انه قيل له هل رأيت ربك قال ، افاعبد مالا ارى ، فقيل كيف تراه قال · لاتدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان

﴿ الدليل الثانى ﴾

(طريق العناية)

قال الحكيم ابن رشد فى مناهج الادلة (١) الذى قصده الشرع من معرفة العالم هوانه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق ومن نفسه فالطريق التي سلك الشرع بالناس في تقرير هذا الاصل هى من الطرق

(١) كتاب شهير نقل عنه الامام ابن القيم في كتابه الجيوش الاسلامية واثنى على موءلفه بعد ان اثر عنه مقالته في العلو بقوله · هذا كلام فيلسوف الاسلام الذى هو اخبر بمقالات الفلاسفة والحكماء واكثر اطلاعاً عليها من ابن سينا ونقلا لمذاهب الحكماء وكان لايرضى بنقل ابن سينا ويخالفه نقلا وبحثا اه وقد حكى الشيخ الاكبر فى الفتوحات المكية فى الباب (١٥) اجتماعه بابن رشد ونوه بشأنه وقص ماتجدر مراجعته

البسيطة المعترف بها عند الجميع (١) وذلك انه اذا تؤملت الآيات التي تضمنت هذا المعني وجدت تلك الطرق هي طريق العناية ، وهي احدى الطرق الدالة على وجود الخالق تعالى ، وذلك انه (ا) ان الانسان اذا نظر الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل مّا وقدرٍ مّا ووضع مّا موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف انه لو وجد بغير ذلك الشكل وبغير ذلك الوضع او بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع ان لذلك الشيء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن ان تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود المنفعة بالاتفاق (مثال ذلك انه اذا راى انسان حجراً موجودا على الارض فوجد شكله بصفة يتاتى منها الجلوس ووجد ايضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك الحجر انما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدّره في ذلك المكان واما متى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه يقطع ان وقوعه في ذلك المكان ووجوده بصفة مّا هو بالاتفاق ومن غير ان يجعله هنالك فاعل كذلك الامر في العالم كله فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الازمنة الاربعة والليل والنهار وسبب الامطار والمياه والرياح وسبب عمارة اجزاء الارض ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات

(١) يؤخذ المراد بكونها بسيطة مما ذكره في موضع آخر من الكتاب نفسه وعبارته : من تامل اجناس الادلة المنبهة في الكتاب العزيز على معرفة وجود الصانع وجدها جمعت وصفين احدهما كونها يقينية والثاني كونها بسيطة غير مركبة اعنى قليلة المقدمات فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأُوَل اه

والنبات وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيوانات الطائرة وانه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى هاهنا علم على القطع انه ليس يمكن ان تكون هذه الموافقة التى فى جميع اجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد اراده وهو الله عز وجل، وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن ان توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده من غير صانع فاما ان هذا النوع من الدليل قطعي وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك ان مبناه على اصلين معترف بهما عند الجميع . احدهما ان العالم بجميع اجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى هاهنا — والاصل الثانى ان كل مايوجد موافقا فى جميع اجزائه لفعل واحد ومسددا نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج من هذين الاصلين بالطبع ان العالم مصنوع وان له صانعا . وذلك ان دلالة العناية تدل على الامرين معا، ولذلك كانت اشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع . واما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق وتدل على الصانع والمصنوع هذا ماقرره الحكيم ابن رشد وبعد ان جوّد الكلام فيه قال : لاشيء ادل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة فى الإحكام (١) ثم قال : فقد

(١) قال الغزالى فى المضنون الكبير : يقال لهذا الدليل العقلى (وهو شهادة كل مخلوق على خالقه وموجده كشهادة البناء على البانى والكتابة على الكاتب) لسان الحال والمتكلمون يقولون هذه دلالة الدليل على المدلول والحمقى من الناس لا يعرفون هذه المرتبة ولا يقرون بها اه

تبين من هذا ان الطرق الشرعية التي نصبها لعباده ليعرفوا منها ان العالم مخلوق ومصنوع هي مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه وبخاصةٍ الانسان وهي طريقة نسبتها فى الظهور الى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس اهو لقد صدق عليه الرحمة فان العقل السليم لايخامره ادنى ريب فى ظهور ذلك كما لايخالجه ارتياب فى ظهور الشمس ليس دونها حجاب وبالجملة فكما انا اذا راينا مسكنا مهيئا للسكنى فيه على القوانين الموافقة لتوالي الفصول والامطار علمنا ان حكيما هيأه واعده للسكنى وكما اذا راينا مركبا سائرا بالبخار نحو نقطة مقصودة علمنا ان قائدا يقوده فهكذا كل من نظر الى هذه الدنيا وشاهد ماهي عليه من النظام والترتيب المحكم وارتباط العلل بمعلولاتها وخدمة بعضها بعضا علم ان العالم مجموع مبدعات فائقة المدارك والمشاعر ابدعها قادر حكيم وحى قيوم والا فلو جاز ان يكون مثل هذا بغير صانع ولا موجد لجاز ان يصح دور معمورة واسفار مكتوبة وثياب منسوجة وحلى مصوغة بغير بان ولا كاتب ولا ناسج ولا صائغ وهو محال ببديهة العقل فما الذى خص احسن الخالقين بان يكفر ولا يدل عليه اثر صنعته العجيبة وخلقته البديعة « تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا » و « قتل الانسان ما اكفره » وما الطف قول امير المؤمنين على كرم الله وجهه فى بعض محامده : الحمد لله الذى بطن (اى علم) خفيات الامور . ودلت عليه اعلام الظهور . وامتنع على عين البصير فلا عين من لم يره تنكره . ولا قلب من اثبته يبصره . لم يطلع العقولَ على تحديد صنعته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته ، فهو الذى تشهد له أعلام الوجود . على اقرار

قلب ذى الجحود »

الدليل الثالث

(دليل الاختراع) « ١ »

قال الحكيم ابن رشد : الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها اذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر فى جنسين ، احدهما طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من اجلها ولنسم هذه دليل العناية ، والطريقة الثانية مايظهر من اختراع جواهر الاشياء الموجودات مثل اختراع الحياة فى الجماد والادراكات الحسية والعقل ولنسم هذه (دليل الاختراع)، فاما الطريقة الاولى فتنبنى على اصلين . احدهما ان جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الانسان ، والاصل الثانى ان هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد اذ ليس يمكن ان تكون هذه الموافقة بالاتفاق ، فاما كونها موافقة لوجود الانسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقه الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الانسان و كذلك موافقة الازمنة الاربعة له والمكان الذى هو فيه ايضا وهو الارض و كذلك تظهر ايضا موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الامطار والانهار والبحار وبالجملة الارض والماء والنار والهواء و كذلك ايضا تظهر العناية فى اعضاء البدن واعضاء الحيوان اعنى كونها موافقة لحياته ووجوده وبالجملة فمعرفة ذلك اعنى منافع الموجودات داخلة فى هذا الجنس ولذلك وجب على من اراد ان يعرف الله

« ١ » هذه التسمية لابن رشد فى المناهج

تعالى المعرفة التامة ان يفحص عن منافع الموجودات • واما دلالة الاختراع فيدخل
فيها وجود الحيوان كله ووجود النبات ووجود السموات وهذه الطريقة تنبنى
على اصلين موجودين بالقوة فى جميع فطر الناس احدهما ان هذه الموجودات
مخترعة وهذا معروف بنفسه فى الحيوان والنبات كما قال تعالى « ان الذين
تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » الآية فانا نرى اجساما
جمادية ثم تحدث فيها الحياة فنعلم قطعا ان ههنا موجدا للحياة ومنعما بها وهو الله
تبارك وتعالى • واما السموات فنعلم من قبل حركاتها التى لا تفتر أنها مامورة
بالعناية بما هاهنا ومسخرة لنا والمسخر المامور مخترع من قبل غيره ضرورة • واما
الاصل الثاني فهو ان كل مخترَع فله مخترِع، فيصح من هذين الأصلين ان
للموجود فاعلا مخترِعا له • وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات
ولذلك كان واجبا على من اراد معرفة الله حق معرفته ان يعرف جواهر الاشياء
ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات لان من لم يعرف حقيقة
الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع والى هذا الاشارة بقوله تعالى « اولم ينظروا فى
ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » وكذلك ايضا من تتبع
معنى الحكمة فى موجودٍ موجودٍ اعنى معرفة السبب الذى من اجله خلق والغاية
المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم • فهذان الدليلان هما دليلا الشرع
واما ان الآيات المنبهة على الادلة المفضية الى وجود الصانع سبحانه فى الكتاب
العزيز هى منحصرة فى هذين الجنسين من الادلة فذلك بيّن لمن تامل الآيات
الواردة فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى وذلك ان الآيات التى فى الكتاب

العزيز فى هذا المعنى اذا تصفحت وجدت على ثلاثة انواع ، اما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية . واما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع . واما آيات تجمع الامرين من الدلالة جميعا . فاما الآيات التى تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى « الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا » الى قوله « وجنات الفافا » ومثل قوله « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » ومثل قوله تعالى « فلينظر الانسان الى طعامه » الآية ومثل هذا كثير فى القرآن . واما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى « فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق » ومثل قوله تعالى « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » الآيه . ومثل قوله تعالى « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول ابراهيم « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض » الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى . واما الآيات التي تجمع الدلالتين فهى كثيرة ايضا بل هى الاكثر مثل قوله تعالى « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » الى قوله « فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » فان قوله « الذى خلقكم والذين من قبلكم » تنبيه على دلالة الاختراع وقوله « الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء » تنبيه على دلالة العناية ومثل هذا قوله تعالى « وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » وقوله تعالى « الذين يتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » واكثر الآيات الواردة

فى هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة . فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها الى معرفة وجوده ونبههم على ذلك بما جعل فى فطرهم من ادراك هذا المعنى والى هذه الفطرة الاولى المغروزة فى طباع البشر الاشارة بقوله تعالى « واذ اخذ ربك من بنى ادم من ظهورهم ذريتهم » الى قوله « قالوا بلى شهدنا » ولهذا قد يجب على من كان وكده طاعة الله فى الايمان به وامتثال ماجاءت به رسله ان يسلك هذه الطريقة حتي يكون من العلماء الذين يشهدون لله بالربوبية مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له كما قال تبارك وتعالى « شهد الله انه لااله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم » ومن الدلالات الموجودات من هاتين الجهتين عليه هو التسبيح المشار اليه فى قوله تبارك وتعالى « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (١) فقد بان من هذه الادلة ان الدلالة على وجود الصانع منحصرة فى هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الاختراع وتبين ان هاتين الطريقتين هما باعيانهما طريقة الخواص — واعني بالخواص العلماء — وطريقة الجمهور ، وانما الاختلاف بين المعرفتين فى التفصيل اعنى ان الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ماهو مدرك بالمعرفة الاولى المبنية على علم الحس واما العلماء فيزيدون على مايدرك من هذه الاشياء بالحس مايدرك بالبرهان « اعنى من العناية والاختراع » حتى لقد قال بعض العلماء ان الذى ادركه العلماء

(١) قال الفارابى فى فصوص الحكم ٢٥ : صلت السماء بدورانها والارض برجحانها والماء بسيلانه والمطر بهطلانه وقد تصلى له ولا تشعر واذكر الله اكبر

من معرفة اعضاء الانسان والحيوان هو قريب من كذا و كذا آلاف منفعة واذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب . والعلماء ليس يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه فان مثال الجمهور فى النظر الى الموجودات مثالهم فى النظر الى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها فانهم انما يعرفون من امرها انها مصنوعات فقط وان لها صانعا موجودا . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر الى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها ولا شك ان من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو اعلم بالصانع من جهة ماهو صانع من الذى لا يعرف من تلك المصنوعات الا انها مصنوعة فقط ، واما مثال الدهرية فى هذا الذين جحدوا الصانع سبحانه فمثال من احس مصنوعات فلم يعترف انها مصنوعات بل ينسب ماراى فيها من الصنعه الى الاتفاق والامر الذى يحدث من ذاته اه كلام ابن رشد

الدليل الرابع

(الافتقار الى سبب الاسباب) « ١ »

الحوادث فى علم الكائنات سواء كانت من الذوات اومن الافعال البشرية اوالحيوانية فلا بد لها من علل واسباب متقدمه عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونها واليها تفتقر افتقار الهواء الى الشمس فى اضاءته والماء الى

« ١ » من راى ابن خلدون ان هذا الدليل اقرب الطرق والمآخذ العقلية لمعرفة الخالق تعالى

مسخن فى حرارته . وكل واحد من هذه العلل والاسباب حادث ايضا فلا بد له من علل واسباب اخر . ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهى الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها . قال ابن رشد : الموجودات الممكنة لابد لها من علل تتقدم عليها فان كانت العلل ممكنة لزم ان يكون لها علل ومر الامر الى غير نهاية . وان لم يكن هنالك علة لزم وجود الممكن بلا علة وذلك مستحيل فلا بد ان ينتهى الامر الى علة ضرورية . فاذا انتهى الامر الى علة ضرورية لم تخل هذه العلة الضرورية ان تكون ضرورية بسبب او بغير سبب فان كانت بسبب سئل ايضا فى ذلك السبب فاما ان تمر الاسباب الى غير نهاية فيلزم ان يوجد بغير سبب ماوضع انه موجود بسبب وذلك محال فلا بد ان ينتهى الامر الى سبب ضرورى بلا سبب اى بنفسه وهذا هو واجب الوجود ضرورة اه

وقرر بعضهم هذا الدليل باسلوب آخر فقال : من المشاهد انا نرى فى المحسوسات ترتبا بين العلل المؤثرة وليس يصح بل لايمكن ان يكون سبب مؤثر لنفسه للزوم وجوده قبل نفسه وهذا محال . والتسلسل ممتنع فى العلل المؤثرة لان الاول من افراد العلل المترتبة هو علة الوسط والوسط هو علة الاخير سواء كان ثمة وسط واحد او اوساط كثيرة لكنه اذا ارتفعت العلة ارتفع المعلول فانه لو لم يكن فى العلل المؤثرة اول لم يكن فيها ولا اخير وسط ولو تسلسلت العلل لم تكن علة اولى مؤثرة فلم يكن معلول اخير ولا علل مؤثرة متوسطة وهذا بين البطلان فلا بد اذن من اثبات علة مؤثرة وهى الخالق تبارك وتعالى :

وقال ابن رشد ايضا : اما الفلاسفة فانهم اعتبروا الاسباب المحسوسة حتى انتهت الى الجرم السماوى ثم اعتبروا الاسباب المعقولة فافضى بهم الامر الى موجود ليس بمحسوس هو علة ومبدء للموجود المحسوس وهو معنى قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكونن من الموقنين »

وقال الفارابى فى فصوص الحكم : كل مالم يكن فكان فله سبب ، ولن يكون المعدوم سببا لحصوله فى الوجود ، والسبب اذا لم يكن سببا ثم صار سببا فلسبب صار سببا وينتهى الى مبدء تترتب عنه اسباب الاشياء على ترتيب علمه بها فلن تجد فى عالم الكون طبعا حادثا اواختيارا حادثا الا عن سبب ويرتقى الى سبب الاسباب ، ولا يجوز ان يكون الانسان مبتدئا فعلا من الافعال من غير استناد الى الاسباب الخارجية التي ليست باختياره ، وتستند تلك الاسباب الى الترتيب ، والترتيب يستند الى التقدير ، والتقدير يستند الى القضاء ، والقضاء ينبعث عن الامر وكل شئ مقدر اه

تنبيه

كثيرا مايقع فى كتب الكلام وعلى ألسنة المحتجين كلمة العلة مرادًا بها معطي الوجود وهو الخالق تعالى مشاكلة أومجاراة للخصوم ، واصلها من استعمال الحكماء لها وغلبتها فى كلامهم فسرت للمتكلمين الباحثين فى العلم الالهىّ ومع صحة معناها المذكور فانا لانستجيز اطلاقها عليه تعالى إلا مشاكلة اومجاراة كما قلنا لان له الاسماء الحسنى

الدليل الخامس

(طريق الحركة) « ١ »

ن علماء الهيئة المحققين مجمعون على كروية الارض(٢)وانعزالها فى الفراغ وعدم ارتكازها على شئ غير قدرة الله تعالت اسماؤه ، وانها هى التى تدور حول الشمس ، وان لها نوعين من الحركة تعملهما فى آن واحد حركة حول نفسها وهى المسماة بالحركة اليومية وهي عبارة عن دوران الارض حول نفسها من المغرب الى المشرق فى مدة اربع وعشرين ساعة مرة واحدة — وحركة حول الشمس وهى المسماة بالحركة السنوية وهى عبارة عن دوران الارض حول الشمس من المغرب الى المشرق ايضا فى مدة سنة كاملة

«١» من راى الحكيم ابن مسكويه ان الاستدلال بالحركة على الصانع اظهر الاشياء واولاها

(٢) ترى الفخر الرازى يشير الى كروية الارض فى مواضع من تفسيره منها في تفسير آية « وهو الذى مد الارض » وآية « ان فى خلق السموات والارض » وكذلك الامام ابن حزم فى الفصل فقد عقد مطلبا لبيان كروية الارض قال فى مقدمته : لم ينكر احد من ائمة المسلمين رضى الله عنهم تكوير الارض ولا يحفظ لاحد منهم فى دفعه كلمة بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها الخ وكذلك العضد في مواقفه اوسع البحث فيه . ومثل هذا مما لا يصدم اصلا من اصول الدين كما بينه حجة الاسلام في تهافت الفلاسفة . ولسنا بصدد البحث في ذلك حتى نوسع المقال فيه وانما جاء عفوا والا فقد تكفل كثير من المحققين في بيان مقارنة الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية والفوا فيه مؤلفات وكذا في تطبيق الوحى على علومهم وان كان كثير من قواعدها لم يثبت بعد ثبوتا لا يقبل الجدال . وقد قال القاضى الوزير جمال الدين ابن القفطى : علوم الهيئة طريق الى الايمان ومعرفة قدرة الله عز وجل فيما احكمه ودبره

وكذلك السيارات كلها تدور حول الشمس والشمس ثابتة بالنسبة الى هذه السيارات ولكنها تحملها وتدور معها فى هذا الفضاء الواسع حول مركز آخر بعيد جدا كما بسط في محله قالوا والسكون المطلق لايعلم وجوده في العالم فان جميع الاماكن وجميع الكرات السماوية مشاهد تحركها ولا يعرف السكون المطلق الا للفراغ اللانهائى — وبالجملة فمن المحقق الثابت بالحس ان فى عالمنا هذا اشياء متحركة وكل متحرك فهو يتحرك من آخر لانه ليس شئ يتحرك الا باعتبار كونه بالقوة الى مايتحرك اليه . وانما يحرك شئ ماباعتبار كونه بالفعل اذ ليس التحريك سوى اخراج شىء من القوة الى الفعل واخراج شئ الى الفعل لايمكن ان يتم الا بموجود بالفعل كما ان الحار بالفعل كالنار يجعل الخشب الذى هو حار بالقوة حارا بالفعل وبذلك يحركه وبغيره لكن ليس يمكن لشئ واحد بعينه ان يكون بالقوة والفعل معا باعتبار واحد بل باعتبارات مختلفة لان ماهو حار بالفعل ليس يمكن ان يكون من هذه الجهة حارا بالقوة ايضا بل هو من هذه الجهة بارد بالقوة فاذن ليس يمكن ان شيئا يكون محركا ومتحركا اى محركا لنفسه باعتبار واحد ومن جهة واحدة فاذاً كل مايتحرك فلا بد ان يتحرك من آخر واذا كان هذا الآخر متحركا فلا بد ان يتحرك من آخر ايضا وهذا من آخر وهنا لايجوز التسلسل الى غير النهاية والالم يكن محرك اول فلم يكن محرك آخر لان المحركات الثانية لاتحرك الابما هي متحركة من المحرك الاول كما ان العصا لاتحرك الا بما هي متحركة من اليد فاذاً لابد من الانتهاء الى محرك اول غير متحرك من آخر وهذا الذي يعقله الجميع انه الله

جل جلاله :

قال بعضهم : ان الحركة وهي انتقال من حيّز الى حيّز من لوازم الحدوث ضرورة لان الحركة لا تكون من نفس المادة لان المادة ليس لها حركة من ذاتها والا لكان لها قدرة وارادة فلا بد لها من سبب يحركها خارج عنها هو مبدء لوجود جميع الاشياء، وبه قوام كل جوهر ووجود كل موجود وذلك واجب الوجود سبحانه وتعالى : وقال ابن رشد فى التهافت فى بيان مادعا الفلاسفة الى الاعتراف بقديم ليس بجسم ولا ذى هيولى : انهم وجدوا جميع اجناس الحركات ترتقى الى الحركة فى المكان ووجود فى المكان ولا ترتقى الى متحرك من ذاته عن محرك أو غير متحرك اصلا لا بالذات ولا بالعرض والا وجدت محركات متحركات معا غير متناهية وذلك مستحيل فيلزم ان يكون هذا المحرك الاول ازليا والا لم يكن أولا، واذا كان ذلك كذلك فكل حركة فى الوجود فهى ترتقى الى هذا المحرك بالذات لا بالعرض وهو الذى يوجد مع كل متحرك فى حين ما يتحرك ووجوده شرط فى وجود جميع الموجودات وشرط فى حفظ السموات والارض وما بينهما اه والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا » وقوله « ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم »

وقال ايضا فى مناهج الادلة فى الاستدلال على حدوث الجسم السماوى : ينبغى ان نجعل الفحص عنه من امر حركته وهي الطريق التى تفضى بالسالكين الى معرفة الله بيقين وهي طريق الخواص وهي التي خص الله بها ابراهيم عليه السلام فى قوله « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون

من الموقنين » اه

ورايت بعضهم يسمى هذا الدليل (برهان القهر بالدوران) قال ان جميع مانراه بالعين مقهور بالدوران وكذا عموم الكواكب مقهورة ودائرة حول محاورها « وكل في فلك يسبحون » وكذلك المياه والنباتات والحيوانات دائرة ومقهورة بالانتقال من مكان لآخر واما الثبوت فهو نسبي مثل الاجسام الصغيرة ننظرها ثابتة بالنسبة لبعضها لكنها مقهورة بالدوران مع الاجسام الكبيرة كالارض دائرة بما فيها وما عليها . وبالضرورة كل مقهور مفتقر الى قاهر فوقه والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده »

الدليل السادس

(دلالة التركيب)

ضرورة العقل قاضية بان كل مركب فهو مسبوق بالغير وحاصل بعد العدم ، اما مسبوقيته بالغير فلتقدم اجزائه التي تركب منها كما هو مشاهد في مثل السرير والجدار . واما مسبوقيته بالعدم فلانه مسبوق بعدم التركيب وكل مسبوق بالغير وموجود بعد العدم فهو حادث البتة والعالم باسره من العلويات والسفليات مابين مركب عقلي كالماهية المتعقلة وما بين مركب خارجي كالاجسام فيكون برمته حادثاً والضرورة قاضية ايضا بان كل حادث فهو مفتقر في وجوده الى موجد وهو صانعه لامتناع ان يوجد نفسه (افاده البحراني)

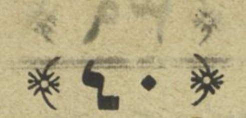


الدليل السابع

(شاهد التصوير والتخصيص فى المواد)

ان كل مايشاهد من المواد ويُحسّ فهو مصور بصورة ومكيف بكيفية محدودة اجلاها الامتداد وهو عبارة عن وجود الابعاد الثلاثة فيها اى الطول والعرض والعمق وهو لازم من لوازمها وخاصة من خصائصها فلا يمكن ان تتصور مادة خالية منها ابدا وقد ذهب اساطين الفلكيين الى ان الارض والقمر والسيارات شكلها كروى وانه يستدل منه على انها كانت مصهورة في سالف عهدها فاستدارت بواسطة القوة الجاذبة التى وضعها البارئ تعالى فيها كما تستدير نقط الماء الصغيرة ولا يخفى ان الامتداد والاستدارة شكل من الاشكال المحدودة ذو صورة وكيفية وكل ماهو كذلك فهو حادث ضرورة ان تحديده وتصويره يرجع الى مصوّر قدّره إذ الشى لايكون فاعلا منفعلا واذا انتهى الى مصوّر فماهو الا البارئ المصور تعالى

قال ابن رشد : الفلاسفة يعنون بالمخصص الذى اقتضته الحكمة السبب الغائى فانه ليس عند الفلاسفة كمية فى موجود من الموجودات ولا كيفية الا وهى الغاية فى الحكمة وكل مصنوع فانما يُفعَل من اجل شىء ماهو غايته والحكمة منه والعبرة فيه . ولو كان اى موضوع اتفق يقتضي اى فعل اتفق لما كانت هاهنا حكمة اصلا فى مصنوع من المصنوعات ولما كانت هاهنا صناعة اصلا ولكانت كميات المصنوعات وكيفياتها راجعة الى هوى الصانع وكان كل انسان صانعا ولكانت الحكمة انماهي فى صنع المخلوق لافى صنع القديم واللوازم باطلة بل كل



مافى العالم فهولحكمة وان قصرت عن كثير منها عقولنا وان الحكمة الصناعية انما فهمها العقل من الحكمة الطبيعية — اى المخلوقة فى طبائع الكائنات — فان كان العالم مصنوعا واحدا فى غاية الحكمة فههنا ضرورة حكيم واحد هو الذى افتقرت الى وجوده السموات والارضون ومن فيها فانه مامن احد يقدر ان يجعل المصنوع من الحكمة العجيبة علة نفسه اه

﴿ الدليل الثامن ﴾

(اضطرار العالم الى ممسك)

قال الامام ابو عبدالله محمد بن المرتضى اليمانى فى كتابه ايثار الحق : اتفق المسلمون وغيرهم على ان العالم في الهواء ارضه وسماؤه وما فيه من البحار والجبال وجميع الاثقال وقد ثبت بضرورة العقل ان الثقيل لايستمسك في الهواء الا بممسك وان هذا الامساك الدائم المتقن لايكون بما لا يعقل من الرياح كما زعمت الفلاسفة على ان الرياح تحتاج الى خالق يخلقها ثم الى مدبر يقدرها مستوية الانفاس موزونة القوة لايزيد منها شيء على شيء حتى تعتدل اعتدالا اتم من اعتدال الفاعل الماهر من الناس فان الماهر منهم لوقصد الاعتدال التام حتى يستوى على راسه جفنة مملوءة ماء لم يستطع تمام الاعتدال الا برياضة شديدة فكيف تعتدل عواصف الرياح وتقع موزونة وزن القراريط فى الصنجات المعتدلة حتى يستوى عليها ثقل الارض والجبال من غير رب عظيم قدير عليم مدبر اه وما الطف ماقاله بعض المتاخرين . لما اطلعت الملحدة على ناموس الجاذبية جعلته بدلا من عناية الخالق فالغبى المتمسك به يظن انه يقدر بواسطته

على جحود الخالق ولكن العقل الكبير الذى اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا علم انه ضعيف فى ذاته لاقدرة له على ادراك كل شئ ولم ينكر وجود الله وكان ادرى الناس بغموض اسرار حكمته ونواميسه علم — وعلم الناس ايضا — ان ذلك الناموس مازال عاملا منذ الازل وهذا كل ماادعاه وكل مايقدر ان يدعيه سواه · وقد قيل لاحد اتباعه ماهو سر الجاذبية فاجاب « لايحق للعالم الحالى ان يحاول كشف اسرارها فاننا نجهلها تماما ولا نعرف عنها شيئا » اه وبالجملة فنظم كل سماء على حدة بدون ربط احداهما بالاخرى بآلة حسية بل بروابط معنوية لمن اعظم مظاهر قدرة القادر واثر الخالق تعالى والى هذا الدليل الاشارة بقوله تعالى « ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره » وقوله سبحانه « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا »

الدليل التاسع

(طريق الامكان)

هذه الطريقة سبيلها للاستدلال منها على الواجب وجوده تعالى — على ماافاده بعض المحققين — ان تبحث فى حد الممكن ثم فى لوازمه فيتهيأ لك العلم بانه مالاوجود له من ذاته ثم تنظر فى الموجود وانواعه وموضوعاته فتجد منها النبات مثلا وتجد من احوال النبات الموجود انه يوجد بعد ان لم يكن وينعدم بعد ان يكون ثم انك تجد ان مايكون حاله كذلك فلا يمكن ان يكون وجوده من ذاته والا لكان وجوده لذاته فلا يسبقه العدم ولا يلحقه والالزم سلب مابالذات عنها وهذا هو معنى الممكن اه ثم ان كل ممكن محتاج الى سبب يعطيه

الوجود وهو موجده الواجب الوجود ، قال ابن رشد : ان الحكماء من اهل الاسلام لما نظروا فى طبيعة الموجود بما هو موجود آل بهم الامر الى موجود غير مركب (ثم قال) والطريقة التى يمكن عندى ان تسلك حتى تقرب من الطريقة البرهانية هو ان الموجودات الممكنة الوجود فى جوهرها خروجها من القوة الى الفعل يكون ضرورة من مخرج اعنى فاعلا يحركها ويخرجها من القوة الى الفعل فان كان المخرج هو ايضا من طبيعة الممكن وجب ان يكون له مخرج وينتهى الامر الى واجب الوجود باطلاق اى ليس فيه امكان اصلا لا فى الجوهر ولا فى المكان ولا فى غير ذلك من الحركات وان يكون ماهذه صفته غير مركب لانه ان كان مركبا كان ممكنا لا واجبا واحتاج الامر الى واجب الوجود اه ملخصا

الدليل العاشر

(امارة التغير والتحول)

قال بعض المتكلمين : ان كل ما فى الكون من مادة متغير فكل ذرة من ذرات الهباء وكل جرم من اجرام الارض والسماء محل للتغيرات فى الهيئات والحركات وسائر الاعراض . والتغير التحول من حال الى حال لا التلاشى ولا استحالة الذوات بان يصير الحديد اكسجينا (١) والعوسج (٢) عنبا والبوم هزاراً . ثم بالضرورة لابد لكل تغير من سبب يحدثه . وهذا مما اثبته العلم عندهم

(١) الاكسجين يسمونه بالروح المنتشرة لانتشاره فى جميع الاجسام وبه حياة الانفس وحياة النار لانها تشعل به وهو جسم غازى خلوى اللون والطعم والرائحة ومنه تتولد جميع الحوامض والاملاح اه روضة الامراء (٢) شجر كثير الشوك

وقطع به عقلاؤهم حتى الماديون وذلك ان الاجرام السماوية عند جمهور علماء الهيئة اليوم على اختلاف مذاهبهم كانت فى اول امرها غبارا في الفضاء تتوقد فى باطن السماء ثم بردت على مرور السنين والدهور ومنها ارضنا وهى لما برد سطحها ظهر برها ثم ارتفعت جبالها وتغير وجهها تغيرات غريبة لوفرة العلل التى لاتنفك تؤثر فيها على مر الثوانى ، فدولاب الكون والفساد — اعنى زوال الصورة عن المادة بعد ان كانت حاصلة — لم يسكن منذ كانت الهيولى الى هذه الساعة والى ماشاء الذى لاحركة ولا سكون الا بامره وارادته سبحانه وتعالى . وعلل التغير حلقات سلاسل كل منها علة لما بعده ومعلول لما قبله وبالضرورة لابد من انتهاءها الى مصرف ومدبر يتصرف فيها بقدرته وسنته وهو موجدها وربها تبارك وتعالى اه كلامه وهو استدلال بما تقرر لديهم لابأس به لاقناعهم والا فمسئلة اصل تكوّن السماء من الغيوب وقد قال تعالى « ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » وسياتى تتمة لهذا .

﴿ الدليل الحادى عشر ﴾

(اقتضاء ارتباط الافراد ارتباط المجموع)

من المقرر ان لسائر الكائنات على اختلاف انواعها نسبا الى نواميسها المبدعة وان ارتباطها بها ارتباط العلل بمعلولاتها والاسباب بمسبباتها يحفظ بها وجودها وتظهر منها آثارها فكل انسان يعلم وجوده من غيره وكل زهرة يتوقف حياتها على تاثير الشمس والمطر لتنمو فضلا عن انها مستمدة من زهرة غيرها بالتلقيح

الا لما نبتت ، فكل هذه الكائنات علل ومعلولات مرتبطة ببعضها وليس من شيء يرى انه احرز وجوده من نفسه ولا يتاتى القول بانها احرزت وجودها بعلة داخلية لان كلاً منها هو علة لغيره ولا يمكن ان يقال باستغنائها عن علة لان ذلك — عدا عن كونه يرفضه العقل السليم — لو صح لكان لنا مجموع كائنات لا علة لوجودها ويفضى ذلك الى النتيجة الآتية وهى : ان الكائنات كل فرد منها له علة لكن مجموعها لا علة له ولا سبب ولم يبده احد : وهو من غرائب الخبط فلا بد اذن من ان تكون علة هذه الكائنات خارجة عنها وذلك مبدعها وخالقها تبارك وتعالى

الدليل الثاني عشر

(الحياة الحيوانية والنباتية على وجه الكرة)

من اظهر البراهين على وجوده تعالى الحياة على الارض ان نباتيةً او حيوانيةً فان الحيّ لا يتولد الا من حي وبه يستدل على نفى التولد الذاتى وهو زعم تولد الحى من المادة وذلك لان المادة خالية من الحياة ساكنة خاضعة للنظام الذى وضعه لها خالقها ويستحيل ان تولد حياة فى ذاتها او غيرها لاسيما العقل الانسانى بجميع قواه وغرائزه فانه لابد له من خالق عالم حكيم اذ المواد لا تولد عقلا ولا تستطيع ان تخرج كائنا جهازيا متصفا باوصاف مباينة لنظام المادة . ومما استدل به على نفى التولد الذاتي ثلاثة ادلة ، الاول ان الحياة اما قديمة واما حادثة والاول باطل لخلو المادة منها دهورا كما تبين من المباحث الجيولوجيه (١) فثبت انها

(١) وهى التى تبحث عن طبقات الارض وعن المستحجرات من النباتات والحيوانات

حادثة لعدم الواسطة بين القدم والحدوث فلو ثبت التولد الذاتى وان لاخالق للحياة لزم انها حدثت من لاشيء وهو باطل بالبديهة وبقول الماديين انفسهم لان من اول مبادئهم ان لاشيء من لاشيء فالتولد الذاتي باطل ولا بد للحياة من خالق ،

الثانى انه قد ثبت ان الحياة محدثة فلا بد لها من محدث وهو اما المادة اوغيرها والاول باطل والا لزم ان المادة لم تنفك عن الحياة قط ضرورة لزوم العلة لمعلولها وعدم انفكاكها عنه وقد تبين بطلانه فانتفى التولد الذاتى وثبت ان للحياة خالقا غير المادة وانه خالق مختار تقدست ذاته وجلت صفاته ،

الثالث ان علماء الماديين وغيرهم في هذا العصر بذلوا جهدهم فى اقتراء التولد الذاتى وشغلوا بالامتحانات سنين كثيرة فلم يات بنتيجة وقال جمهور ارباب الارتقاء «لاحى الا من حى» وهزؤا بالقول بالتولد الذاتى وعدوه هذيانا وسياتى بسط لهذا ان شاء تعالى فى المطلب الثالث

الدليل الثالث عشر

(نظام الاكوان وما فيها من الاحكام والاتقان)

يرى كل من له قلب ان انوار وجود الله تعالى تسطع على صفحات ذرات الكون كالشمس ليس دونها حجاب فانه لما كان فى غاية النظام والاحكام استلزم بداهة وجود مدبر عالم بديع الصنع . بيانه انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على حال من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات واستحالة بعض الموجودات الى بعض لاتنقضى عجائبه ولا تنتهى غاياته فبالضرورة

هذا الترتيب المحكم لايكون له وجود لولا وجود خالق مدبر لنظامه مريد لسيره في سننه ، ترى من يسعه ان يفرض ان آلة التلسكوب (١) اوجدت نفسها للاستطلاع على حركات الاجرام . وهل يمكن ان يكون المنزل صنعة بلا صانع ، فمن الضرورة وجود صانع رسم صورته وفصله لكي يكون جديرا بالسكنى فما بالك بنظام الكون وتركيبه لاجرم انه اعلى واعظم من صنع البشر بما لاينقاس وعلامات الارادة ظاهرة فيه

هذا الدليل اورده بعضهم كما ذكرنا وسبق نحوه اولاً مفصلا

الدليل الرابع عشر
(آية الانسان)

كل من فهم الحكمة فى انواع الموجودات ازداد علما بمعرفة بارئها ويقينا بعظمة فاطرها ومن اشرف تلك الانواع وافضلها واكرمها الانسان ودلالته على خالقه تعالى من وجوه عديدة .

منها انه لاتوجد لغة من لغاته خالية من اسم الله تعالى واللغة تعبّر عن افكار الانسان ووجدانه فيكون ذلك دليلا على ان العلم بوجوده تعالى امر عام مطبوع على صفحات القلوب ومنقوش على الواح الافئدة كما تقدم في برهان الفطرة ، ومنها باعث الادب فى الانسان وهو الوازع الرحمانيّ اعنى صوت الضمير الحاض على عمل الخير والمادح على فعله والزاجر عن المنكر واللائم على ارتكابه فانه يستلزم ضرورة موجدا اوجده وخالقا قدّره ، ومنها التخالف فى انواعه

(١) التلسكوب المنظار الذى يكشف الاجسام البعيدة السماوية

قال بعض المحققين فى تفسير قوله تعالى « وما خلق الذكر والانثي » وانما اقسم بذاته بهذا العنوان لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها والإشارة الى الابداع فى الصنع اذ لايعقل هذا التخالف بين الذكر والانثى فى الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لاشعور لها بما تفعل كما يزعم بعض الجاحدين فان الأجزاء الاصلية فى المادة متساوية النسبة الى كون الذكر اوكون الانثى فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرًا وتارة انثى دليل على ان واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع اه ، ومنها ان نفس الانسان وخلقه وتكوين اعضائه من اعظم الادلة على خالقه وفاطره قال الغزالى : فى الآدمى آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والرقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها الاوفيه حكمة اواثنتان اوثلاث اواربع الى عشر وزياده اه

وبالجملة ففى هيكله من العجائب الدالة على حكمة مبدعه ماتنقضى الا عمار دون بعضه . ومن يطالع علم التشريح — وهو الذى يهم كل نبيه مراجعته — يجد فيه من عجائب صنع الله وبدائع حكمته مايضطر معه الى الاعتراف بقادر حكيم ومدبر عليم ولذلك قيل : فكرك فيك يكفيك : وهذا معنى القول المشهور : من عرف نفسه عرف ربه : قال الامام ابن رشد : من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايمانا بالله تعالى : ومن بدائع ابى العلاء المعرى قوله عفا الله عنه

عجبى للطبيب يلحد فى الخا ... لق من بعد درسه التشريحا
ولقد عُلّم المنجم مايو ... جب للدين ان يكون صريحا

من نجوم نارية ونجوم ناسبت تربة وماء وريحا
فطن الحاضرين من يفهم التعـــــريض حتى يظنـــه تصريحا

وهكذا بقية عجائب المواليد ، وقد اظهر المكرسكوب (١) فى الخلق عالما جديدا من الاجسام الحية تحار لصغرها العقول فان هذا المنظار يُري فى قطعة صغيرة مما يحملها الوفا يشاهد جهاز اعضائها ودوران سوائلها فى اوعيتها مما يبرهن على قدرة قادر كبير ، يرجع دون ادق مكوناته البصر وهو حسير .

﴿ الدليل الخامس عشر ﴾

(الاعداد والتهيئة فى الموجودات)

قال بعضهم : حسب الباحث ان ينظر فى قضيتى الاعداد والتهيئة اللتين يراهما فى كل مافى الدنيا لغاية مستقبلة . فان هذا الاعداد لايمكن ان ياتى من الاشياء نفسها وهو نتيجة حكمة فائقة المدارك والمشاعر فالطفل فى احشاء امه مزوّد بالرئة وهو مازال بالاحشآء لايستخدمها وانما زوّد بها لكى يستخدمها اذا خرج الى الدنيا وهكذا يقال عن عينيه واذنيه وقدميه ويديه فيرى المعتبر ان عملها فى مستقبل بعيد وهذا من اقوى الادلة على تدبير خالق حكيم اذ ليس هذا من الاشياء نفسها لاستحالة كون الشيء فاعلا وقابلا ، ولا من موادّها لخلوها عن المدارك ، ولا من امه لانها لاعلم لها بما يجرى فى ظلمات احشائها ثم ان غرائز الحيوانات ايضا من هذا الباب اذ لايكتسبها الحيوان بتعليم اوتلقين لكونه غير قادر ان يتصور اويتبصر . وناهيك ان

---

(١) هو المنظار الذى يكشف الاشياء الدقيقة ويعظمها

الحيوان الذى يعيش على انفراده معتزلا عن غيره هو مزوّد بهذه الغرائز ، ومنه مايصنع وكره بمهارة تكلّ دونها احذق العقول البشرية مع أنه لايدري ماذا يفعل من هذه الافعال الغريزية التى طبعت فيه ليداوم بها حفظ نوعه فالاختبار اذن لم يعلمه شيئا اذ هو معتزل عن غيره فمن اين له هذه المعرفة السامية ، لاجرم ان مايعرى عن المعرفة لايتجه الي غاية مالم يسدّد اليها من موجود عالم مدبر كما يسدد السهم من الرامي اه « وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم »

﴿ الدليل السادس عشر ﴾

(اخذ الاعمال في الترقى)

ممايستدل به بعض المتكلمين على وجود الخالق تعالى امر اخذ الصناعات فى الترقى وبقاء نظام الكائنات على رقيها لان تعدد الصانع الحادث وترقي صنعته في التحسن بترقيه فى العلم وتنازعه فى الكثرة كالنجار والنجارة والحداد والحدادة وهكذا من اوضح الادلة على وجود صانع قديم ووحدته وكمال علمه وقدرته وظهور صنعته كاملة على ابدع اتقان كالارض ومعادنها والسموات وكواكبها والماء والهواء والنبات والحيوان ولو كان حادثا لتعدد وكان ناقصا فى العلم والقدرة ولظهرت صنعته غير كاملة ولترقت بالتحسين بترقيه فى العلم وتنازعه فى الكثرة ، وانتفاء هذه اللوازم يدل على انتفاء الملزوم اعنى الحدوث فيثبت المطلوب وهو وجود الخالق الحكيم ووحدته تعالى

الدليل السابع عشر

(عشق الموجودات للكمال)

تبين فى الحكمة المتعالية ان لكل موجود من الموجودات العقلية والنفسية والحسية والطبيعية كمالاً مقررا وعشقا ركز فى ذاته شوقا الى ذلك الكمال وحركة الى تتميمه ، فكل احد عاشق للوجود طالب كمال الوجود نافر عن العدم والنقص ، وكل ماهو مطلوب فانما يمكن حفظه وادامته بما هو تمامه وكماله فالمعلول لايدوم الا بعلته لكونها كماله وتمامه ، والحرارة لاتحفظ ولا تدوم الا بحرارة اقوى منها ، والنور لايكمل الا بنور اقوى منه ، والعلم الناقص الظنى لايتم حتى يصير يقينيا لايزول ، وكل وجود ناقص لايصير كاملا الا بما هو اقوى منه وهو علته وبما يديم ذاته ويحقق هويته ، فالهيولى لاتتم الا بصورتها والصورة لاتتم الا بصورها ، والحس لايتم الا بالنفس ، والنفس لاتتم الا بالعقل ، والعقل لايبقى الا بمن يفيض عليه كماله ، (وهو موجده) فاذن كل ناقص ينفر عن نقصه ويسعى الى كماله ويتمسك به عند نيله فيكون كل شئ لامحالة عاشقا لكماله لانه مرجع الكل وغاية الكل وحينئذ فجميع الموجودات متوجهة الى الحق الاول توجها غريزيا ونازعة اليه نزوع افتقار واحتياج ، يقول بعضهم فى هذا المعنى : ان مابنا من النقص الذاتى والضعف الجبلى يقودنا بحكم ناموس التضاد الى القول بوجود مدبر كامل فانه كما ان لكل شيء ضدا كالنور والظلام والعدل والظلم والموت والحياة والقدم والحدوث كذلك العلم المحدود يقابله العلم الغير المحدود والقدرة الناقصة يقابلها القدرة الكاملة : وبالجملة فنقص

الآدمي وعجزه وشوقه لبلوغ امانيه وسعيه وراء كمالات لايدرى غايتها. ونقضه اليوم ماابرمه بالامس مما يبرهن على ان فى الغيب قدرة قاهرة وكمالا باهرا تنتهى اليه الاماني وتطمئن به القلوب ومن هذا قول بعض السلف (١) لما سئل بم عرفت ربك قال: عرفته بنقض العزائم وفسخ الهمم

﴿ الدليل الثامن عشر ﴾

(استحالة كون العالم علة لنفسه فى طريقة انحصار عقلى)

تقرير هذا الطريق ان يقال: العالم اما انه احدث ذاته اوحدث بغير ان يحدثه غيره وبغير ان يحدث هو نفسه، اويكون احدثه غيره. فان كان هو احدث ذاته كان علة لنفسه متقدما عليها فلزم كونه قبل ان يكون وهو محال، وايضا فانه يوجب ان يكون الشيء غير ذاته وهذا محال باطل بالمشاهدة والحس، وان كان خرج عن العدم الى الوجود بغير ان يخرج هو ذاته اويخرجه غيره فهذا ايضا محال لانه لاحال اولى بخروجه الى الوجود من حال اخرى ولاحال هناك اصلا فاذًا لاسبيل الى خروجه وخروجه مشاهد متيقن، واذا بطل ان يخرج العالم بنفسه وبطل ان يخرج دون ان يخرجه غيره فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة اذلم يبق غيره البتة فلا بد من صحته وهو ان العالم اخرجه غيره من العدم الى الوجود وهو بالضرورة الخالق تعالى (اشار له ابن حزم فى الفصل) وثمه فى باب الانحصار الملزم طريقة اخرى اشار لها بعض المحققين قال: ان وجود الاشياء اما بالاتفاق والصدفة. واما بالضرورة واما بالقصد والارادة.

---

(١) نسبه الدوانى الى جعفر الصادق. والخوارزمى الى الحسن بن على رضى الله عنهم

وكل من الاول والثانى باطل · اما الاول فلانه يقتضى وجود معلول بلا علة واما الثانى فيقتضى ان الاشياء على ماهى عليه الآن كانت كذلك منذ الازل والواقع خلاف ذلك على ماثبت فى مباحث التكوين · وحينئذ كيف توزعت عناصر العالم على نسبها المعلومة · ولماذا كان الذهب اقل من الحديد والحديد اقل من الصلصال · وكيف استنسبت الكرة الارضيـة فى خواصّ موادّها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشـارها ونموّها · وكيف نشات الحياة فى الجماد · ماذلك الالان كل حىّ قائم بعناية خالق ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق الازلىّ :

وهذه الطريقة من الادلة العلمية · والعلم الحق دليل على الاله الحق اه

الدليل التاسع عشر

(طريق الالزام)

يقال لمن قال لم نر شيئا حدث الا من شئ اوفى شئ هل تدرك حقيقة شئ عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة او لايدرك شئ من الحقائق الا من طريق الرؤية فقط ، فان قالوا انه قد تدرك الحقـائق من غير طريق الرؤية والمشاهدة تركوا استدلالهم وافسدوه اذ قد اوجبوا وجود اشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة وقد نفوا ذلك قبل هذا فاذا صاروا الى الاستـدلال نوظروا فى ذلك الا ان شبهتهم هذه قد بطلت ، فان قالوا لا بل لايدرك شئ الا من طريق المشاهدة قيل لهم فهل شاهدتم شيئا قط لم يزل فان قالوا لا صـدقوا وابطلوا استدلالهم وان قالوا نعم كابروا وادعوا امالا سبيل الى مشاهدته اذ مشاهدة

قائل هذا القول للاشياء هى ذات اول بلا شك وذوالاول هو غير الذى لم يزل لان الذى لم يزل هو الذى لااول له ولا سبيل الى ان يشاهد ماله اول مالا اول له مشاهدةً متصلة ، فبطلت شبهتهم هذه على كل وجه (اشار له الامام ابن حزم ايضا)

الدليل العشرون

(اعمار الكائنات)

مما يبرهن على ان الكائنات حادثة حتى عند الماديين انهم يقدرون للارض والشمس والكواكب وغيرها اعماراً لقطعهم بحدوثها (١) وهم قاطعون ايضا بان الموجود لايصدر عن نفسه ولا عن معدوم كما قال تعالى « ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون » فتعين ان يكون لهذه الموجودات كلها مصدر وجودى ثم انهم جازمون ايضا بان مصدر الكائنات والاصل الذى وجدت منه غير معروف فى ذاته وانما يجب ان يكون موجودا ذاقوة فالمادى منهم يقول المادة مع القوة اصل الموجودات كلها فاذا سألته ماهى المادة التى تعنيها يقول ان حقيقتها غير معروفة فكانه اختلف مع غيره فى التسمية واتفق الجميع على ان

(١) التاريخ العبرانى يذكر ان اصل الانسان لايتجاوز سبعة آلاف سنة وينقل عن كتابات الكلدانيين ان شعبهم يعود الى سبعمائة الف سنة ، وصحح آخر ان شعبهم لايتجاوز الجيل الثالث والعشرين قبل عصرنا الحالي ، ويرجح بعض علماء الجيولوجيا ان بداءة التاريخ الجيولوجى منذ نحو مائة الف الف سنة لان سطح الارض قبل ذلك لم يكن صالحا للحياة الحيوانية ولا للحياة النباتية ، ولا يخفي ان الحقيقة فى علم التاريخ لاتقوم بمثل هذه الاقاويل بل لابد من اقامة الحجة والبرهان على تحقيق ذلك اوتقريبه من الحقيقه على الاقل الا ان نفع ذلك فى محاجة من يعتقده

هذه الكائنات كلها قد صدرت عن موجود ذى قوة حقيقية غير معروفة الكنه وهو ما عليه المسلمون (٢)

(اقول) يشبه هذا ما يذكره علماء الجدل من باب الاسترسال مع الخصم والاستنزال ارادة نزوله عن فاسد عقيدته . قال تقى الدين السبكى في قوله تعالى « وكذلك نري ابراهيم » الى قوله « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه » هذا تعليم من الله سبحانه لابراهيم عليه الصلاة والسلام للحجة على قومه فاراه ملكوت السموات والارض وعلّمه كيف يحاجّ قومه وقال له حاججهم فى مقام بعد مقام على سبيل التنزل الى ان تقطعهم بالحجة . ولا يحتاج مع هذا الى ان نقول الف الاستفهام محذوفة ، ويؤخذ منه ان المقول على سبيل التنزل ليس اعترافا وتسليما مطلقا وقول الفقهاء تسليم على سبيل التنزل معناه هذا اى انه يقول نقدّر ان الخصم نطق به فننظر ما يترتب عليه اه (١)

الدليل الحادى والعشرون

تاريخ البشر

يسمى قوم هذا الدليل بالدليل الاجماعى وذلك انه ارانا تاريخ البشر ان جميع الناس من مبدء فطرتهم وجميع القبائل والامم هم ذوو اميال دينية حتى انه لا يوجد شعب فى عصر او مكان دون ديانة اصلا وان كان منهم من انحرف فى دينه بما زاد اونقص فضل واضل الا ان معرفة الله مغروسة فى قلب افراد الانسان

(٢) هذا الدليل قرره بعض المحققين ثم قال هو اقرب الدلائل تنبيها واقناعا لعقول المشتغلين بالعلوم العصرية اه

(١) نقله عنه ابنه التاج في ترجمته من طبقاته

وهى من البديهيات فى النفس اذالناس جميعهم يشعرون بانهم متعلقون باله عظيم، ومربوبون لرب ازلى قديم، وهذا الشعور لايمكن ان يكون اختراع عقل بشرى، لانه سبق كل تقدم علمى، ولايمكن للمرء ان ينتزعه من فواده لامتزاجه به امتزاجا يغلب كل وسواس وقد قال بعض من ذرع الارض برحلاته، ودرس احوال الامم بتنقيباته، انه يمكننا ان نجد بلادا خالية من الاسوار او العلوم السلطة او البيوت او السكان او الدراهم او النقود وقوما غير خبيرين بالمدارس والمحافل والملاهي ومامن رجل راى مدينة خالية من معابد الله وغير قائمة بصلوات وايمان وعبادات تقام للفوز بارب، اولدفع بلاء وتفريج كرب، فهذا دليل على ان الله خلق البشر وزوّدهم بمواهب روحية تمكنهم من معرفة وجوده معرفة تنبعث من النفس وتصدر من صميم القلب ولذا فكل انسان متي بلغ من القدرة ان ينظر فى امور دينه يعتقد ذلك طبعا كما يعتقد الانسان بوجود الشمس عند فتح عينيه لنورها. وقد تاكد تعميم العاطفة الدينية في الجبلة الانسانية عند افتتاح اميركا واوستراليا والاراضي المجهولة فقد راى الرحالة النقابة بعد الفحص المدقق مصداق ماتقدم انه لايمكن ان يوجد مكان خال من مساجد الله وذكر اسمه الجليل، ولا يسعنا ان نورد كل ماشاهده الرحالة الذين قدموا الى تلك البلدان ولاان نذكر عقائدهم التي تداولوها الا انا نقول بالاجمال : ان الاعتقاد بواجب الوجود وخلود النفس من اركان ديانتهم وكذا الاعتقاد بمكافأة الصالحين ومجازاة المفسدين، بل شوهد عند اعظم الشعوب توحشا وهمجية الاعتقاد بوجود مولى عظيم فى السماء :

وقولنا آنفا ان الدين والاعتقاد بوجود الله سبقا كل تقدم نريد به انهما ظهرا مع

ظهور الانسان ووجوده على الارض ولذلك فلا يعلم شيء من امر القدماء الا انهم ذوو اديان

قلنا سمى بعضهم هذا الاستدلال بالدليل الاجماعي لاخذه عن اجماع الامم على الاقرار بوجود آله قد ابدع الكائنات من عدم المادة وهو لا يزال يكلؤها و يدبر شوءونها ولا خالك تجهل ان اجماع الامم على حقيقة لا يكون الا معصوما عن الضلال، وما يزعمه زاعم من ان بعض امم لم يعرفوا الخالق تعالى فما هو الا ادعاء باطل كما تبين للموءرخين والمستقرئين الآن الذين جالوا بين اولئك الشعوب وتعلموا لغاتهم واستقروءا اخبارهم فوجدوهم على اتم اتفاق على الاقرار بوجود الله سبحانه وقد اتو بتفاصيل لا يشوبها ريبة : وعلى فرض صحة ان بعض الشعوب الضاربين فى معامى الارض لا تعرف الخالق فانهم نفر قليل يعدون من الشواذ (ولكل قاعدة شذوذ) ويحال شذوذهم على مرض عرض على هذا الشعور الفطري كما يعرض للاحساس بالحلاوة مرض يمنع من ادراكها وكما يعرض لبعض مراكز المخ شيء يحول دون ادراك بعض المعلومات مع سلامة سائر المدارك : وهكذا يجاب عما يقال بان من المعطلة من لا يشك بسلامة عقولهم فان من الناس من يضعف ادراكه لشيء واحد وان كان قويا فى غيره ولم يعرف احد قويت مداركه فى كل فرع من انوع الادراك : هذا ان سلم وجود من لا فطرة له تنزلا والا فما من فرد الا ويولد علي الفطرة ولا من شعب الا وهو ذو ديانة يعول عليها فى امر عقائده

وسكان الكرة اليوم معدلهم (١٤٤٠) مليونا (١) يعترفون باله خالق قديم فهل

(١) على ما استقرأه علماء الجغرافيا كما تراه فى اسفارها المطولة

يمكن ان تكون شهادة (١٤٤٠) مليونا بوجود خالق قديم حكيم الا حقا وصدقا بلى ، وهل فى وسع وهم ان ينتشر بين (١٤٤٠) مليونا من الخلائق العاقلة كلا فإن حبل الكذب قصير والتمويه لا يصير طبعا . وكأني بمن يقول : الحق لا يصير حقا بكثرة معتقديه ، ولا يستحيل باطلا بقلة منتحليه ، وكذلك الباطل ، فيقال هذا فى مقام فيه قلة وكثرة اما فيما احاط به الاجماع والاتفاق من سائر مناحيه ، فلا يقال ذلك فيه ، وقد اوضحنا الاجماع والاتفاق على فطرة التوحيد ، على ان العاقل كما قالت الحكماء يظن بالراى الذى سبق اليه الاتفاق من جلة الناس وافاضلهم انه اولى بالتقديم والايثار ، واحق بالتعظيم والاختيار ، لانه يكون مقوّما بالبحث مخبورًا بالفكر مصقولا على الزمان تلمسه كل يد وتجتليه كل عين ويصير ثباته على صورته الواحدة دليلا قويا وشاهدا زكيا على حقيقته لانه يبرأ حينئذ من هوى ويعرى من تعصب ناصره ويبقى بصورته الخاصة ويجرى مجري السكينة التي لا تحتاج الى علاج المعالج وتمويه المموه وانتقاد المنتقد وتنفيق المنفق وحيلة المحتال

قال الحكيم المعلم الثانى الفارابى : انا نعلم يقينا انه ليس شئ من الحجج اقوى وانفع واحكم من شهادات المعارف المختلفة بالشىء الواحد واجتماع الاراء الكثيرة اذ العقل عند الجميع حجة . ولاجل ان ذا العقل ربما يخيل اليه الشىء بعد الشىء على خلاف ماهو عليه من جهة تشابه العلامات المستدل بها على حال الشىء احتيج الى اجتماع عقول كثيرة مختلفة فمهما اجتمعت فلا حجة اقوى ولا يقين احكم من ذلك ، ثم لا يغرنك وجود اناس كثيرة على آراء مدخولة فان

الجماعة المقلدين لراى واحد المدعين لامام يوءمهم فيما اجتمعوا عليه بمنزلة عقل واحد والعقل الواحد ربما يخطىء فى الشىء الواحد حسب ماذكرنا لاسيما اذا لم يتدبر الراى الذى يعتقده مرارًا ولم ينظر فيه بعين التفتيش والمعاندة · وان حسن الظن بالشىء اوالاهمال فى البحث قد يعمى ويخيل · واما العقول المختلفة اذا اتفقت بعد تامل منها وتدرب وبحث وتنقير ومعاندة وتبكيت واثارة الاماكن المتقابلة فلا شيء اصح مما اعتقدته وشهدت به واتفقت عليه اه ونحن نجد الالسنة المختلفة متفقة فى هذا الباب ، نقول هذا تنزلا مع من يشاغب وتنويهاً للاستدلال عليه والا فالحق اوضح من ان يتمارى بين يديه ، واظهر من ان يبرهن عليه ·

اذا نظر الانسان الى امر العقيدة والدين يجد أنّ عقله يحمله عليه وقلبه يشعر به ويقضى بضرورته لما ياتى من حلّ مسائل ليس لعقل اكبر حكيم ان يتفصى عنها او يحل عقدتها فالعقيدة مركز جميع الفضائل ، وفلسفة جميع الاعصار والاعمار وركن الاخلاق ، وقوة الشرائع ومفزعها ، وعماد الملوك ونصرة الشعب وسلوة الحزين ·

﴿ الدليل الثانى والعشرون ﴾

(أمر النبوات وآياتها الباهرة)

ان النبوات وآياتها البيّنة · ومعجزاتها الباهرة · امر كبير وبرهان منير · فقد جاءت الرسل عليهم السلام تترى مبشرين ومنذرين عاضدين لفطرة الله التى فطر الناس عليها فادّعوا وبرهنوا وقاوموا وانتصروا فلم يكن أشفى ولا انفع من

النظر فى كتبهم وهديهم وآياتهم ومعجزاتهم ، وقد اعتضد ذلك بامرين ، احدهما استمرار نصر الانبياء فى عاقبة امرهم واهلاك اعدائهم بالآيات الرائعة وثانيهما سلامتهم واتباعهم ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب بهم كما نزل على اعدائهم وذلك بين فى القرآن وجميع كتب الله تعالى وجميع تواريخ العالم ومن غريبها الذى لايكاد احد ينظر فيه حفظهم مع ضعفهم من الاعداء الاقوياء ثم يعتضد هذا ايضا بما يناسبه من كرامات الصالحين (١) وعقوبات الظالمين المتواترة والمشاهدة ، ثم ماوقع من تكرر نصر الله تعالى للحق والمحقين وانهم وان ابتلوا فالعاقبة لهم كما يشهد له استقراء التاريخ ، ثم ماقد وقع للانسان من اجابة الدعوات (٢) وكشف الكربات ، وستر العورات وتيسير الضرورات

(١) الكرامات جمع كرامة وهي امر خارق للعادة يكرم الله به من شاء من اوليائه واصفيائه . والكرامة جائزة عقلاً لانها من جملة الممكنات التى لاتستحيل على القدرة الآلهيه — وواقعة نقلا في آيات مشيرة لذلك واحاديث صحيحة واخبار متواترة قال محشى البصائر : وقد يحصل الاشتباه من اشتراك لفظ العادة والاشتباه في معنى لفظ الخارق فيعتقد ان كل ماخالف مالوف العادة فهو كرامة ولواخذ لفظ العادة على ماوضع في التعريف وهي سنة الله المطردة في الخليقة باسرهاوفهم معنى الخارق لما وهوما يصدر من القادر المختار على خلاف ماقرره فى نظام الخليقة لانكشفت غمة الوهم فى هذا الباب : جعلنا الله ممن يوالى اولياءه . ويعادى اعداءه بمنه وفضله

(٢) امر اجابة الدعوات لكثير من الداعين امر لاريب فيه لوروده فى الكتب المنزلة والاحاديث الصحيحة ووقوعه الى الآن في قضايا لايحصيها الحسبان . قال الائمه : اذا اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وصدق لجأه الي الله تعالى وحضور قلبه وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف منه خشوعاً وانكساراً وتضرعاً ورقةً والحاحاً فى المسئلة وتوسلاً اليه سبحانه باسمائه وتوحيده فيكاد ان لاتختلف الاستجابة وذلك ان—

وقضاء الحاجات وكشف المشكلات ، فى المعارف الخفيات . وهذه الاشياء اذا ضمت الى البراهين حصل من مجموعها قوة يقين كثيرة (اشار لذلك السيد ابن المرتضى اليمانى فى ايثار الحق)

لطيفة مؤيدة

من راى العلامة المرجانى ، محشى شرح الدوانى ، ان تصديق النبى هو اول الواجبات (قال) لان العلم الثابت بخبر الرسول المؤيد بالمعجزات ، يضاهي العلم الثابت بالضرورة فى التيقن والثبات ، (قال) ولان الاحكام الشرعية كلها حتى وجوب تصديق مدعى النبوة وصدق دعواه فى البعثة تثبت بخبر الرسول لان مايعطي وجوب الاعتقاد هو الشرع لان الحاكم عندنا هو الله تعالى ليس الا ولا يلزم الدور من ثبوت الشرع بنفسه لانه لايتوقف الا على العلم بصدقه وهو حاصل لتمكن العاقل منه فرط التمكن كانه مركوز فى فطرته يكفيه

— الادعية بمنزلة السلاح والسلاح بضار به لا بحده فقط ، قال الامام ابن القيم في الجواب الكافي : وههنا سؤآل مشهور وهو ان المدعو به ان كان قد قدّر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد اولم يدع وان لم يكن قد قدّر لم يقع سواء ساله العبد اولم يساله فظنت طائفة صحة هذا السؤآل فتركت الدعاء وقالت لافائدة فيه . وهؤلاء مع فرط جهلهم يتناقضون فان طرد مذهبهم هذا يوجب تعطيل جميع الاسباب فيقال لاحدهم ان كان الشبع والري قد قدّر لك فلا بد من وقوعهما اكلت اولم تاكل وان لم يقدّرا لم يقعا اكلت اولم تاكل (الى آخر ماطال به واطاب مما حاصله ان الدعاء نوع من الاسباب المقدرة وهكذا حقق ذلك العلامة الشيرازي في اواسط السفر الثالث من اسفاره الاربعه : وما الطف ماجاب به بعض الصوفية لما سئل مالنا ندعوه تعالى فلا يستجيب لنا فقال لانه دعاكم فلم تستجيبوا له :

التذكير من الشارع بحمله على الالتفات الى دعوته فاذا التفت اليه المخاطب ادنى التفات يحصل له المعرفة بصدقه كما قال الله تعالى « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب » اى ليستحضروا ماهو كالمركوز فى عقولهم لفرط تمكنهم منه فثبوت الاحكام كلها فى نفس الامر بالوضع الالهى والامر التكوينى وثبوت الحجة على المخاطب به بنفس اخبار النبى لفرط تمكنه من معرفته فلو انكره عناداً او تساهلا فقد حقت عليه الضلالة وسبقت اليه الشقاوة نعوذ بالله من شرور انفسنا وسيآت اعمالنا ولو تنزلنا عن دعوى الضرورة والظهور فنقول ثبوت المعجزة وصدق النبوة يستند الى قضية عقلية يعطيها النظر فى احوال النبي وافعاله واخباره واقواله التي تضمنها القرآن واشتملت عليه دواوين السنة وكتب السير والآثار فيحصل ذلك بمشافهته في حياته وبمطالعة آثاره بعد مماته انتهى كلام المرجانى ومن سبر كلامه وآرائه فى حواشى الدوانى راى له نفائس نكت وتحقيقات ، وقوة صدع فى الحق وغرائب اختيارات ،

﴿ الدليل الثالث والعشرون ﴾

(التحاكم الى الانصاف)

تبين فى مباحث الحكمة المتعالية في طريق التوفيق بين الشريعة والحكمة : ان الحكمة غير مخالفة للشريعة الحقة الآلهية بل المقصود منهما شيء واحد هي معرفة الحق الاول وصفاته وافعاله ، وهذه — المعرفة — تحصل تارة بطريق الوحي والرسالة فتسمي بالنبوة وتارة بطريق السلوك والكسب فتسمى بالحكمة

او الولاية (١) — وانما يقول بمخالفتها فى المقصود من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعية على البراهين الحكمية ، ولا يقدر على ذلك الا مؤيد من عند الله كامل فى العلوم الحكمية مطلع على الاسرار النبوية فانه قد يكون الانسان بارعا فى الحكمة وحدها ولا حظ له من علم الكتاب والشريعة او بالعكس ، فالعقل السليم اذا تأمل تأملا شافيا وتشبث بذيل الانصاف . متبرئا عن الميل والانحراف . والعناد والاعتساف . وتدبر ان طائفة من العقول الزكية والنفوس المطهرة الذين لم تتدنس بواطنهم بارجاس الجاهلية . ولا ادناس النفسانيه ولم ينحرفوا عن سبيل التقديس ، ولم ياتوا بباطل ولا تدليس . وكانوا مؤيدين من عند الله بامور غريبة فى العلم والعمل ومعجزات وخوارق للعادات . من غير سحر وحيل . ولا غش ولا دغل . ثم أصروا على القول بحدوث هذا العالم وبواره بعد وبالغوا فى ذلك وتشددوا فى الانكار على منكريه مع ظهور انه لا يضرهم القول بقدم العالم ولا يخل بالشريعة فى ظاهر الامر فيجزم لا محالة انهم ما نطقوا عن الهوى وما اخبروا الا عن يقين حق واعتقاد صدق ثم اذا رجعنا الى البراهين العقلية التى لا شك ولا ريب فى مقدماتها اليقينيه وجدناها ناهضة على ان صانع العالم واحد صمد لا يعتريه نقص ولا تغير ولا لغوب ولا قصد الى تحصيل مصلحة يتكمل بها ، ويتبين انه تام الفعل تام الارادة ولم يزل باسطا يده بالرحمة والعطاء فى الآباد والآزال بلا قصور ، انما القصور فينا ابناء عالم الدنيا والاجسام وسكان قرية الهيولى الظالم اهلها وهي دار الزوال والانتقال اه ملخصا من

(١) في القاموس : ولى الشئ وعليه ولاية وولاية بالكسر والفتح

الدليل الرابع والعشرون

(شهادة الفلاسفة الاقدمين)

قال الحكيم ابن مسكويه فى الفوز الاصغر : لم يختلف احد من الاوائل ممن استحق هذه التسمية فى اثبات الصانع عز وجل ولا حكى عن احد منهم انه جحده اوانكر شيئا من صفاته · وبالواجب وقع هذا الاتفاق بينهم لان الانسان متى تهذب بالتدرب والارتياض ودوام لزوم الحق واسترسل الى العقل وصار مفارقا للحس والاوهام التابعة له افضى به الى ماافضى بغيره من اهل الحكمة ووقف به حيث وقفوا ورأى ماراه الحكماء ودعا اليه الانبياء عليهم السلام فان جميعهم انما امروا بالتوحيد ولزوم احكام العدل واقامة السياسات الالهية بالازمنة والاحوال وحملوا الخواص من الناس على طريقة الادب والفهم فان الانبياء عليهم السلام منزلتهم من نفوس الناس منزلة الاطباء من الابدان فهم يعالجون الناس معالجة المرضى : ثم اورد من الحجج البالغة مايعلم به ان ضرورة البرهان تقود كل من نظر حق النظر الى التوحيد والاقرار بالصانع الاول الاحد الذي ابدع الاشياء كلها وتعالى عنها علوا كبيرا

وقد اوضح الشيرازى فى الاسفار الاربعة ذلك ونقل من اقوال الحكماء الاولين مادل على انهم قد اصابوا الحق فى هذه المسئلة وانهم وافقوا اهل السفارة الالهية فى حدوث العالم ورجوعه الى الخالق الاول تعالى كيف لا وقد قال الفارابى : ان الغاية التى يقصد فيها من تعلم الفلسفة هي معرفة الخالق

تعالى وانه واحد وانه العلة الفاعلة لجميع الاشياء وانه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله

وقد اشتهر عن ارسطو القول بقدم العالم مخالفا لافلاطون فقام الفارابي يفند هذا الزعم فى كتابه الجمع بين رأيي الحكيمين المنوه بهما وابان مادل عليه فحوى كلامهما من الاتفاق بين ما كانا يعتقدانه ، وازال الشك والارتياب عن قلوب الناظرين فى كتبهما · ولا بأس ان نقتطف جملة من كلامه لتاييد ذلك قال رحمه الله : ومما يظن بارسطوطاليس الحكيم انه يرى ان العالم قديم مع ان من نظر اقاويله فى الربوبية فى الكتاب المعروف باثولوجيا (١) لم يشتبه عليه امره فى اثباته الصانع المبدع لهذا العالم فان الامر فى تلك الاقاويل اظهر من ان يخفى وهناك يبين ان الهيولى ابدعها البارئ جل ثناؤه لا عن شيء وانها تجسمت عن البارئ تعالى وعن ارادته ثم ترتبت · وقد بين فى السماع الطبيعى ان الكل لا يمكن حدوثه بالبخت والاتفاق وكذلك يقول في العالم جملته ويستدل على ذلك بالنظام البديع الذى يوجد لاجزاء العالم بعضها مع بعض · وكذا بين فى كتاب اثولوجيا بيانا شافيا انها كلها حدثت عن ابداع الباري لها وانه عز وجل هو العلة الفاعلة الواحد الحق مبدع كل شيء على حسب ما يبينه افلاطون فى كتبه فى الربوبيه (ثم قال الفارابي) لولا الاطالة لبينا انه ليس لاحد من اهل المذاهب والنحل من العلم بحدوث العالم واثبات الصانع له وتلخيص امر الابداع ما لارسطوطاليس وقبله لافلاطون ومن

(١) كذا في الاصل وصوابه بثئولوجيا ومعنى ثه ئولوجى علم الآلهيات

سلك سبيلهما اه

وللعلامة الشيرازى فى الاسفار الاربعة نقول مسهبة عن مشاهير الفلاسفة كلها تدل على انهم أصابوا الحق فى هذه المسئلة وانهم وافقوا اهل السفارة الالهية فى حدوث العالم ورجوعه الى خالق ازلىّ سبحانه وتعالى ومن كلام الشيرازى « من لم يكن دينه دين الانبياء عليهم السلام فليس من الحكمة فى شيء ولا يعد من الحكماء من ليس له قدم راسخة فى معرفة الحقائق . والحكمة من اعظم المواهب والمنح الآلهية واشرف الذخائر والسعادات للنفس الانسانية » قال الفارابى : ان الغاية التى تقصد من تعلم الفلسفة هي معرفة الخالق تعالى وانه واحد وانه العلة الفاعلة لجميع الاشياء وانه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله

﴿ الدليل الخامس والعشرون ﴾

(اخذ العقل السليم فى الخشية والاشفاق والخروج من الحيرة)

ماجاء على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من التخويف بالعذاب على الجحود والتوعد الأكيد به وقص ماحل بسببه على من مضى من المكذبين لما يحمل النفس على اخذ الاهبة والعمل للحيطة اذ العقل يدعو الى الاعتبار ، والحكمة تحث على الاستبصار ، وفى وجدان الانفس الخوف عند التخويف نزول عن القطع بالتكذيب الذى هو اول مايرومه الشيطان فاذا نزلت من ذلك وجب عليها فى شرع العقل تصديق الثقة والعمل بما غلب من الظن احتياطا وتحرزا فكيف اذا جاء الثقة مع ظن صدقة بالمعجز القاهر وعضدته البراهين المتقدمة والى هذه الطريقة الاشارة بقوله تعالى « قل ارايتم ان كان من عند

الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » ومن انفع ما تدفع الحيرة به انه لا بد من لزوم الحارة فى العقول على كل تقدير وبالاسلام تندفع المحارات كلها وتخرج العقول من الظلمات الى النور لانه لا أهدى منه للعقول ولا اشفى منه لامراض المجتمع كما قال تعالى « ايتونى بكتاب هو اهدى منهما اتبعه » اى ولا اهدى فوجب اتباعه ولو فرض ان المحارة لازمة للاسلام فهى لما عداه الزم ، ومن لم يقبل الايمان بالبرهان والقرآن ، قبل الكفر بلا قرآن ولا برهان ، ثم ان مادة هذه الوساوس عجب الانسان بعقله وعلمه وظنه انه اذا لم يعرف شيئاً فهو باطل مع انه كما قال فيه اصدق القائلين « انه كان ظلوما جهولا » ولا تتوهم كفر النفس وجفائها برهانا معارضا لبراهين الحق بل ولا هو شبهة ابدا ولذلك يزول ريبها وشكها بمعاينة الاهوال كمعاينة هول المطلع (١) ومن طبائع النفوس الايمان عند شدة الخوف ولذلك آمن قوم يونس لما رأوا العذاب وآمن فرعون حين شاهد الغرق وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله « بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب » ولذلك يرجع كثير من العقلاء عند الموت عن عقائد وقبائح وشبهات كانوا مصرين عليها (٢) وليس ذلك لتجلى برهان حينئذ بل لان الطبع القاسى كان كالمعارض للبرهان فلما لان بقى البرهان بلا معارض

(١) المطلع بضم الميم فتشديد الطاء ثم لام مفتوحة موضع الاطلاع من اشراف الى انحدار ، شبه ما اشرف عليه من الآخرة بذلك (٢) حكى الاصمعى ان آخر ما تكلم به ذو الرمة الشاعر المشهور

﴿ يا مخرج الروح من نفسى اذا احتضرت * وفارج الكرب زحزحنى عن النار ﴾

وكذلك لوشاهد فرعون وغيره اعظم برهان بغير خوف ماآمنوا كما قال تعالى « فما كان دعواهم اذ جاءهم باسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين ،فلما راوا باسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين »وقد اكثر التنزيل الكريم من الجمع بين الادلة والوعيد سيما قصص المعذبين فانه كان معلوما لهم بالضرورة فتاثيره فى النفوس اقوى . وبالجملة فقد ظهر ان الايمان بالخالق تعالى هو الحق وان الخوف العظيم فى عدمه كما قال القائل (١)

قال المنجم والطبيب كلاهما * لاتبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فليس بضائرى * اوصح قولى فالوبال عليكما

ومثل ذلك قول الآخر

ورغبنى فى الدين ان دليله * قوى ويخشى كل شر بجحده
وكرهنى للكفر ان فساده * جلىّ ويخشى كل شر بقصده

بل كما قال تعالى « قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق بعيد » اى من اضل منكم آثر الموصول ليظهر اتصافهم بالصلة

(١) هو ابوالعلاء المعرى ونصهما مع تتمتها كما فى اللزوميات

قال المنجم والطبيب كلاهما * لاتحشر الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * اوصح قولي فالخسار عليكما
طهرت ثوبي للصلاة وقبله * طهر فاين الطهر من جسديكما
وذكرت ربي فى الضمائر مؤنسا * خلدى بذاك فاوحشا خلديكما
وبكرت فى البردين ابغى رحمة * منه ولا ترعان فى برديكما
ان لم تعد بيدى منافع بالذى * آتى فهل من عائد بيديكما
برد التقى وان تهلل نسجه * خير بعلم الله من برديكما :

وهذا المسلك مما تداوى به النفوس الجامحة والوساوس الغالبة (اشار له الامام السيد اليمانى فى ايثار الحق رحمه الله تعالى)

وقد اشار لهذا الدليل حجة الاسلام الغزالى فى احيائه فى اواخر كتاب التوبة قبيل كتاب الصبر والشكر بقوله فى علاج الشك الذى هو احد اسباب وقوع المرء فى الذنب مامثاله : واما الشك فهو كفر وعلاجه الاسباب التى تعرّفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ماقاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات على صدقه هل هو ممكن اويقول اعلم انه محال كما اعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة فان قال اعلم استحالته كذلك فهو اخرق معتوه وكانه لاوجود لمثل هذا فى العقلاء . وان قال انا شاك فيه فيقال لواخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة انه ولغت فيه حية والقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تاكله اوتتركه وان كان الذ الاطعمة . فيقول اتركه لامحالة لاني اقول ان كذب فلا يفوتنى الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق فتفوتنى الحياة والموتُ بالاضافة الى الم الصبر عن الطعام واضاعته شديد . فيقال له ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع اصناف العقلاء ولست اعنى بهم جهال العوام بل ذوى الالباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر واثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا فى كيفيته فان صدقوا فقد اشرفت على عذاب

يبقى ابد الآباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة . فلا يبقى له توقف ان كان عاقلا مع هذا الفكر اذلانسبة لمدة العمر الى ابد الآباد بل لوقدّرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدّرنا طائرا يلتفظ فى كل الف الف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص ابد الآباد شيئا فكيف يفتر راى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى ابد الآباد ولذلك قال ابوالعلاء (وذكر الغزالى بيتيه المتقدمين ثم قال) ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الاموروكان شاكا ان صح ماقلتَ فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصتُ وهلكتَ اى العاقل يسلك طريق الامن في جميع الاحوال (ثم قال الغزالى) وقدروى في حديث طويل انه قام عمار بن ياسر فقال لعلى ابن ابى طالب : ياامير المؤمنين اخبرنا عن الكفر على ماذا بنى فقال على رضى الله عنه بنى على اربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرّته الامانىّ فاخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب اه كلام الغزالى رحمه الله تعالى

فذلكة البراهين وحاصل المحصول

كل من تقدم الى الادلة المتقدمة وحكّم العقل السليم فيها أذعن لعز الحق وسطوته ، واخذت حجته بناصية شبهته ، كيف لا وان امام المرتاب الفطرة وصدقها ، واللغات واصولها ، والتواريخ وفروعها ، والشرائع واركانها ، والصنائع وفنونها ، والفلسفة ومبادئها ، والكائنات وآياتها ،

فياعجبا كيف يعصى الاله * ام كيف يجحده الجاحد

وفى كل شيء له آيـة * تدل على انـه واحـد

فذاته العلية سبحانه وان لم تدركها الابصار فقد ادركتها البصائر بما تشاهده من الآيات الناطقة من قدرته بما يجلو الاذهان ويشق غياهب كل شك ، وكل من قويت بصيرته واحتد نظره لاحت له الآيات الآلهية اوضح من الامور الاوليات لما انها فى نظر العقل اظهر وانور وابهى ، على انا في جميع ماأوردناه ونورده انما نكتب لمن يرى للنظر حقا ، وللعقل قدرا ، وله فى الانصاف مذهب ويدلى الى المعرفة بنسب ، والافياضيعة قوانين الحكمة ودلائل المعقول اذ لم تصادف قوة بصيرة وزيادة استعداد وجودة قريحة كما قال ابن سهل

اقلد وجدى فليبرهن مفندى * فما اضيع البرهان عند المقلد

نعوذ بالله من اضاعته ونبرأ الى الله ممن يضيعه وهكذا قال العلامة الشيرازى فى اوائل المجلد الثالث من الاسفار الاربعة : نحن لم نقصد فى تحقيق كل مسئلة وتنقيح كل مطلوب الا التقرب الى الله تعالى في ارشاد طالب ذكى ، اوتهذيب خاطرتقى فان وافق ذلك نظرابناء البحث والتدقيق فهوالذى اردناه ، وان لم يوافق فمعلوم ان الحق لايوافق عقول قوم فسدت قرائحهم بامراض باطنية أعيت اطباء النفوس عن علاجهم حتى خوطب النبى صلى الله عليه وسلم «انك لاتهدى من احببت» لاجرم لما شرعوا فى الحكمة على غير ماينبغى مازادهم الا نفورا واستكبارا فى الارض حيث لم يظفروا منها بطائل ولم يصلوا الى حاصل وفاتهم مع هذا الحرمان العظيم مكنة استعدادهم للاقتداء بالامثال

السمعية والمناهج الشرعية وذلك هو الخسران العظيم ، والحرمان الاليم ، وليس للحكيم الربانى مع هوءلاء نداء وخطاب كما قال تعالى « وان يروا كل آية لايوءمنوا بها » وكيف يوءمنون بالغيب ولا استعداد لهم فان لقبول الحكمة ونور المعرفة شروطا واسبابا كانشراح الصدر وسلامة الفطرة وحسن الخلق وجودة الرأى وحدة الزهن وسرعة الفهم مع ذوق عرفانى ونور قلبى « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » انتهى

بيان ان ارباب البراهين عوام عند العارفين

قال المعلم الثاني الفارابى فى فصوصه : لا وجود اكمل من وجوده تعالى) فلا خفاء به من نقص الوجود فهو في ذاته ظاهر . ولشدة ظهوره باطن . وبه يظهر كل ظاهر . كالشمس تظهر كل ظاهر وتستبطن لاعن خفاء : وقال العارف ابن عطاء الله في لطائف المنن : ارباب الدليل والبرهان . عوام عند اهل الشهود والعيان . قدسوا الحق في ظهوره ان يحتاج الى دليل عليه . وكيف يحتاج الى الدليل من نصب الدليل . وكيف يكون معرَّفا به وهو المعرِّف له : ومن كلامه ايضا : شتان بين من يستدل به ويستدل عليه . ومن مناجاته قدس سره . الهي كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك ايكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهرَ لك . متى غبتَ حتى تحتاج الى دليل يدل عليك . ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك . ومن حكمه انما حجب الحق عنك شدة قربه منك . « ومن شدة الظهور الخفاء »

كلمة للجاحظ فيما يدعو لاشهار المشتهر واظهار الظاهر

يرى ذو العقل السليم ان فى وضوح الحق ونور ضيائه غنية عن اشهاره ومنتدحا عن اظهاره ، الا انا نستشهد بكلمة للجاحظ فى مثل هذا المقام قال : لولا كثرة الضعفاء مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بالسنتنا واستعانوا بعقولنا على اغبيائنا واغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر واظهار البارز والاحتجاج الواضح ولذا لم يؤت من أُتى الا من قبل ضعف العناية وقلة المبالاة ، ومن قبل الحداثة والغرارة ، ومن قبل انهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبل العلم بجليله مالم تبلغه قواهم ، وتتسع له صدورهم وتحمله اقدارهم . فذهبوا عن الحق يمينا وشمالا ، لان من لم يلزم الجادّة تخبط . ومن تناول الفرع قبل احكام الاصل سقط . ومن خرق بنفسه وكلفها فوق طاقتها ولم ينل مالا يقدر عليه تقلّت منه ما كان يقدر عليه . فاذا كانوا كذلك فانما أُتوا من قبل انفسهم ولم يؤتوا من قبل العلم الصحيح والعقل السليم . وكل من استغنى عن البحث والتنقيب قلّ نظره واعتباره ومن قل اعتباره قل علمه . ومن قل علمه قل فضله . ومن قلّ فضله كثر نقصه . ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يجد راحة الطمأنينة ولا برد اليقين . وان لذة البهائم لاتعادل لذة الحكيم العالم . واى سرور كسرور اتساع المعرفة وكثرة صواب الرأى والنجح الذى لاسبب له الا حسن النظر ثم العلم بالله وحده انتهى ملخصا ولا تنس امراً آخر قد يحمل هؤلاء الدخلاء الموصوفين على التخبط الا وهو سكرة الترف . والشغف بالسرف فتراهم يهيمون فى اودية الضلال . ويركضون فى مجال العبث خيول

الخيال كما قال هشام (١) ان النعمة اذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته فاساء حمل الكرامة . واستقلّ العافية . ونسب مافى يديه الى حيلته وحسبه وبيته . ورهطه وعشيرته . فاذا نزلت به الغِيَر وانكشطت عنه عماية الغىّ ذل منقاداً وندم حسيرا : والاصل فى هذا قوله تعالى « ولكن طال عليهم الامد فقست قلوبهم » وقوله سبحانه « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » قال بعض ائمة التفسير اى مااسخف عقل الانسان فانه مع شدة فقره فى نفسه وظهور ان الله مالك كل شئ عنده يطغى ويخرج عن الحدّ الذى عليه ان يقف عنده فيستكبر عن الخشوع لربه ويتطاول بالاذى على خلقه :

﴿ تمثيل حال من لم تقنعه دلائل العقل ﴾

كل من لم تقنعه دلائل العقل وبراهين النظر ولم يسلم الا بما يتناوله اللمس . اويقع تحت الحس . فذاك بعد فى دور الطفولية فالاجدر اغلاق باب البحث معه فى المسائل العقلية . لانه غافل عن مبلغ قدر العقل يريد ان يرجع بالافهام القهقرى وقد قال فلاسفة العمران العلمى : انه انقضى من ادوار الاجيال دور الطفولية وجاء بالاسلام دور بلوغ الرشد . ولذا كان من اعلى مزايا الاسلام ومحاسنه ان جاء يخاطب العقل ويستنهض الفكر ليصل بالمتفكر الى اليقين فيميز بين ماكان يوءخذ بالتقليد . وبين مايرشد الى البرهان السديد . واما من اراد طمأنينة النفس بطريقة اصحاب الافتراض فقد حل به البلا . واحاط به الشقا . لان مزاعمهم جدل وايهام . وتشبيه وتمويه . وترقيق وتزويق .

(١) كما في كامل المبرد

وقشر بلا لب . وارض بلا ريع . وطريق بلا منار . واسناد بلا متن . المبتدئ فيه سفيه . والمتوسط مخلّط والمنتهى مرتاب . اين هذا من حكمة الوحى التى لايزال العلم يؤيدها . والحق يعضدها . ولا غرو فلطائف الحكمة لايصل اليها الحسّ الجافى . والقلب السقيم . وانما تعرض لمن صح ذهنه . واستنار عقله . وما يُنظر منه فى الظنون فلا يرث الانسان منه الا الشك والمرية والاختلاف والفرقة . وهناك للهوى ولادة وحضانة . وللباطل استيلاء وجولة وللحيرة ركود واقامة . وما الطف قول السيد اليمانى فى ايثار الحق : واما ائمة الكفر فهم كمن استحكم الداء عليه فلا تنفعه الادوية النافعه . فالداعى لهم الى حق من حقائق الايمان . وان جاء باعظم برهان . فى الياس منهم وعدم الطمع فيهم كالداعى العميان الى النور . والأموات الى الخروج من القبور . وكيف الطمع فى هداية قوم قد اقام ربهم عليهم الحجة مرارا . اولها بخلقهم على الفطرة . وثانيها بطول المهلة . وثالثها ببعثة الرسل بالمعجزات الباهرة . والآيات الظاهرة . الى غير ذلك من آيات الانفس والآفاق فجحدوا الجميع وكفروا الكفر الفظيع . مع ايمانهم بابطل البواطل . التي لايتصور الايمان بمثلها من عاقل اه



المطلب الثاني

(فى تحقيق مسائل من الالهيات)

استحالة اكتناه ذات الخالق تعالى

كل من تعرض لمعرفة الذات العلية بعقله فقد تعرض لامر يعجز عنه . ولا يمكنه بلوغ الارب منه . والمرء اذا عجز عن معرفة كنه نفسه بل عن اكتناه ابسط الاشياء لديه فعن معرفة اكتناه الحق تعالى بالاولى . فمعرفتنا به سبحانه انما هي علمنا اليقيني بوجوده و باسمائه الحسنى وانه ليس كمثله شيء ومما ينسب لعلي رضى الله عنه

كيفية المرء ليس المرء يدركها * فكيف كيفية الجبار ذى القدم
هو الذى انشأ الاشياء مبتدعا * فكيف يدركه مستحدث النسم

قال الفارابي فى فصوص الحكم : الذات الاحدية لاسبيل الى ادراكها بل تعرف بصفاتها وغاية السبيل اليها الاستبصار بان لاسبيل اليها وتتعالى عما يصفه الجاهلون : وقال محشي الاسفار الاربعة فى موقف الاشارة الى واجب الوجود، لعلك تقول هو تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الابصار فكما لا تناله الاشارة الحسية والخيالية والوهمية كذلك لا تناله الاشارة العقلية فاعلم ان هذا النوع من التنزيه فرع باب التعطيل فان اثبات ذات واجب الوجود وصفاتها اغير ذلك من معارفها ليس اكتناها للذات . ومن الذى شرط فى العلم ولمعرفة الاكتناه اه ملخصا

استحالة تولد الخلق من ذاته تعالى

مما يجب للواجب تعالى عدم المماثلة لشيء مامن الخلق وعدم التجزء والانقسام فالتولد من شان المحدث لانه انفعال وتاثر لما قام به وهو مستحيل فى جانب الواجب تعالى لانه تغير والتغير اثر علة فى المتغير والقديم لا تفعل فيه العلل فلا يمكن انفعال فى ذاته تعالى بوجه ما « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوأ احد » قال الامام ابن تيمية رحمه الله ، استحالت الولادة عليه تعالى لانها لاتكون الا من اصلين . وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها . وما كان عرضا قائما بغيره فلا بد له من محل يقوم به . فالاول نفاه بقوله « احد » فان الاحد هو الذى لا كفوء له ولا نظير فيمتنع ان تكون له صاحبة « وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه فان انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وبانه خالق كل شيء وكل ماسواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له ، والثانى نفاه بكونه سبحانه « الصمد » والتولد من اصلين يكون بجزئين ينفصلان من الاصلين كتولد الحيوان من ابيه وامه بالمنى الذى ينفصل من ابيه وامه فهذا التولد يفتقر الى اصل آخر والى ان يخرج منهما شيء وكل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى فانه « أحد » ليس له كفوء يكون صاحبة ونظيرا وهو « صمد » لايخرج منه شيء . فكل واحد من كونه احدا ومن كونه صمدا يمنع ان يكون والدا ويمنع ان يكون مولودا بطريق الاولى والاحرى . وكما ان التوالد من الحيوان لايكون الا من أصلين سواء كان الاصلان من جنس الولد وهو الحيوان المتولد اومن غير

جنسه وهو المتولد فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين (ثم قال) واما مايستعمل من تولد الاعراض كما يقال تولد الشعاع وتولد العلم عن الفكر وتولد الشبع عن الاكل وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك فهذا ليس من تولد الاعيان مع ان هذا لابد له من محل ولا بد له من اصلين اه كلامه رحمه الله فى تفسير سورة الاخلاص وقد عقد فيه فصلا للرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وصدوره عن علة موجبة جديراً بالمراجعة

بطلان الحلول والاتحاد

لكل ذات حقيقة وهوية وصفة تمتاز بها عما سواها معروف ذلك فى بداهة العقل ، فاستحالة الحلول والاتحاد جلية ، بيان ذلك ان الاتحاد يطلق على ثلاثة انحاء ، الاول ان يصير الشيء بعينه شيئا آخر من غير ان يزول عنه شيء آخر او ينضم اليه شيء وهذا محال مطلقا سواء كان فى الواجب تعالى اوفى غيره لان المتحدين ان بقيا فهما اثنان فلا اتحاد ، وان فنيا فهما معدومان ، وان فنى احدهما وبقى الآخر فلا اتحاد ايضا بل بقاء واحد وفناء آخر

والثانى ان ينضم اليه شيء فيحصل منهما حقيقة واحدة بحيث يكون المجموع شخصا واحدا آخر كما يقال صار التراب طينا ،

والثالث ان يصير الشيء شيئا آخر بطريق الاستحالة فى جوهره اوعرضه كما يقال صار الماء هواء وصار الابيض اسود ، والكل في حقه تعالى محال ، اما الاول فلما مر ، واما الثانى فلانه اتحاد بطريق التركيب والواجب تعالى منزه عن ان يكون جزأ بحيث يحصل منه ومن شيء آخر حقيقة واحدة لان الجزء

الآخر يكون موجوداً ممكناً فيكون فاعله ذاته تعالى ولا تركيب حقيقيا بين الفاعل والمفعول لتمايزهما فى الوجود فلا تحصل حقيقة موصوفة بالوحدة فى الخارج : واما الثالث فلان التغير الجوهرى والعرض محال في حقه تعالى لعدم التبدل فى صفاته الحقيقية (هذا مافى شرح الدوانى وحواشيه) وقال العلامة الدميرى قولهم اتحد كذا بكذا لايخلو من اربعة اوجه ، الاول انه امتزاج واختلاط كامتزاج اللبن بالماء وهذا ظاهر البطلان فان الامتزاج انما يكون من جسمين فاما القديم فلا يجوز امتزاجه بغيره : الثانى ان يكون معناه انهما صار اشيأ واحدا كالحديدة اذا احميت بالنار وهذا محال لان الحرارة الداخلة على الحديدة عرض زائد دخل عليها بواسطة مجاورتها النار والنار جسم فالقول بمثل ذلك بين قديم وحادث محال : الثالث ان معناه المجاورة كالثوب على اللابس والظل والشمس على الجدار وهذا محال ايضا فان ضوء الشمس اجزاء منتشرة لا منبسطة على ماوقعت عليه والثوب والجسم يتجاوران فاما القديم والحادث فلا يتجاوران ولا يمتزجان الرابع ان يكون الاتحاد بمعني الاتصاف فيكون احدهما وصفا للآخر وهذا محال من وجوه منها ان الصفات لاتنتقل من موصوف الى موصوف ولو انتقلت لخلا موصوفها فيلزم نقصه :

ومن قال ان الاتحاد على جهة الظهور كظهور كتابة الخاتم اذا وقع على طين او شمع او كظهور صورة الانسان فى المرآة فقوله لايثبت الاتحاد الحقيقى بل يثبت التغاير لان كتابة الخاتم الظاهرة على طين اوشمع غير الخاتم وصورة الانسان فى المرآة غير الانسان وليس ذلك بحلول ولا مجاورة ولا امتزاج : ثم المعقول من

الحلول عند الجمهور قيام موجود على سبيل التبعية بشرط امتناع قيامه بذاته فهو بهذا المعنى محال ايضا لان حلول الشيء لا يتصور الا اذا كان الحال بحيث لا يتعين الا بتوسط المحل ولا يمكن ان يتعين واجب الوجود بغيره لان التعين أثر التعيين فيلزم كونه معلولا ومتاثرا وهذا محال عليه تعالى فاذن حلوله في غيره محال قال امام الصوفية الشيخ محي الدين بن عربي . ماقال بالاتحاد . الا اهل الالحاد . كما ان القائل بالحلول . من اهل الجهل والفضول . (وقال ايضا لو صح ان يرقى الانسان عن انسانيته ويتحد بخالقه لصح انقلاب الحقائق وخرج الاله عن كونه الها وصار الحق خلقا والخلق حقا وما وثق احد بعلم وصار المحال واجبا فلا سبيل الى قلب الحقائق ابدا (١)

ومسئلة بطلان الحلول والاتحاد تذكر في علم الطبيعة في بحث عدم التداخل في الماده فقد تقرر ثمه انه لايمكن ان يشغل جسمان اوجزآن مادة حيزا واحدا في آن واحد وحينئذ فدخول سن السهم في الخشب انما هو في الخلو الحاصل من تبعيده اجزاء الخشب لانفوذ في نفس الاجزاء ودخول الماء في الاسفنج والطباشير حلول في المسام الموجودة بين الاجزاء ولذا لوغمرت يد في آنية ماء لشوهد ارتفاع سطح الماء وبعض الممزوجات كالذى من الذهب والفضة فانه يشغل حيزا أقل من الحيز الذى يشغله كل من الممزوجين على حدته ولا يقال حينئذ ان الاجزاء تداخلت لانا نقول انها تمازجت حتى نفذ اكثرها صلابة في مسام اقلها صلابة وبذلك امكن للعقل تصور كيفية التمازج

(١) نقل ذلك الشعراني في اليواقيت

ولا يتصور له وجود جزئين معاً في حيز واحد »

﴾ الاستدلال على ان من الموجودات مالا يناله الحس وماهو مجرد عن المادة ﴿

قال امام الحكماء المتاخرين ابن سينا في اشاراته : قد يغلب على اوهام الناس ان الموجود هو المحسوس وان مالا يناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال وان مالا يتخصص بمكان او وضع بذاته كالجسم اوسبب ماهو فيه كاحوال الجسم فلاحظ له من الوجود ، ثم بين فساد قولهم و بطلانه من طريقين

الاولى الاستدلال بالمحسوسات على وجود ماليس بمحسوس وفيه وجوه احدها كون المحسوسات مشتملة على طبائعها المجردة وهي غير محسوسة (١) فقدخرج من المحسوسات ماليس بمحسوس . وثانيها ان الاعتراف بالمحسوس والمتوهم اعتراف بالحس والوهم وهما غير محسوسين . وثالثها ان الاعتراف بالمحسوس والمتوهم وبالحس والوهم اعتراف بالعقل الذى يميز بين الحس والمحسوس والوهم والموهوم والعقل ليس بمحسوس

الطريقة الثانية الاستدلال بعلائق المحسوسات من العشق والخجل والغضب وغيرها فان الاعتراف بالمحسوسات لايستلزم الاعتراف بها لكنها موجودة بالضرورة وطبائعها ليست مدركة بالحس ولا بالوهم ، وترى تتمة البحث في شروح الاشارات وفيها : ان الحكم بان من الموجودات مالا يناله الحس قضية قريبة

---

(١) كاشتمال افراد الانسان على حقيقة الانسانية واشتراك اشخاصه في كليها مما لايكون محسوسا مع انه معقول و يسمى هذا — اى مفهوم الكلي من حيث هوهو — كليا طبيعيا لانه طبيعة من الطبائع ولانه موجود في الطبيعة اى الخارج لان الانسان مطلقا جزء من زيد الموجود وجزء الموجود موجود

الى الطبع سهلة الدرك يجب ان لايختلف فيها سيما وقد بنيت على ان الطبيعة المشتركة موجودة ولا شك انها منخرطة فى سلك البديهيات ، وقد اشرنا قبل الى ان المقصد الاسنى من الفلسفة هو طلب حقائق الموجودات والبحث عن الكائنات والاستدلال بالحاضرات على الغائبات والمحسوسات على المعقولات وبالجسمانيات على الروحانيات و بالرياضيات على الطبيعيات و بالطبيعيات على الآلهيات التى هي الغاية القصوى فى العلوم والمعارف والسعادة الابديه

موقف العقل امام تاريخ الخليقة و كيفية التكوين

بذل الباحثون من كل امة جهدهم ونقبوا عن تاريخ بدء هذا الكون وعن مادته ورووا ما لا سند فيه ولا صحة لمخرجه فوقعوا فى عمياء مظلمة وتيهاء مقفرة . و يالله مايفعل الفضول . والايغال والشره فى تعرف المجهول . وقد تناقضت المأثورات عن الاقدمين فى ذلك تناقضا بينا فيرى ماأثر عن اسفار الصينيين فى ذلك يباين مانقل فى كتب الهنود وما حكى عن الكلدانيين المتلقفين عن البابليين غير ماروى عن المصريين الاول . ولا عجب فان بدء الخلق ومادته لايمكن الوصول اليها بوجه ما لانها من غيب الغيوب فعبثاً محاولة ادراكها واضاعة الوقت فى التنقيب عنها وفرض الفروض والمقاييس لها وقد سد القرآن الكريم السبل دون ذلك بقوله تعالى « ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » فجلّى للمؤمنين هذه الحقيقة وحسم شبهة كل متخرص بانه يحاول الحكم بالوهم والحسبان . فيما لايقيل فيه الا شهود العيان ، وشهوده مفقود ، فتحكمه فى هذه الدعوى مردود

قال حكيم : يمكن للنباتى ان يعرف مايتكون منه النبات وكيف ينبت وينمو ويتغذى وللطبيب ان يعرف كيفية تولد الحيوان والاطوار التى يتدرج فيها منذ يكون نطفة الى ان يكون انسانا مستقلا عاقلا ولكن لايعرف نباتى ولا طبيب كيف وجدت انواع النبات وانواع الحيوان او مادتهما لاول مرة ولا كيف وجد غيرهما من المخلوقات فاولى ان تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة — جهة الايجاد والخلق — لايمكن اكتناهها اه وبالجملة فالعالم كما يرى من العلم ان يقر بعجزه عن ادراك خالق الكون كذلك يرى من العلم ان يقر بقصوره عن ادراك كيفية خلق الكون ومبدئه وكيف لايقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود مالم يكن يحلم به ويرى بعينيه ان مجال البحث بعيد الاكناف ومجاهيل الوجود لاتدخل تحت حساب وتبرهن له المكتشفات كل حين بانه كان نزر المعرفة ضئيل الادراك « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم »

﴿ بيان السبب فى قصور افهام الخلق عن معرفة الله سبحانه ﴾

قال الامام الغزالى فى الاحياء بعد هذه الترجمة ما مثاله : اعلم ان اظهر الموجودات واجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى ان تكون معرفته اول المعارف واسبقها الى الافهام واسهلها على العقول وترى الامر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه ، وانما قلنا انه اظهر الموجودات واجلاها لمعنى لانفهمه الا بمثال وهو انا اذا راينا انسانا يكتب او يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من اظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة اجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة

والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك
لانعرفه ، وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله
واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته ، أما حياته وقدرته وارادته وعلمه
وكونه حيوانا فانه جلي عندنا من غير ان يتعلق حسّ البصر بحياته وقدرته
وارادته فان هذه الصفات لاتحس بشيء من الحواس الخمس ثم لايمكن ان
تعرف حياته وقدرته وارادته الا بخياطته وحركته فلو نظرنا الى كل مافى العالم
سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود
الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه
بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وارض
وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل اول شاهد عليه انفسنا
واجسامنا واوصافنا وتقلب احوالنا وتغير قلوبنا وجميع اطوارنا فى حركاتنا
وسكناتنا واظهر الاشياء فى علمنا انفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا
بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد
ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهد ناطقة وادلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها
ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة
لاحصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو
ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لايظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شيء
داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة
فانها تنادى بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج

الى موجد ومحرك لما يشهد بذلك اولاً تركيب اعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا واعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل اطرافنا وسائر اجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بانفسها كما نعلم ان يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ماتقصر عن فهمه عقولنا فله سببان احدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله ، والآخر مايتناهى وضوحه وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيئا الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى نهاية الاشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره . واختفى عن البصائر والابصار بظهوره . ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشياء تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى انه لاضد له عسر ادراكه ، فلو اختلفت الاشياء فدل بعضها دون بعض ادركت التفرقة على قرب ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الامر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم انه عرض من الاعراض يحدث فى الارض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لاغروب لها لكنا نظن انه لاهيئة فى الاجسام الا

الوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد في الاسود الا السواد وفي الابيض الا البياض فاما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا ان الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع ان النور اظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو اظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم اوغيبة اوتغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك والملكوت ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ولكن دلالته عامة في الاشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم اورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الافهام

﴿ الرد على من زعم ان الكلام في الالهيات بدعة وان الاولى السكوت ﴾

قدمنا اول الكتاب في وجوب العناية بدحر شبه المعطلة مافيه مقنع ثم اظفرنا تعالى وله الحمد بفتوى في ذلك لشيخ الاسلام عز الدين ابن عبد السلام رحمه الله أثرها عنه الامام تاج الدين الفزاري الشافعي في فتاويه (١) فآثرنا ذكرها

(١) من نوادر الفتاوي والكتب المخطوطة عندنا الموروثة عن الجد رحمه الله وقد كان يعجب بها بعض الاعلام ويطالعها كثيرا

هنا تأكيدا لما سبق . وتاييدا للحق . قال رحمه الله : زعمُ ان المتكلمين فى ذاك على باطل خطأ لانه منع لاهل الحق من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فان لاهل الحق ان ينكروا المنكر ويردوا على اهل الباطل اقوالهم وبدعهم فكيف يكون مخطئا من انكر المنكر ودعا الى المعروف ولم يزل السلف ينكرون على اهل البدع بدعهم وينصون على الحق فى ذلك كما فى مسائل القدر والارجاء وخلق القران ونفى الصفات وغير ذلك (ثم قال) ولو جاءنا واحد وقال انا متحير فى اثبات شئ من ذلك اونفيه فهل نقول له حينئذ لاتسأل عن هذا فان سؤالك عنه بدعة ونأمره ان يبقى على شكه وتردده فى ذلك ولا نبين له الحق من الباطل والخطاء من الصواب لان الكلام فى ذلك بدعة كلا وهذا باب لوفتح لاضل الاسلام وارتفعت الاحكام . وكيف لايكون ذلك من الدين وقد تكلمت فيه طوائف المسلمين . واما الافتراء على الصحابة والتابعين وائمة المتقين رضوان الله عليهم اجمعين بانهم سكتوا عن ذلك فجهالة عظيمة لان سكوتهم عن ذلك كان قبل ظهور البدعة ولا حجة في سكوتهم لانهم سكتوا حيث يجوز لهم السكوت الى أن ظهرت البدعة فتكلموا فيها . فالبدع يجوز السكوت عنها مادامت خامدة ساكنة فاذا ظهرت وسارت وجب الابتدار الى انكارها وابطالها وتبيين الحق فى ذلك نصحاً لدين الله وعملا بكتابه اذ يقول فيه « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون وينهون عن المنكر » الآية وان نسبهم الى انهم سكتوا مع ظهور البدع عن تعيين الحق من الباطل فقد فسقهم ونسبهم الى ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع ان المنقول عنهم

بخلاف قوله فانهم تكلموا على البدع وعابوها وميزوا الحق من الباطل ونصوا عليه ولم يقولوا لاحد لا يتكلم فيها بنفي ولا اثبات بل منهم من عظم الامر فى ذلك حتى كفروا بعض اهل البدع ومنهم من سكت اكتفاء بكلام غيره لسقوط الفرض . وكيف يجوز السكوت عن باطل قد تمكنت شبهته فى القلوب وترك صاحبها مرتبكا فى ضلالته مصرا على جهالته

والتكلم فى حل الشبه سنة اول من عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ثم جرى على ذلك الصحابة والتابعون وعلماء المسلمين الى يومنا هذا . وقد تبرأ ابن عمر من القدرية في حديث حميد ابن عبد الرحمن الحميرى (٢) لما اخبر بقول معبد فى القدر . وناظر علىّ فى القدر . وكذلك ناظر ابن عباس وعلى الخوارج وناظر ابوحنيفة الخوارج . ومناظرة الشافعى مع حفص الفرد مشهورة (٣) وناظر السلف المعتزلة القائلين بخلق القران وخلق اعمال العباد . وانكروا على الجبرية والمرجئة ما ابتدعوه ونصوا على ان الحق على خلافهم . ولم ينقل عن احد منهم انه امر جاهلا بالسكوت عن الحق بل دعوهم الى اعتقاد الحق وعينوه لهم ولم يجعلوه تلبيسا بالباطل وجرى على طريقتهم فى ذلك اكثر العلماء

---

(١) اى اقتداء بالتنزيل الكريم فى الرد على المشركين واهل الكتاب والاجوبة عن شبههم فى آيات لا تحصى والسنة بيان للتنزيل وشرح له وهو اصلها وكليها الاعظم

(٢) رواه مسلم فى كتاب الايمان من اول صحيحه

(٣) حفص الفرد قال الغزالى : كان من متكلمى المعتزلة وقال الزبيدى : تفقه على الامام ابى يوسف وكان من اصحابه ثم مال الى راى المعتزلة وصار يناضل عنهم حتى صار من متكلميهم

وصنفوا فيه التصانيف كالحرث بن اسد المحاسبي — وكان مقدما فى علم الطريقة والشريعة — وابى الحسن الاشعرى وابى بكر الباقلانى وابى اسحق الاسفراينى وامام الحرمين والغزالى والقشيرى وابنه ابي نصر وابن فورك وغيرهم ممن يكثر تعداده . فزعم ان من سنن الصحابة والتابعين ملازمة السكوت فى ذلك خطأ عظيم فاحش لايبوء به موفق ولا ينتحله عاقل لانه قد اوجب على من شك في ذلك اوفي شئ منه ان يبقى على شكه وتردده متحيرا في الله متردداً بين بين ماسنح له من الخواطر الدائرة بين الكفر والايمان مخالفا لقوله تعالى « فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون » ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما شفاء العىّ السوآل : فيخرج من ذلك ان زاعم ذلك اوجب على المتحير في الله وصفاته ان يبقى على تحيره في ذلك وتشككه الى يوم يلقاه مذموما لقوله « وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » وقد نص علماء المسلمين الذين يجب المرجع الى اقوالهم على ان من تمكن من قلبه شبهة لزمه السعى في ابطالها وقطعها وكيف لايكون كذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دع مايريبك الى مالا يريبك : ومقتضى هذا وجوب سعى المرتاب الشاك في ازالة ريبه وشكه وقد منعه ذلك الزاعم المسكين من ذلك وجعله من جملة البدع مع ان ادلة الشرع تنادى عليه بانه مفروض واجب لايسع تركه ولا تجوز مخالفته . واما تشديد الشافعى رضى الله عنه على اهل الكلام فان هذا الاسم كان في زمن الشافعى مخصوصا بارباب الاهواء الخارجين عن الحق فاطلقه باعتبار عرف اهل زمانه ثم صار هذا الاسم عاما بعده وما ذكره

عن الغزالى فى كتاب الجام العوام فليس ذلك بنهى لهم عن اعتقاد الحق والامر بالارتياب والتشكك بين الخطأ والصواب وانما نهاهم ان يتكلموا بما لايعلمونه كيلا يخرجهم الكلام الى الكفر والابتداع مع ان كتب الغزالى مشحونة بانه يجب على المرء تصحيح اعتقاده وانه ان عرضت له شبهة لزمه السعي فى ازالتها وذكر ذلك في الاحياء (١) وهو آخر ماصنفه واعتمد عليه فهذه طريقة علماء الدين وسيرة العباد الصالحين « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » اه كلام الامام ابن عبد السلام

المطلب الثالث

(فى المادة وشبه الماديين وابطالها وما يتبع ذلك . وفيه مقالات عديدة

معنى المادة

المادة لها اسماء باعتبارات فمن جهة توارد الصور المختلفة عليها مادة وطينة . ومن جهة استعدادها للصور قابل وهيولى . ومن جهة ان التركيب يبتدأ منها عنصر . ومن جهة ان التحليل ينتهى اليها اسطقس (كما في الكليات) وقد كثر اطلاقها على مجموع الاجرام التى يتالف عنها العالم المشاهد . فالماديون هم الذاهبون الى نفى كل موجود سوى المادة المذكورة وان وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لايتناول شيئا وراءه . قال السيد (٢) ولما سئلوا عن

---

(١) اى في الفصل الثاني من كتاب قواعد العقائد فانظره فانه مهم

(٢) في الرد على الدهريين

منشأ الاختلاف فى صور المواد وخواصها والتنوع الواقع فى آثارها نسبه الاقدمون منهم الى طبيعتها ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين اه وسياتى ذكر الاشارة اليهم فى القران الكريم فى مقالة على حدة فى آخر هذا المطاب

﴿ شبهة الماديين ﴾

مضى اولا فى التمهيد الخامس ان من فروض الكفاية تعلم تفصيل الدلائل ليتمكن من ازالة الشبهة فيضطرنا الامر الى ذكر ملخص معتقد هؤلاء الماديين ليتبصر المحق المفوّق اسنة الردود مقاتل المبطل ومطاعنه فيكون انفذ لسهمه واوقع لمرماه فنقول: زعم الماديون ان المادة مؤلفة من عناصر مختلفة . وان هذه العناصر تتالف من جواهر فردة بسيطة متماثلة ثم خالفهم المتاخرون منهم وناقضوهم فقالوا ان الجواهر الفردة ليست بسيطة ولا متماثلة بل هي ايضا تتالف من ذرات يستحيل على العقل تصوّرها وسموا تلك الذرات بالكريات وقالوا ان هذه الكريات مدارات كهربائيه وانه بحسب مجرى الكهربائيه من حيث سرعتها وكمية الكريات الحاملة لها تتشكل الجواهر . وتتنوع العناصر . وزعموا ايضا ان الهيولى وجدت بنفسها ويستحيل ان تكون من العدم (قالوا) لان العقل لايمكن ان يتصور مادة تتلاشى الى درجة العدم فكيف يحكم بوجودها فى زمن من الازمان فى حالة لايمكن ان تصير اليها . وكل مايستطيع العقل ان يصل اليه انما هو ادق جزء من اجزائها بحيث يستحيل على التصور ان يدرك ماوراءه . فاذا كانت المادة لاتتلاشى وهو ناموس طبيعى فهى لم تحدث من العدم ولكنها هي وما بها من القوى ازلية وجدت فى ابسط مايستطيع العقل

بصوره من النظام كل اجزائها متماثلة ثم تغيرت وتشكلت وما زالت تتغير وتزداد تركيبا حتى ظهر العالم وبرزت الطبيعة بنباتها وحيوانها وجمادها . فالمادة والقوة هما الشيئان الازليان الابديان وجدا ولم يزالا واحدا فى كل صور الوجود . ومهما تنوعت اشكال المادة وتغيرت مظاهرها فهى واحدة لم تخلق ولن تتلاشى كذلك القوة التى بها ندرك المادة ونشعر بها دائمة لا تنقص ولا تضمحل وكل ما فى الكون من افلاك ونجوم وحىّ وجماد انما هو نتيجة من نتائج القوة الفاعلة فى المادّة . فالكون (على مذهبهم هذا أو الحادهم) حادث بالصدفة من تفاعل القوى والمادة فهم ينكرون الخالق (نعوذ بالله تعالى) ولا يقرون بالحدوث من العدم . ثم قاموا يبنون على ازلية المادة كيفية حدوث العوالم فاتخذ بعضهم النشوء الطبيعىّ ناموسا عاما وفسره بطرائق كثيرة

هذا ملخص معتقدهم أو الحادهم . وسترى بحوله تعالى نقضه انكاثا . واحلامه اضغاثا . فى مقالات سابغات نستهلها بذكر ان هذا المذهب تتبرء منه الفلسفه كما تتبرء الحكمة من السفه

تبرؤ الفلسفة من مذهب الماديين

ان عقلاء الامم قاطبة وحكماء المذاهب والاديان كافة ليعجبون غاية العجب مما اتى به الماديون من تلك الخيالات . ثم افراغ مابها من التمحلات فى قالب المعلومات . ذلك لانه لم يعهد فى الفلسفة ان يكون عمادها الفرض والوهم . ولا صح فى العلوم الحقيقة ان تناقض قضايا العقل ولا ان يكون الابهام رائدها وعدم التجلى للنفس قائدها . فان العقول السليمه . والقواعد القويمه . تبرء

الى الحق ان تركن الى امور فرضيه . اوتعقد على مباحث وهميه . اوتزول عند كل ناقل . اوتستوحش لشبهة اىّ قائل . اوتقبل ماينابذ الفطرة الصحيحه اويعاند الاقيسة الصريحه . الا ان تكون اصيبت بخلل اوخبل . والجنون فنون وليست محنة الامم بهؤلاء الماديين باعظم من محنة العقل الذى لم يزالوا يعبثون به حتى لوتجسم نفسا لسعوا فى ذمها . اوتمثل دارا لجهدوا فى هدمها . كانهم لم يخلقوا الا ليطمسوا عين النور . ويقلبوا أعيان الامور . فيجعلوا الضوء ظلمة ويعكسوا البدعة سنة . حتى كأن سوفسطا استخلفهم على جحد مايدرك عيانا ويعرف ايقانا . فهم وارثوه فى الباطل . وناصروا جهله على كل عاقل . كيف لا وان جعل الحكم بالوهم اساسا والتعصب للامر الفرضى ركناهدم للفلسفة وشذوذ عن العلم فقد اتفقت الفلاسفة قاطبة بل الامم كافة على ان مالم يتحقق وجوده كان معدوما وانه اذا عدم شيء عدم اسمه ايضا لان اسمه فرع عليه وعينه اصل له واذا ارتفع الاصل ارتفع الفرع . هذا الا دفاع له ولا امتناع منه ، فباية فلسفة سوغ الحكم على الموهوم . وباى قاعدة استجير تسمية المعدوم . واى علم يقبل هذه التخرصات . واى عقل سليم يسلم هذه الايهامات . لاجرم ان ذلك ضلال وتضليل للعقول . وتشويه للحكمة وعبث بالاصول . ومن السفه والسفسفه . التلاعب بقوانين الفلسفه . فان الفلسفة علم العلوم وصناعة الصناعات فمن المحال ان تعطى فى موضع الشك اليقين وفي موضع الظن العلم بل تعطى فى كل شيء ماهو خاصته وحقيقته ان شكا فشك وان يقينا فيقين . فرأيهم المذكور لايكون من الفلسفة حتى يكون

الجهل من العلم والظلام من النور ·

قال الطوسى : وصّى ابن سينا باختبار من يدعى الفلسفة بامور اربعة اثنان راجعان اليهم في انفسهم : احدها الى عقولهم النظرية وهو الوثوق بنقاء سريرتهم · والثانى الى عقولهم العملية وهو الوثوق باستقامة سيرتهم · واثنان راجعان اليهم فى انفسهم بالقياس الى مطالبهم · احدهما تحرزهم عن مزالّ الاقدام وتوقفهم عما يسرع اليه الوسواس · وثانيهما نظرهم الى الحق · بعين الرضا والصدق · اه فاين اولئك من هذه الاوصاف

وقال الرازى : الظاهريون من الفلاسفة والذين لم يمارسوا حقائق العلوم قد جرت عادتهم بانكار كل ما كان على خلاف العادات المالوفة والمناهج المطردة وغرضهم من ذلك ان يتميزوا عن العامة والاغمار فى عدم الاغترار بكل مايقال وقد استهجنت طريقتهم وزيفت سيرتهم وعدوا فى الحمقى لجزمهم بالنفى لا لدليل ومثله يسبب الفساد والخلاعة والشر فى الدنيا والشقاوة فى الاخرى اه وبالجملة فقد صدق عليهم قول صاحب رسائل اخوان الصفا بانهم لا الفلسفة يعرفونها ولا الشريعة يتحققونها · يدعون معرفة حقائق الاشياء ويتعاطون النظر في خفيات الامور الغامضة البعيدة وهم لا يعرفون انفسهم التى هي اقرب الاشياء اليهم · ينظرون فى الجزء الذى لايتجزأ وما شاكله من الامور المتوهمة التي لاحقيقة لها في الهيولى ويدعون فيها المحالات بالمكابرة فى الكلام والحجاج فى الجدل فاحذرهم يااخى فانهم الدجالون الذلق الالسن العميان القلوب الشاكون في الحقائق الضالون عن الصواب يدعون مالا يعرفون · ويتكلمون فيما لا يحسنون

وما هم الا كما وصف رب العالمين جل اسمه « بل هم قوم خصمون » اعاذنا الله واياك ممن فيه هذه الصفات الذميمة اهـ

استحالة انكشاف الجواهر الفردة بالكنه والوجه

قل لهم ماهو الجوهر الفرد الذى انتهت اليه المادة امركب ام بسيط فان كان مركبا فما مقوماته وان كان بسيطا فلايمكن ان يكون له حد حقيقى وهو المركب من مقومات الشئ اذ البسيط لامقوم له — ولا رسم لان الرسم يقوم مقام الحدود للمركبات اذا كانت اللوازم بينة اما اذا لم تكن بينة بان احتاجت الى وسط فمن المقرر ان ماليس بينا لا يصح ان يكون معرفا لملزومه ومنه لوازم المادة فليست بينة بوجه ما . فصح انها مجهولة جهالة يستحيل على النفس ان تتجلى لها على ماهى عليه في نفس الامر

ثم قل لمن فرض لها اجزاء متساوية هل هذه الاجزاء مقومات حقيقتها اولا فان كانت مقومات فاما ان لا يحتاج احدها الى الآخر وهو محال ضرورة وجوب احتياج بعض اجزاء الماهية الحقيقية الى البعض او يحتاج . فان احتاج كل منهما الى الآخر فيلزم الدور والا يلزم الترجيح بلا مرجح لانهما ذاتيان متساويان فاحتياج احدهما الى الآخر ليس اولى من احتياج الآخر اليه . هذا اولا وثانيا هل احد هذين الامرين عرض اوجوهر فان كان عرضا لزم تقوم الجوهر بالعرض (١) وهو محال . وان كان جوهرا فاما ان يكون الجوهر نفسه (٢)

(١) اي كون العرض محمولا عليه مواطأة وذلك محال لاستلزامه اتحادهما (٢) اي يكون الجوهر المطلق نفس ذلك الجزء الذى فرض جوهرا فنفسه منصوب على الخبرية وداخلا وخارجا معطوفان عليه

فيلزم ان يكون الكل نفس جزئه وهو محال (١) اوداخلا فيه وهو ايضا محال لامتناع تركب الشئ من نفسه وغيره (٢) اوخارجا عنه فيكون عارضا له لكن ذلك الجزء ليس عارضا لنفسه بل يكون العارض بالحقيقة هو الجزء الآخر فلا يكون العارض بتمامه عارضا وهو محال (٣)

استحالة اثبات الجوهر الفرد

قال القاضي الحكيم ابوالوليد ابن رشد فى المناهج : الجزء الذى لا ينقسم — وهو الجوهر الفرد — فيه شك ليس باليسير وذلك ان وجود جوهر غير منقسم ليس معروفا بنفسه وفى وجوده اقاويل متضادة شديدة التعاند اه وقال الامام ابن تيمية : جمهور الامة حتى من طوائف اهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد وتركب الاجسام من الجواهر اه

وجاء في مقالة لبعض المؤلفين فى هذا البحث مامثاله : اول من قال بقدم المادة هم بعض فلاسفة اليونان مثل ديموقراط وغيره حملهم على اختراع هذا انهم رأوا اجماع من سبقهم عن ان كل مركب حادث فلما رأوا ان الاجسام كلها مركبة لجأوا الى القول بانها مركبة من اجزاء بسيطة لاتتجزأ وان تلك الاجزاء هي مبادى العالم الازلية وان اصغر هذه الاجزاء التي لاتتجزأ هو الجوهر الفرد الذى تنتهى اليه قسمة الجسم البسيط وتبعهم في ذلك ماديو هذا

(١) لانه لايبقى الكل كلا ولا الجزء جزأ (٢) لاستلزام كون الكل نفس الجزء واحتياج الشئ في تقوم نفسه الى خارج عنه وتقدم الشئ على نفسه الى غير ذلك (٣) مثلا لوتركب الجوهر من « ا » و « ب » « فا » شئ عرض له الجوهر الذى حقيقته « ا ب » ويمتنع ان يكون « ا » عارضا لنفسه فتعين ان يكون العارض « ب »

العصر الذين يعتقدون ان الجوهر الفـرد هو اصل الاصول واول مبادئ السموات والارض . هذا ما كان بالايجاز من اقوالهم في شان المادة والجوهر الفرد . إلا ان الجوهر الفرد لم يجد انصاره برهانا لاثباته منـذ اول نشأته الى الآن وهذا باجماع كبار العلماء الطبيعيين والكيميين وغيرهم بل يستحيل ان يقام على اثباته دليل ولنا على بيان استحالته كثير من الادلة اقتصرنا منها على الآتيه

(دليل اول) : ان الجوهر الفرد باقرار مثبته وتصريح امامهم ديموقراط هـو جسم وكل جسم لابد له من ابعاد وتحيز وتالف من جوهر وعرض ونحوذلك وكل مؤلف — باجماع العلماء — منحل وغير ازلى وكذلك المادة المؤلفة منه

(دليل ثان) : ان جل مانع القسمة لايخلو من أن يكون اما الصلابة اوالدقة اوكليهما وما كل ذلك بمانع . اما الاول فلان الاجسام مهما كانت صلبـة لايعسر انقسامها بالوسائط وهذا مقطوع به في العلوم الطبيعية ويؤيده الامتحان والامتحان اقوى برهان . واما الثانى فلان الاجسام من هى هي — اي من حيث انها ذات كم متصل — وان كانت في غاية الدقة والصغـر فانها قابـلة من طبعها (فان قيل) ان هذا ممكن عقلا لافعلا (قلنا) وما ينافى كونه ممكنا بالفعل ايضا اذ مالاتناقض فيه يمكن وجوده فعلا وان لم يتأت ذلك لاسباب عارضة كجهل الواسطة اولزوم الكمية المحدودة لقيام الجسم الطبيعى الى غـير ذلك : فالقول اذن بالجوهر الفرد غير المتجزئ مبنى على التخمينـات الفارغه والاوهام المحضة

(دليل ثالث) : لوتقرر وجود الجوهر الفرد لكان متغير الشكل كبقيـة

الاجسام وهذا مسلم عند القائلين به اليوم ومن المحال ان يتغير الشكل دون ان تتغير اوضاع الاجزاء وذلك عين قسمة الجسم فعلا اه

﴿ استحالة تصور تفاعل القوى والمادة ﴾

قال بعض المحققين يقال لهؤلاء الماديين (على خيالهم فى المادة والقوة) : كيف تسنى للبسيط المتماثل ان يصير مركبا متغيرا مع عدم وجود قوة خارجية تدفعه الى ذلك ، ثم يقال لهم : لنفرض ان فى الفضاء شيئين وجدا منذ الازل من غير موجد فكونهما شيئين يقتضى كونهما منفصلين ومن العجيب ان هذين الشيئين تفاعلا فى طريقة غير معروفة وحدث بتفاعلهما صور جديدة فكيف كان ذلك ولا شيء بينهما الا الفضاء والفضاء لا يُقل شيئا فلا يوصل بين امرين فاذا قالوا ان قوى كل منهما تشع فى الفضاء ثم تلاقت وحدث بتلاقيهما ماحدث فقل : كيف يتصور العقل وجود القوة فى الفضاء على غير مايحمل القوة او يظهرها . اليس ذلك تحكما محضا . واذا قالوا انه لافضاء بل الاثير مالئ كل مكان فقل : اليس الاثير نفسه مادة فماذا ياترى بين دقائقه يواصل قواها بعضها ببعض اه اى وحينئذ يستحيل الجواب الا باستناد ذلك الى قوة غيبيته لا اله قوى قادر لاخالق سواه

﴿ استحالة اقتضاء الاثير لمازعم فيه ﴾

زعموا ان الاثير مادة لطيفة جدا منتشر فى الخلاء مالئه وانه قديم ومصدر لجميع المواد كما تقدم واثبتوا له السريان والاهتزاز فى جميع الكون فيقال لهم السريان يستلزم الحركة ضرورة والحركة لاتقوم الا بالحوادث — لما بينا فى الدليل الخامس

من طريق الحركة — ثم كونه فى جميع الكون يستلزم اما قدم الكون او عدم السريان والاهتزاز وكلاهما باطل . اما قدم الكون فلانهم قالوا ايضا بعدم قدم ماسوى الاثير . واما عدم السريان والاهتزاز فلانهم عرّفوا الاثير به

وقد اتفقوا على ان الاثير لا يمكن ان يرى باحدى الحواس الخمس بل الذى دعا لاثباته الحاجة لمعرفة ماهية النور فيرد عليهم ان معرفة حقيقة الشىء انما تكون بمعرفة اجزائه فلو كانت معرفة حقيقة النور داعية الى اثبات الاثير لاقتضى ان يكون الاثير جزأ من النور وذلك يقتضى حدوث الاثير . اوليس قلتم باجمعكم ان ماسوى الاثير حادث واذا سلمتم انه جزء من حقيقة النور فيلزمكم القول بحدوث الاثير ومن حاول دفع الايراد بان المراد ان الاثير هو السبب الناقل للنور يقال له ان الحكم بوجود الاثير حينئذ انما نشأ من وجود النور وهذا لا يستلزم ان يكون الاثير قديما ابدا . على انهم اثبتوا له الحركة والحركة انتقال من حيز الى حيز آخر ولا يمكن القول بقدم الحركة

ثم يقال لهم ايضا هذا الاثير الذى هو سبب وجود الكائنات بزعمكم لا يخلو اما ان يكون واجبا وجوده او ممكنا لا جائز ان يكون واجبا لانه مركب من اجزاء وقد تقرر ان المركب يحتاج الى اجزائه والمحتاج لا يكون واجبا

ثم قولهم ان الكائنات حصلت من تموج الاثير يقال عليه لا يخلو هذا التموج اما ان يكون علة تامة لوجود الكائنات اولا ، فان كان علة فهل هذا التموج حصل مع الاثير او بعده ، فان قلتم انه حصل مع الاثير لزم قدم كل ماتموج معه من الكائنات وهو باطل لترتب سلسلة المكونات باتفاقهم ، او حصل بعد فهل هو

عرض لازم اومفارق فان كان لازما فلا يجوز ان يوجد بعد وجود الاثير بل معه لامتناع الانفكاك فيلزم قدم الكل وقد ابطلناه اوكان عرضا مفارقا لزم القول بانعدام الكائنات لجواز انفكاك التموج عن الاثير الذى بسببه صار الاثير موجدا وعلة تامة على زعمهم . ويلزم ايضا ان الاثير فى فاعليته محتاج وذلك ينافى كون الشيء واجبا وجوده

ولو كابروا فى دفع هذا الاعتراض بان التموج نفس الاثير واحتياج الشيء الى ذاته لايستلزم امكانه لقيل لهم ان التموج لايجوز ان يكون نفس الاثير لان التموج من الاعراض الغير القارة الذات فيلزم ايضا ان يكون الاثير من الاعراض الغير القارة الذات وهذا باطل عندكم

ثم ان بداهة العقل قاضية بان وجود هذا العالم لايجوز ان يحصل بالتموج لان نظامه واحكامه فى غاية الاتقان والانتظام وهو دليل على ان فاعله فى غاية القدرة ونهاية العلم والتدبير وباجماع كافة العقلاء ان قوة نظام الاثر وحسنه دليل على قوة قدرة الفاعل وتدبيره وحينئذ يستحيل ان يكون هذا العالم الذى هو فى احسن النظام تموج اثير لا عقل له ولا شعور

استحالة اقتضاء البسيط التركيب

قال العلامة جمال الدين الخوارزمى : الذين زعموا ان اصل العالم جزء بسيط لاعرض فيه ولا تركيب ولا اجتماع ولا افتراق ثم دخله التركيب فتركب العالم فالدليل على بطلان قولهم انه يستحيل فى المعقول مصنوع بلا صانع (١)

(١) لاتنس عبارة الامام ابن رشد في الدليل الثانى اول الكتاب فى بيان قطعية —

كما يستحيل حدوث كتابة لا من كاتب وبناء لا من بان فالفُلك ليس باقل من الفَلَك ولا يتصور انتظام الواحها من غير نظام نجار حاذق هذا اولا ·

وثانيا الهيولى شيء واحد وحقيقة واحدة لا توجب اشياء كثيرة فانه غير معقول فالذات الواحدة لا توجب اجتماعا وافتراقا وحركة وسكونا بذاتها

فلو ان سائلا سألهم عن العلة الاولى وما هي وما سبب الامتزاج مما يكون وما هو لا يكون لهم جواب البتة

وان قالوا انها كانت اجزاء فاما ان تكون مجتمعة او مفترقة فان كانت مجتمعة فاجتماعها لا يخلو اما ان يكون لذاتها اولمعنى فان كان للذات فلا يجوز تفرقها والا لجاز تلاشيها فلم يكن ذاتيا وان كان اجتماعها لمعنى فقد سبق المعنى عليها فبطل ان تكون قديما لان القديم مالا يسبقه شيء

ثالثا: يقال اى العرضين سبق الى الهيولى الاجتماع اوالافتراق فان كان الاجتماع فلا بد للاجتماع من افتراق وان كان الافتراق فلا بد من اجتماع وعندكم الهيولى خال عن انواع الاعراض

رابعا: لا بد من مخصص يخصصه بالاجتماع دون الافتراق او بالافتراق دون الاجتماع

خامسا: ما الموجب لتقدير الكواكب ونحوها بما قدرت به حتى صار منها ما هو اكبر ومنها ما هو اصغر · وما الموجب لتعيين القطبين وامثالهما بالموضع المعلوم · ولا جواب لهم عن هذا كله قط

— هذا الدليل فانه مهم جدا فان تحقيقه وفلسفته لنا المقام الاول سيما عند الفلاسفة الحديثين

استحالة ازلية المادة

مما احال قدم المادة ايضا ان القديم لابد من كونه كاملا موجودا بذاته لايقبل تغيرا هذه اخص اوصافه وذلك لانه لوكان غير كامل لزم ان يتكامل بغيره متصاعدا حتى يصل الى كائن كامل فى ذاته لا يفتقر الى غيره · ولوكان غير موجود بذاته لزم ان يكون له علة قد اوجدته فلا يكون ازليا ولو كان يقبل التغير لتواردت عليه البدايات والنهايات فكان غير قديم · واوصاف القديم هذه لاتنطبق على المادة بوجه لان المادة ناقصة تتكامل دائما وابدا متعددة ليس لها وجود من ذاتها تتغير وضعا وفعلا والتصاقا اذ يتعلق الواحد منها بالآخر مما يجره اليها كل من التدافع والتجاذب وحينئذ فلا تكون المادة قديمة

استحالة كون المادة مصدر الحياة والكون العقلى

يقال لهم : ان المادة لايمكنها ان تكون مطلقا مبدء حياة ولا مصدرها لان ما كان خاليا من شيء قوة وفعلا لايمكنه مطلقا ان يكون مصدرا له والمادة خالية من الحياة بالقوة والفعل فاذن لايمكن ان تكون مصدرا للحياة ، اما خلوها من الحياة فعلا فبالمشاهدة لان كلا يرى ان المادة عرية منها والالاقتضى ان تحرك نفسها فعلا بان تنمو اوتحس اوتعقل وذلك ظاهر البطلان ظهور الشمس فى رابعة النهار ، واما خلوها منها بالقوة فلانها لوقدرت ان تبرز الحياة ذات يوم لقدرت ان تبرزها الآن لان طبائع الاشياء ثابتة لاتتغير فكما كانت قبل فهي هى الآن ولا يمكن ان توجد فى وقت وتضمحل فى آخر وذلك مقرر في مبادئ العلوم الطبيعية الثابتة فما شوهد قط ولا يشاهد ادنى اثر للحياة فى المادة

فاذن ثبت الافتقار الى موجد هو مسبب الاسباب

ثم من البين ان تركيب المادة اوالاجسام الغير الحية مباين على خط مستقيم لتركيب الاجسام الحية بالنظر الى الاجهزة والى مجموع الاعصاب وغير ذلك ثم اننا نرى فرقا عظيما بين الاجسام الحية والاجسام اللاحية من حيث الحركة فان الاولى حركتها من نفسها اى انها تحرك نفسها بنفسها بخلاف الثانية

ثم يلزم على كون المادة مصدر كل موجود حى ان يكون المعلول اكمل من علته وذلك محال يابى قبوله كل عقل سليم لاقتضائه ان يكون معلولا وغير معلول معلولا لصدوره عن غيره . وغير معلول لما فيه من الذاتيات التى لا اثر لها البتة فى علته الصادر عنها وذلك يذهب بالتناسب الواجب كونه بين علة ومعلولها

قال بعض الباحثين : ان الامتحانات العلمية ولا سيما التجارب التى زاولها كثير من المشاهير قد اثبتت ان التولد الذاتى غير ممكن وان الحياة انما تنتج من الحياة . والحىّ انما ينشأ من الحى ولم يولد الجماد حيا قط (١) فهم اذا فى زعمهم مخطئون واما قولهم ان الاجسام الحية لا تختلف في التركيب عن غير الحية ولا تحوى من العناصر الا ماتحويه الجمادات فلا يخفى ان الكيماوىّ خبير بدستور مزج العناصر من الكمية والكيفية ولديه كل مايلزمه من قوى طبيعية وكيماوية فلما ذا بعد كل ماذكر لم يقدر احد في العالم على تركيب قطرة دم اوحوصلة حيوية . اليس فى هذا برهان قويّ على ان التركيب العضوىّ انما يتم بفعل قوة هي غير القوى المادية وان ظهور الحياة فى الحىّ ونموّها وانتشارها ثم زوالها وخفاءها كل

(١) تقدم بيانه فى الدليل الثاني عشر فراجعه

ذلك لا يتم بالقوى المادية · نعم ان تلك القوى موجودة في الحيّ وتعمل فيه ولكنها انما تخدم الحياة دون ان تقدر على ايجادها فهي مساعدة لها وليست مبدأها ومنشأها

استحالة ازلية الانسان

هذه المسئلة اصبحت من البديهيات الآن وذلك انه لما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الارض) عن بطلان القول بقدم الانواع رجع المتاخرون من الماديين عنه الى القول بالحدوث ومن ذلك حدوث الانسان ضرورة فان البحث عن طبقات الارض المذكور قد برهن انه وجد زمان وجدت فيه المعادن والنباتات وبعض الحيوانات ولم يكن الانسان في حيز الوجود فالجنس البشرى له ابتداء ويتعين ان يكون له مبدأ · وهو خالق الكائنات · وايضا ان العلوم والفنون كلها لها ابتداء واكثرها معروف بدؤها في التاريخ فلو كان العالم ازليا لا يتسنى لنا ان نظن ان الانسانية خالية من هذه الصنائع فاكتشافها وتحديد زمانها يدل على حدوث العاملين بها وذلك واضح

برهان حدوث المادة من العدم

قال بعض الائمة المحققين : معنى حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الاجسام وعوارضها بعد ان لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى اليها سلسلتها من جانب الماضى · ولا يجوز ان يوصف بالازلية وحده وصفاته عند القائلين بانها وجودية · وقبل هذه البداية التى لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى خالق الكون ثم انه اراد ايجاد الكون فاوجده من العدم المحض

وهذا هو الذى يظهر من الكتاب العزيز اه

وقال ابن رشد في حواشي التهافت : الفلاسفة باتفاق يرون ان البارئ تعالى منفصل عن العالم ليس هو من هذا الجنس ولا هو ايضا فاعل بمعنى الفاعل الذى في الشاهد بل هو فاعل هذه الاسباب مخرج الكل من العدم الى الوجود وحافظه على وجه اتم واشرف مما هو فى الفاعلات المشاهدة وهو مريد مختار لايلحقه النقص الذى يلحق المريد فى الشاهد (ثم قال ابن رشد) وهذا نص كلام الحكيم امام القوم في بعض مقالاته المكتوبة فى علم مابعد الطبيعة (١) ان قوما قالوا كيف ابدع الله العالم لامن شيء وفعله شيئا من لاشيء قلنا في ذلك ان الفاعل لايخلو من ان تكون قوته كقدرته وقدرته كارادته وارادته لحكمته اوتكون القوة اضعف من القدرة والقدرة اضعف من الارادة والارادة اضعف من الحكمة فان كانت بعض هذه الصفات اضعف من بعض فاذن ليس بيننا و بين الخالق فرق وقد لزمها النقص وهذا مستحيل اويكون كل كل واحد من هذه الصفات فى غاية التمام وغاية الحكمة فهو مايشاء كما يشاء من لاشيء وانما يتعجب من النقص الذى فينا اه

(١) قولهم ماوراء الطبيعة كلام مترجم عن اليونانية ومآله العلم الذى ينبغى ان يقراء بعد الوقوف على علم الطبيعيات . والمراد به العلم الذى يبحث عن الاسباب الاخيرة للوجود وعن مبادئه وانما سموا هذا العلم بما وراء او بعد الطبيعة لانه لما كان لكل علم ان يبحث عن علله الاخيرة كان من الضرورة وضع علم يبحث فيه عن اسباب الكوائن طرا ومبادئها ولذلك كان هذا العلم علم العلوم ولبسط سره موضع آخر فجد تجد

وقال الفارابي في رسالة الجمع بين رايي الحكيمين افلاطون وارسطو: ليس لاحد من اهل المذاهب والنحل من العلم بحدوث العالم واثبات الصانع له وتلخيص امر الابداع مالا رسطوطاليس وقبله لافلاطون فقد أوضحوا امر الابداع بحجج واضحة مقنعة وانه ايجاد الشيء لاعن شيء . وان كل مايتكون من شيء ما فانه يفسد لامحالة الى ذلك الشيء والعالم مبدع من غير شيء فمآله الى غير شيء اه ملخصا

وقال ابن مسكويه في الفوز الاصغر في الفصل العاشر في ان الله تعالى ابدع الاشياء كلها لامن شيء: قد ظن قوم لادربة لهم بالنظر انه لايكون شيء من الاشياء الا من شيء وذلك لما راوا ان الانسان لايكون الا من انسان والفرس لايكون الا من فرس حكموا انه لايكون شيء الا من شيء ولجالينوس الطبيب فيه كلام وللاسكندر في نقضه كتاب مفرد بين فيه ان المتكون انما تكون لامن شيء ونريد ان نبين ذلك ونوضحه بقول وجيز فنقول: ان الاشياء المتكونة انما تتبدل بالصورة حسب فاما الموضوع للصورة فلا يتبدل بنفسه وقد بين الحكيم ذلك ودل على ان الصورة تتقادى على امر ثابت لايتغير ليقبلها واحد بعد آخر فالاشكال كلها والصور الهيولانية باسرها انما هي محمولة في اجرام والجرم الموضوع لها انما يتبدل كيفية بكيفية وصورة بصورة وليس يخلو اذا استبدل بصورته ان تبقى الاولى فيها مع حدوث الثاني او تنتقل عنه الى جرم آخر او تبطل البتة فان ادعى مدع انها تبقى في الجرم مع حدوث الثاني كانت دعواه محالا لان الصور المتضادة والاشكال المختلفة لاتجتمع في محل واحد وان ادعى مدع

انها تنتقل عنه كان ايضا محالا لان نقلة المكان انما تكون للاجرام فاما الاعراض فانها لا تصح فيها النقلة الا ان تكون فى حواملها وذلك بطريق العرض وهذه امور قد كشف عنها و بين امرها وليس من شرطنا اطالة الكلام فيها فبقى ان نقول ان الاول يبطل بحدوث الثاني واذا بطل الاول فانما صار من وجود الى عدم . واذا ثبت فى الصورة الاولى انها تصير من الوجود الى العدم كان ذلك ايضا في الصورة الثانية الحادثة واجبا — اعنى انه انما صار فيه العدم الى الوجود والا لزم فيه اما ان يكون موجودا فى محله ذلك واما منتقلا اليه من محل آخر وقد ابطلنا هذين فبقى ان تكون الاشياء المتكونة كلها — اعنى حدث الصورة والتخاطيط وسائر الاعراض والكيفيات انما حدثت لا من شيء وقد اطلق الحكيم ان الموجود لا من موجود وهذا بين لان الله تعالى لو كان ابدع الموجود من موجود لكان لا معنى للابداع اذ الموجود موجود قبل الابداع وانما يصح الابداع في الموجود اذا كان لا من موجود اعنى العدم وان ارتقينا من الامور القريبة البناتبين ما نرومه عن قرب وذلك ان كل كائن فانما يكون عما لم يكن ذلك الشيء مثال ذلك الحيوان فانه يكون من غير حيوان اذ الحيوان يكون من منى والمنى انما يقبل صورة الحيوان شيئا بعد شيء ويستبدل بها من صورته الاولى وكذلك المنى يكون من الدم والدم من الغذاء والغذاء من النبات والنبات من الاستقصات والاستقصات من البسائط والبسائط من الهيولى والهيولي والصورة لما كانا اول الموجودات ولم يصح وجود احدهما خلوا من الآخر لم ينحلا الى شيء موجود بل الى العدم فيكون وجودهما لا عن شيء وذلك ما اردنا

ان نبين اه كلامه

وقال بعضهم دعوى ان الحدوث من العدم محال يقال عنها انها محال بنفسها لا بفعل قادر ازلي . وعدم ادراكنا لذلك وكونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه اذ لا يلزم من جهل الامر نفيه وقد اعترف الماديون بتعذر معرفة اصل المادة وكم من اشياء مشهودة يعسر على الانسان ادراك حقيقتها وكما انه لا يحق لمن لم يبصر امرا ان ينكر وجوده فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخلق ان ينكر وجوده سيما وهي من غيب الغيوب وابطن البطون

وقال آخر : لا يخفى ان الاعتراض يرجع الى هذا : وهو لا شيء يصير من لا شيء فنقول ان اريد به انه لا معلول يصير بدون علة فاعلة فهو صحيح اجماعا واما اذا كان المراد به لا شيء يمكن ان يصدر من لا مادة ففيه تفصيل فبالنظر الى العلل الثانوية المتناهية القوى لا خلاف فيه لان الخليقة ايا كانت لا تقدر ان تصنع من لا شيء شيئا . واما بالنظر الى العلة الاولى ذات القوة الغير المحدودة (يعني الخالق تعالى) فباطل اذ من شان القوة الغير المتناهية ان لا تتقيد بشيء خارج عنها فيمكنها ان توجد الشيء من العدم البحت اى لا من مادة كيفما شاءت ومتى شاءت والا كانت متناهية محدودة وذلك محال عليها ولا يلزم من قدمه تعالى قدم المبروءات اذ هو تعالى فاعل مطلق لا يضطره شيء فيخلق ما يشاء كيفما يشاء : « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون »

وقد برهن بعض الرياضيين على حدوث الخلق من العدم بما تقرر في فن الهندسة قال : في اصول الهندسة ان النقطة نهاية الخط وهو نهاية السطح وهو

نهاية الجسم فالنقطة ليس لها الابعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق فهى عدم ·
والخط له طول فقط فهو عدم ايضا · والسطح له طول وعرض كذلك فهو عدم ايضا ·
والجسم له طول وعرض وعمق وهو محسوس وقد حدث من عدم (ثم قال)
ومما تقرر فى هذا الفن ايضا : ان المستقيم يمس محيط الدائرة بنقطة وهى عدم
ومتى تحرك فانه يمر بمركزها ويصير اكبر ما يرسم فيها ومتى تحرك لنهاية المحيط
فانه يمسه بنقطة الانتهاء وهى عدم فثبت بذلك ان الهندسة بدئت بعدم
وانتهت الى العدم اه

﴿ استحالة القول بالاتفاق من جهة الحكمة ﴾

من اجلى ما يبطل به القول بالمادة والصدفة استلزامه لرفع الحكمة فى الخلق اعنى
ان لا تكون ههنا حكمة ولا توجد موافقة اصلا بين الانسان وبين اجزاء
العالم التى ظهرت النعمة فى وجودها والمنة بخلقها وذلك يخالف الفطرة والعقل
اذ يقتضى ان لا يكون هنا نعمة فى شىء وان يستغني الانسان عما يضطر اليه
وان لا توجد المسببات مرتبة على الاسباب فى هذا العالم اذ ما كان بالصدفة
والاتفاق فانه لا يستدعى ذلك فلا تكون حكمة اصلا ولا قصد ولا ارادة
وحينئذ فليس شكل يد الانسان مثلا ولا عدد اصابعها ولا مقدارها ضروريا
لا للامساك الذى هو فعلها ولا لاحتوائها على جميع الاشياء المختلفة الشكل ولا
لموافقتها لامساك آلات جميع الصنائع · ولو كان ذلك كذلك لكان لا فرق
بين ان يخص الانسان باليد او بالحافر او بغير ذلك · وكل ذلك باطل بداهة
ليتقن الحكمة فى كل ذلك من حكيم قدر هذه الكائنات على نسب حاجياتها

وضروورياتها وكمالياتها تقديرا لااتم منه ولااتقن والى هذا الاشارة بقوله تعالى «ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى» وقوله سبحانه «صنع الله الذى اتقن كل شيء» وقوله جل وعلا «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور» هذا ماشار له الامام ابن رشد فى المناهج وتقدم فى الدليل الرابع فى الافتقار الى سبب الاسباب مايرشح ذلك

وبالجملة فمتى لم يعقل ان ههنا اوساطا بين المبادئ والغايات فى المصنوعات ترتب عليها وجود الغايات لم يكن هاهنا نظام ولا ترتيب واللازم منتف فالملزوم مثله فاذن الترتيب والنظام وبناء المسببات على الاسباب هو الذى يدل على انها صدرت عن علم وحكمة لا بالاتفاق والصدفة

﴿ برهان البعث والاعادة ﴾

اذا قضت قدرة القادر جل جلاله بان يكسو الاشجار بعدعريها ويلوّن الازهار مرة اخرى وينبت الاعشاب ويرد الزرع بعد فنائه فيجدد له كل مافقده ويرجعه لحاله الاولى افلا يكون ذلك شهادة لقيامة الموتى وبعثهم كما قال تعالى «اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم • قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم» فقول الملحد من اين تتجمع اجزاء كل فرد وقد تبعثرت ودخلت فى تكوين كثيرين آخرين يجاب عنه بان تجمعها بقدرة الله الذى خلقها اول مرة ولو تعذر فهم كيفية تكونه فهل يسوغ انكار وجوده والا فقل له ابن لى من اين تتجمع مواد الاعشاب التى تنبت وتصير ازهارا

ثم ثمرا ثم شجرا بعد ان يقع زرعها فى الارض ويفسد · هل تفهم كيف يتصو الحيوان في الرحم ثم ينشأ هو واعضاوءه · هل تفهم كيف تستحيل الاطعمة فى الحيوان والانسان الى لحم وعظام وشريانات واوردة وجلد وشعر وحواس كلها فى غاية الدقة والارتباط فان كنت لاتفهم جميع ذلك فهل يمكن لك ان تنكره وقد ثبت فى علم الفيزيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) ان الاركان الاولية للمادة لاتفسد ولا تفنى وان لحقها كثير من التغيرات والتراكيب المختلفة · وعليه فتثبت دائما هى وان قامت مع تكوين كثير من الكائنات اذ لايزال فى قدرة الخالق سبحانه ان يرجعها الى الجزء الذى قامت مع تكوينه مدة من الزمان

قال الامام الغزالى : سبب فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور هو قلة الفهم فى هذا العالم لامثال تلك الامور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له ان صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا هذا الآدمى المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال تعالى « اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » وقال تعالى « ايحسب الانسان ان يترك سدى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى » ففى خلق الادمى مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب اعضائه اعاجيب تزيد على الاعاجيب فى بعثه واعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك فى صنعته وقدرته فان كان

ى ايمانك ضعف فقوّ الايمان بالنظر فى النشأة الاولى فان الثانية مثلها واسهل منها اه

وقال رحمه الله ايضاً في المقصد الاسنى فى شرح اسمه تعالى : (الباعث) هو الذى يحيي الخلق يوم النشور · ويبعث من فى القبور · ويحصل مافى الصدور والبعث هو النشأة الآخرة · ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث وذلك من أغمض المعارف واكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم ان الموت عدم غلط · وظنهم ان الايجاد الثانى مثل الايجاد الاول غلط · فاما ظنهم ان الموت عدم فهو باطل فان الموتى اما سعداء واولئك ليسوا امواتا · « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » واما اشقياء وهم ايضا احياء ولذلك ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقعة بدر وقال : انى وجدت ماوعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا : ثم لما قيل له كيف تنادي قوما قد جيفوا قال ماانتم باسمع لما اقول منهم لكنهم لا يقدرون ان يجيبوا : والمشاهدة الباطنة دلت ارباب البصائر على ان الانسان خلق للابد وانه لاسبيل للعدم عليه · واما ظنهم ان البعث ايجاد ثان وهو مثل الايجاد الاول فغير صحيح بل البعث انشاء آخر لايناسب الانشاء الاول اصلا · وللانسان نشآت كثيرة وليست هي نشأتين فقط ولذلك قال تعالى « وننشئكم فيما لاتعلمون » وكذلك قال تعالى بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك « ثم انشأناه خلقا آخر » ثم خلق الادراكات الحسية بعد خلق

اصل الروح خلق آخر . ثم خلق التمييز الذى يظهر بعد سبع سنين نشأة اخرى ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة اخرى وكل نشأة طور وقد خلقكم أطوارا وكما انه يعسر على من فى المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز يعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف فى طوره من العجائب قبل حصول العقل (ثم قال الغزالى) وكما ان طور العقل وادراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الاراكات التى قبله فكذلك النشأة الآخرة ابعد فلا ينبغى ان تقاس النشأة الآخرة بالاولى (ثم قال) والمقصود ان لامناسبة بين النشأتين الا من حيث الاسم وما ابدع قوله رحمه الله فى آخر البحث : ومن رقّى غيره من الجهل الى العلم فقد انشأه نشأة اخرى واحياه حياة طيبة فان كان للعبد مدخل في افادة الخلق العلم ودعائهم الى الله تعالى فذلك نوع من الاحياء وهي رتبة الانبياء ومن يرثهم من العلماء اه

﴿ رد الاستدلال بالنفى المجرد فى باب النظريات ﴾

كثيرا مايعرج الماديون بعد بطلان شبههم على النفى ويزعمون ان الشهادة بالنفى يأوون منها الى ركن والذاهب الى هذا بعد ابطال ماالديه ونسفه ، معرض معتقده لهتك ستره وكشفه ، وذلك لان الشهادة بالنفى على اقسام أما معلومة مثل ان العرب لم تنصب الفاعل (١) أوظنية عن استقراء صحيح نحو ليس فى كلام كلام العرب اسم متمكن آخره واو لازمة قبلها ضمة ، أونظرية يرمى بها من

---

(١) وقد شذ اعطاء الفاعل اعراب المفعول ورفعهما معا ونصبهما كذلك فى امثلة وشواهد ساقها ابن هشام فى آخر المغنى في القاعدة الحادية عشرة فى مثالها الثامن والشاذ لا يقاس عليه

غير دليل وهذه هي المردودة وما نحن فيه من ذلك فان ماليس بضرورى فلا يعرف الا بدليل والنفى فيه كالاثبات وتحقيقه — كما فى المستصفى للغزالى — ان يقال للنافى ما ادعيت نفيه عرفت انتفاءه اوانت شاك فيه فان اقر بالشك فلا يطالب الشاك بالدليل فانه يعترف بالجهل وعدم المعرفة وان قال انا متيقن للنفى قيل له يقينك هذا حصل عن ضرورة اوعن دليل ولا تعد معرفة النفى ضرورة فانا نعلم أنّا لسنا فى لجة بحر اوعلى جناح نسر فلا تعد معرفة النفى ضرورة وان لم يعرفه ضرورة فانما عرفه عن تقليد او عن نظر فالتقليد لا يفيد العلم فان الخطأ جائز على المقلَد . والمقلِد معترف بعمى نفسه وانما يدعى البصيرة لغيره وان كان عن نظر فلا بد من بيانه فهذا اصل الدليل اه

﴿ نزوع الماديين الى نزغات الجدال العقيم ﴾

قال بعض الافاضل يمثل حالة الدهريين : تسلق الزائغون عن الحق في التلبيس على الضعفاء وافساد عقيدة الاغبياء من طريق مبادئ الخلق ومبانيه وما اليه مآله تعلقا به ينبهون غرة الغافل ويحيرون فطنة العاقل وذلك من انكى مكايدهم للدين واثخن لبلوغهم فى انتقاص الموحدين « ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » وان من اعظم الآفة على عوام الامة تصديهم لمناظرة من ناظرهم بما تخيل فى اوهامهم وانتصب فى نفوسهم من غير ارتياض بطرق العلم ولا معرفة باوضاع القول ولا تحكك بادب الجدل ولا بصيرة بحقائق الكلام ثم القاؤهم بايديهم — عند اول صاكة تصك افهامهم وقارعة تقرع اسماعهم ضارعين خاشعين — الى مالاح لهم بلا اجالة روية ولا تفكير

عن خبيثة

فقصارى نظرهم الاستخفاف بالشرائع والاديان التى هي وثاق الله تعالى في سياسة خلقه وملاك امره ونظام الالفة بين عباده وقوام معاشهم والمنبه على معادهم الرادع لهم عن التباغى والتظالم والمهيب بهم الى التعاطف والتواصل والباعث لهم على اعتقاد الذخائر من مشكور صنائع العاجل ومحمود ثواب الآجل اه ولذا كان الجدال معهم عديم الفائدة . قليل العائدة . لما يقع في نفس احدهم عند الخوض فى الجدال ان لايقنع بشيء قال الامام الاصفهانى : ومن لايقنعه الا ان لايقنع فما الى اقناعه سبيل ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة بل لو اجتمعت عليه الانبياء بكل معجزة كما قال تعالى « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله » (وقال ايضا) : اذا ابتليت بمجادل مهارش . ومشاجر مناوش . مراده مناواة العلماء . ومماراة السفهاء فحقك ان تفر منه فرارك من الاسد . فان لم تجد من مزاولته بدا فقابل انكاره الحق بانكارك الباطل ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب متبرئا في ذلك قوله عز وجل « ومكروا ومكر الله » وقوله تعالى حكاية عن المنافقين « انا معكم انما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم » واياك ان تعرج معه الى بث الحكمة وان تذكر له شيئا من الحقائق مالم تتحقق ان له قلبا طاهرا لاتعافه الحكمة (١) فقد قال عليه الصلاة والسلام : لاتدخل الملائكة

---

(١) يرحم الله القائل .

واذا جلست الى الرجال واشرقت ✲ في جو باطنك العلوم الشرد

فاحذر مناظرة الجهول فانه ✲ تغتاظ انت ويستفيد ويجحد

بيتا فيه كلب فان لكل تربة غرسا، وان لكل بناء اسا . وما كل الرؤس يستحق التيجان، ولا كل طبيعة تستحق افادة البيان . فان كان لابد فاقتصر معه على اقناع يبلغه فهمه فقد قيل : ان لب الثمار معد للانام . والتبن معدود للانعام، كذلك لب الحكمة معد لذوى الالباب وقشورها مجعولة للانعام (ثم قال) واعلم ان سبيل انكار الحجة والسعى فى افسادها اسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ولهذا يتحرى الجدل الخصم ابدا الدفاع لا المعارضة بمثلها وذلك ان الافساد هدم وهو سهل والاتيان بالمثل بناء وهو صعب ولذلك دعا الله الناس فى الحجج الى الاتيان بمثلها فقال «فاتوا بعشر سور مثله مفتريات» وقال ابراهيم عليه السلام «فان الله ياتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» والله الموفق

بيان آداب الجدل القويم
وسبيل الاشراف على الحق

اعلم ان كل مسئلة تنازع فيها اثنان او جماعة فلا يخلو من ان يكونوا من اهل تلك الصناعة التى المسألة منها او يكونوا من غير اهلها فان كانوا من غير اهلها فكلامهم فيها على غير اصل مقرر منهم . وكل كلام ومنازعة فى شئ على غير اصل مقرر منهم فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم وان كان احدهما من غير اهلها فان منازعته لصاحبه تعدٍّ منه . وكلام صاحبه معه ايضا تخلف منه اذ كان يجادل مع من ليس من اهل صناعته . وان كانا من اهل تلك الصناعة فلا يخلو من ان يكون متساويى الدرجة فيها او متفاوتين . فان

كانا متفاوتين فحكمهما مثل ماتقدم ذكرهما من ذكر حكم الاولين · وان كانا متساويي الدرجة فى تلك الصناعة فسبيلهما ان يوءخذا فيما اختلفا فيه الى قوانين تلك الصناعة واصولها ويقيسان عليها تلك المسألة ان كانت من فروعها وان لم يكن فى قوة نفوسهم استخراجها فسبيلهما ان يتحاكما الى من هو اعلى درجة منهما فى تلك الصناعة ليحكم بينهما · وان لم يجدا من يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا فى قوة نفوسهم استخراجها من الاصول فليس لهما الا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها · فان لم يفعلا ماوصفنا فى الجدال والخصومة فسيكون ذلك يسبب العداوة والبغضاء بينهما · وكلما ازدادوا الحاحا ازدادوا خلافا على خلاف وعداوة على عداوة وبغضا الى يوم القيامة وهذا من احد اسباب الاختلاف فى الاراء اه من الرسائل

واما سبيل الاشراف على الحق فهو استقامة الفهم وجودة النظر — المعبر عنها بالقوة القدسية — ويتضمن ذلك امورا

الاول ان لايكون معوج السليقة فانه آفة الحاسة الباطنة · والاعوجاج ذاتى كما ذكر وكسبى باعتبار العوارض مثل سبق تقليد اوشبهة

الثاني ان لايكون رجلا جدلا فى قلبه محبة البحث والاعتراض فمثل هذا القلب لايكاد يهتدى ولا يعرف الحق من الباطل اذ دوام الفكرة فى المحاورات يضعف الفهم ويمرض صحيحه

الثالث ان لايكون لجوجا عنيدا كثير التعنت فى النظر

الرابع ان لايكون فى حال قصوره مستبدا برأيه

الخامس ان لايكون له حدة ذهن زائدة بحيث لا يقف ولا يجزم بشيء

السادس ان لايكون بليدا لا يتفطن المشكلات والدقائق ويقبل كل مايسمع ويميل مع كل قائل بل لابد فيه من حذاقة وفطنة يتعرف بها الحق من الباطل

السابع ان لايكون مدة عمره متوغلا فى الرياضيّ اوالنحو اوغير ذلك ثم يشرع بعد ذلك فى فن الكلام متحكما فيه بما سبق له من تلك الافهام فانه يخرّ بـه كثيرا بسبب انس ذهنه بغير طريقه

الثامن ان لايعود نفسه تكثير الاحتمالات في التوجيه فانه ربما يفسد الذهن وقد قالوا ضاع الحق بين قولين فصاعدا

التاسع ان لايكون جريئا غاية الجراءة في البت والقطع بدون تروّ وامعان

العاشر ان لايكون مفرطا في الاحتياط جبانا عن الفحص والاستنباط

الحادى عشر ان يتجافى البحث عما لا يدرك فان الذى وسع دائرة المراء والضلال هو البحث عما لايعلم والسعى فيما لايدرك وطول السير في الطريق التى لاتوصل الى المطلوب والاقتداء بمن يظن فيه الاصابة وهو مخطئ والاشتغال بالبحث عن الدقائق التى لاطريق الى معرفتها ولا يوصل البحث عنها الى اليقين ولاالى الوفاق ولا ظهرت للخوض فيها مع طوله ثمرة نافعة لا باليقين صادعه . ولا للافتراق جامعه . وربما انقطع هذا العمر القصير في تلك الطرق البعيدة قبل البلوغ الى المقصود بها وهو معرفة الحق الواجب من الباطل المهلك ومعرفة المحق من المبطل وليس الطلب لكل شيء بمحمود ولا كل مطلوب بموجود ولذا تعين طلب الطريق القريبة الممكنة التي هي فطرة الله التى فطر

الناس عليها · هذا ملخص ما اورده العلامة الطبا طبائى في مفاتيح الاصول والسيد ابن المرتضى فى ايثار الحق · وهذا المطلب من المضنون به على غير اهله فخذه وكن من الشاكرين

الزام الواقفة وارباب الحيرة

ذكر انى قرأت مقالة اعجب بها خطيبها المتفلسف زعم فى خاتمتها السوآى تكافؤ الادلة عنده (۱) مما آل الى اتخاذ الحيرة مذهبا والتوقف والتردد نحله — نعوذ بالله — وقد يظن قليل الاطلاع والتنقيب على مقالات الفرق وآرائهم ان هذا راى جديد وفكر حديث والخبير يدرى ان هذا السخف وجد من قال بمثله في العصور الخالية وان قد ابطله من لايحصى من الائمة · ويمر بالقارئ في مطولات الاصول شيء منه واوسع من رايته تكلم مع الفرقة الذاهبة اليه الامام ابن حزم رحمه الله في آخر الفصل حيث قسمهم الى اقسام واصناف متشعبة وكرّ بالنقض والالزام والقام الحجر الكل والافحام · في عدة اوراق اودعها من الحقائق مارق اوراق · ولنقتطف لموضوعنا الموجز شذرة من عقوده قال رحمه الله ا.ا الطائفة المتحيرة فقد شهدت على انفسها بالجهل وكفت خصومها موءنتها في ذلك · وليس جهل من جهل حجة على علم من علم ولا من لم يتبين له الشيء عيارا على من تبين له بل من علم فهو الحجة على من جهل هذا هو الذى لايشك احد فيه فى جميع العلوم والصناعات · وكل معلوم يعلمه

(۱) قال ابن حزم معنى تكافؤ الادلة انه لايمكن نصر مذهب على مذهب وان دلائل كل واحد مكافئة لغيرها وان كل ماثبت بالجدل فهو بالجدل ينقض اه

قوم ويجهله قوم ولا احمق ممن يقول لما جهلت انا امر كذا ولم اعرفه علمت ان كل احد جاهل به كجهلي . وهذه صفة هؤلاء القوم نفسها . ولو ساغ هذا لاحد لبطلت الحقائق وجميع الصناعات اذ لكل شيء منها من يجهله من الناس نعم ومن لا يتحجج فيه ولا يفهمه وان طلبه . هذا امر مشاهد بالحواس فهم قد اقروا بالجهل وندعي نحن العلم بحقيقة ما اعترفوا بجهلهم به . فالواجب عليهم ان ينظروا في براهين المدعين للمعرفة بما جهلوه نظرا صحيحا متقصى بغير هوى فلا بد يقينا من ان تلوح حقيقة قول المحق وبطلان قول المبطل فتزول عنهم الحيرة والجهل حينئذ فسقطت هذه المقالة بيقين

واما من قطع بانه ليس هاهنا مذهب صحيح اصلا فان قوله ظاهر الفساد بيقين لا شكال فيه لانهم اثبتوا حقيقة وجود العالم بما فيه وحقيقة ما يدرك بالحواس وباول العقل وبديهته ثم لم يصححوا حدوثه ولا ازليته ولا ابطلوا حدوثه وازليته معا فقد خرجوا يقينا الى المحال والى اقبح قول السوفسطائيه وفارقوا بديهة العقل وضرورته التي قد حققوها وصدقوا موجبها اذ لا خلاف بين احد له مسكة عقل في ان كل ما لم يكن حقا فهو باطل وما لم يكن باطلا فانه حق وان اثنين قال احدهما في قضية واحدة في حكم واحد قال نعم والآخر لا فاحدهما صادق بلا شك والآخر كاذب بلا شك هذا يعلم بضرورة العقل وبديهته . واما قول قائل هذا حق باطل معا من وجه واحد في وقت واحد وقول من قال لا حق ولا باطل فهو بين باطل معلوم بضرورة العقل وبديهته فواجب باقرارهم ان من قال ان العالم لم يزل وقال آخر هو محدث ان احدهما

صادق بلا شك فظهر بيقين وضرورة العقل يقينا فساد هذه المقالة الا ان يبطلوا الحقائق ويلحقوا بالسوفسطائية فيكلمون حينئذ بما تكلم به السوفسطائية

وقوع الاشارة الى الماديين فى القرآن الكريم وان الفلسفة الحقيقية رائد الحق

لهؤلاء الماديين عدة اسماء سوءى فيقال لهم المعطلة والملاحدة والدهرية والزنادقة والمهملة وهم اقل الناس عددا وأفيلهم رايا واشرهم حالا واوضعهم منزلة . ولهم فى كل عصر صبغة وحلية وفى كل قرن راى وفكرة كما يراه من وقف على كشف عوارهم فى المؤلفات القديمة . قال العلامة الشهرستانى فى الملل والنحل فى معطلة العرب : فصنف منهم انكروا الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى وهم الذين اخبر عنهم القرآن المجيد « وقالوا ماهي الا حياتنا نموت ونحيي » اشارة الى الطبائع المحسوسة في العالم السفلى وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر « وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كم آية وكم سورة فقال تعالى « اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين » اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض » وقال « اولم ينظروا الى ماخلق الله » وقال « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين » وقال « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم » فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق فانه قادر على الكمال ابداء واعادةً اه وقال الامام ابن القيم في اغاثة اللهفان في ذكر تلاعب الشيطان

بالدهرية : هؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ماحكاه الله عنهم « وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » وقالوا ان العالم دائم لم يزل ولا يزال لايتغير ولا يضمحل وهذا العالم هو الممسك لهذه الاجزاء التى فيه وهؤلاء هم المعطلة حقا وهم فحول المعطلة وقد سرى هذا التعطيل الى سائر فرق المعطلة على اختلاف آرائهم وتباينهم فى التعطيل كما سرى داء الشرك تاصيلا وتفصيلا فى سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه وكما سرى جحد النبوات تاصيلا وتفصيلا فى سائر من جحد النبوة اوصفة من صفاتها اواقرّ بها جملة وجحد مقصودها وزبدتها او بعضه فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها فى الناس ولم ينجح منه الا اتباع الرسل العارفون بحقيقة ماجاء به المتمسكون به دون ماسواه ظاهرا وباطنا فداء التعطيل وداء الاشراك وداء مخالفة الرسول وجحد ماجاء به اوشيء منه هو اصل بلاء العالم ومنبع كل شر واساس كل باطل فليست فرقة من فرق اهل الالحاد والباطل والبدع الا وقولها مشتق من هذه الاصول الثلاثة اومن بعضها

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة * والا فانى لااظنك ناجيا

(ثم قال) فسرت هذه البلايا الثلاثة فى كثير من طوائف الفلاسفة لا فى جميعهم فان الفلسفة من حيث هي لاتعطى ذلك فان معناها محبة الحكمة والفيلسوف اصله فيلاسوفا اى محب الحكمة ففيلا هو المحب وسوفا هي الحكمة والحكمة نوعان قولية وفعلية فالقولية قول الحق والفعلية فعل الصواب وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها واصح الطوائف حكمة من كانت

حكمتهم اقرب الى حكمة الرسل التي جاوءا بها عن الله تعالى قال تعـالى عن نبيه داود عليه السلام « وآتيناه الحكمة وفصل الخطـاب » وقال عن المسيح عليه السلام « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » وقال عن يحيى عليه السلام « وآتيناه الحكم صبيا » والحكم هو الحكمة وقال لرسوله محمد صلى الله وسلم « وانزل الله عليك الكتاب والحكمة » وقال « يوءتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » وقال لاهل بيت رسوله « واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » فالحكمة التي جاءت بها الرسل هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح للهـدى ودين الحق لاصابة الحق اعتقادا وقولا وفعلا . وهذه الحكمة فرقها الله سبحانـه بين انبيائه ورسله وجمعها لمحمد صلى الله عليه وسـلم كما جمع له من المحاسن مافرقه فى الانبياء قبله وجمع فى كتابه من العلوم والاعمال مافرقه فى الكتب قبله فلو جمعت كل حكمة صحيحة فى العالم من كل طائفة لكانت فى الحكمة التى اوتيها صلوات الله وسلامه عليه جزأ يسيرا جدا لايدرك البشر نسبته . والمقصود ان الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها وقد صـار هذا الاسم فى عرف كثير من الناس مختصا بمن خرج عن ديانات الانبياء ولم يذهب الا الى مايقتضيه العقل فى زعمه الا أن هذا عرف عامى لاعبرة به لانه لايقتضيه وضع اللفظ ولا استعمال المحققين له اه كلام ابن القيم بزيادة ما

وقال الشيخ الاكبر فى مقدمة الفتوحات : اياك ان تبادر الى انكار مسئلة قالها فيلسوف اومعتزلى مثلا وتقول هذا مذهب الفلاسـفة اوالمعتزلة فان هـذا

قول من لاتحصيل له اذ ليس كل ماقاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا فعسى ان تكون تلك المسئلة مما عنده من الحق ولا سيما ان كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها اواحد من علماء الامة من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتبا كثيرة مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وماانطوت عليه من خفايا الضمائر وكل ذلك علم صحيح موافق للشرائع فلا تبادر الى الرد على مثل ذلك (ثم قال) فخذ ماأتاك به الفيلسوف اوالمعتزلى مثلا ثم تربص واتئد على نفسك قليلا قليلا حتى يتضح لك معناه احسن من ان تقول يوم القيامة ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين وقال ايضا في الباب (٢٢٦) اعلم ان الفلاسفة ماذمت لمجرد هذا الاسم وانما هو لما اخطئوا فيه من العلم المتعلق بالآلهيات فان معنى الفيلسوف هو محب الحكمة وكل عاقل يحب الحكمة غير ان اهل الافكار خطؤهم فى الآلهيات اكثر من اصابتهم سواء كان معتزليا اوفيلسوفا اه نقله في اليواقيت

اعتراف الفلاسفة اليوم بالقصور عن بلوغ الحقائق وان مقلديهم آفة العلم والدين

ما اجل الوقوف على الآراء والمباحث وما اجمل العثور على ميدان التجالد فيها وما اهم مايستفيده المنصف من مشهد ذلك لولم يكن الا ماياخذه العقل من الحيطة عند تجالدها والبعد عن مشايعتها والعصمة من الانخداع فى التحزب لبعضها حتى ينحسم الخلاف ويصطلح الفريقان الكفى

كم من ناظر خدع برأى عزِّ رَ بشبه حسبها ادلة ولم يشعر ان من ورائها آخر

ينقضها ويهدمها ويبرهن انها اوهام ، وطالما حججت من لجّ ممن امسكرتهم تلك المعرفة القليلة الضئيلة التى جعلتهم يتوهمون انهم يعلمون كل شيء — اعنى اولئك الذين ارادوا ان يجعلوا تقليدهم الاعمى بدلا من العلم الصحيح — بان الوقوف على حد واحد من القول قصور وتقصير وضلال وتضليل فما نسبة قولٍ من كُتَيِّب اورسالة الى كتب ومصنفات اوسعت المقال واطالت المجال فندت بعضها بعضا وجعلت عالى اوهام آخرين سافلها . وما اغبى قوما عقدوا على العناية براى من آراء فاعتقدوه . وامامهم لو بحثوا اواعاروا النظر الصحيح ماينكث كل مااعتمدوه كيف لا وعند كل فرقة من الماديين غير ماعند غيرها ولكل منها ادلة تنفى آراء من سواها ولا تثبت رايها وقد اتفقوا على ان كثيرا من مزاعمهم لم يتبرهن منها شيء وبان مازعموه نتيجة مقدمات لم يسلّم بها وبان آرائهم فرض بلا اثبات وراى من صور الوهم الى غير ذلك مما لو جمع من كلام المتعقبين والمناقشين لبلغ مجلدات . ولم اعجب من امر عجبي ممن يعتصر منهم جميع قواه ويستفرغ فى الخيالات كل مجهوده ثم لايرى الواقف بعد رايا مهذبا ولا مذهبا مصفى الا انتقاضا وتهافتا وتكلفا وانتحال ماياباه العقل السليم والطبع المستقيم كما قال قائل منهم « كل مانقدر ان نعرف من هذا الوجود هو صور ومظاهر وكل راى عن حقيقة المادة فاسد لايمكن للعقل قبوله » : العاقل يحظر عليه عقله القطع بصحة مافرض قبل تحققه . وتحصيل العلوم اليقينية بالاستقراء صعب جدا واعقل العقلاء عرضة للخطأ فيه وانه ليس بتكرار المشاهدة والامتحان اذ ليس ذلك الاطريقا لادراك

السوابق والتوابع فلا وصول بعده وبعد الفرض الى المطلوب الا بالاستدلال ومن الصعب العزيز المنال والسفر البعيد الوصال فهم الكليات قبل الجزئيات وفقه النهاية بدون علم البدايه ، والوقوف على السرائر ، مع جهل الظواهر ، وتطلاب المراد ، على غير استعداد ، ولا غرو فان استنباط اوليات الامور شرط في ادراك اخرياتها ، وما اجمل قول ابن رشد : اذا تكلم الانسان فى شىء قبل ان يعلم طبيعته كان كلامه اشبه بمن يهذى اه

ومما يجب ان يعلم ان الفرض اذا خالف شيئا من المحققات بطل والا لزم نفى الحق اليقينى بموهوم اومظنون وهو محال واذ وافق قليلا مما يلزم بالاستدلال ولم تتبين موافقته اومخالفته لسائره توقف فيه . واذا وافق كثيرا من ذلك اللازم ولم تتبين الموافقة اوالمخالفة للسائر ظن اورجح بحسب ذلك الموافق ودون ذلك لاما من من الخطأ

اذا تبين هذا ظهر ان مايطيل به الماديون اضغاث احلام وفرض بلا اثبات ورأى من صور اوهام لم يثبت وقوعها فهى مفتقرة للتحقيق ودفع ماعليها من الاعتراض والتزييف ، وكل عاقل اذا اعتزل الهوى يتوقف فى دعوى لا برهان على اثباتها ولا دليل على نفيها فما قولك بفرض لم يثبت ببرهان وتعليلاته بتراء وتفسيراته ناقصة اومبهمة ، وكيف يستجيز العاقل النهم فى الحقائق الولع بالانصاف ان يتشبع من هذه الظنون مايهدم فضائل المعرفة من لبه ، ويودي بحياة صحيح عقده من قلبه ، لاجرم ان المخدوع بذلك يناقض ضميره ويكابر شعوره ويعادى فطرته فحاشا ثم حاشا ان يكون الالحاد نتيجة العلم بل كلما

رسخ العلم رسخت العقيدة على ماسنبينه

قال بعض المحققين « طالب الحقيقة هو الذى لايشتبه فى الحق الا لعارض يصرفه عن الدليل فاذا نبه اليه تنبه ورجع ومن الناس من يسهل تنبيهه وهم اصحاب الافكار المستقله . ومنهم من يتعذر او يتعسر تنبيهه على حسب بعده من التقليد وقربه من استقلال الفكر وفى المشتغلين بالعلم والفلسفة من المقلدين نحو ما فى المشتغلين بعلم الدين فان احدهم يسمع اويقرأ ان فلانا الفيلسوف — الذى يعجب به — قال انه لم يثبت عندى دليل على كذا فيقول هذا المقلد له المفتون ببهرجه لوكان هناك دليل قطعى لما خفى على ذلك الفيلسوف ويكلف نفسه بان تشك اوترتاب اوتنكر وتفند كل دليل » ولقد صدق فانك ترى المقلد لهؤلاء الملحدين الذى اصبح آفة العلم والدين يخبط خبط عشواء ولا يدرى النور من الظلماء ، وقصارى تفيهقه حفظه للآراء على علاتها وتبجحه بالمزاعم على سوآتها ، قال الرازى فى شرح الاشارات فى صنف مقلدة الفلاسفة مامثاله : المقلدة لاينتفعون بشئ من العلوم وان كانوا فى غاية الذكاء لان حبهم المفرط لما هم عليه من المذاهب يعميهم ويصمهم عن الوقوف على الحق ، واخسّ الناس مقلدة هؤلاء الفلاسفة لنظرهم المتدينين بعين الاستخفاف الخ وقال حجة الاسلام الغزالى فى الاقتصاد فى بيان امثالهم : انهم لم يفارقوا العوام فى اصل التقليد بل اضافوا الى تقليد المذهب تقليد الدليل فهم فى نظرهم لايطلبون الحق بل يطلبون طريق الحيلة فى نصرة مااعتقدوه حقا بالسماع والتقليد فان صادفوا فى نظرهم مايؤكد عقائدهم قالوا قد ظفرنا بالدليل واذ

ظهر لهم مايضعف مذهبهم قالوا قد عرضت لنا شبهة فيضعون الاعتقاد المتلقف بالتقليد أصلا وينبزون بالشبهة كل مايخالفه وبالدليل كل مايوافقه وانما الحق ضده وهو ان ينظر الى الدليل ويسمى مقتضاه حقا ونقيضه باطلا اه

وقال الغزالى ايضا فى محك النظر: من الاذهان مافطر فطرة تسارع الى قبول كل مسموع ثم تنصبغ به انصباغا لايمكن البتة انجلاؤه عنه ويكون مثاله كالكاغد الرخو الذى يغوص الحبر فى عمقه فان اردت محوه لزمك افساد الكاغد وخرقه وما دام الكاغد موجودا كان السواد فيه موجودا فهؤلاء ايضا مادامت ادمغتهم موجودة كانت هذه الضلالات فيها موجودة لايقدر البشر على ازالتها اه وبالجملة فهولاء المقلدة لمردة الملحدين كان تعلمهم وتعليمهم شرا على المجتمع الانسانى فقد اصبح تطوحهم في الالحاد خارجا عن الحدو نشأ من امرهم ماكان اشد خطرا من بقائهم فى ظلمات الجهالة بل حبذا الجهل عنده وقد ملك حب التقليد الاعمى عليهم نفوسهم واهوائهم محاكاة لمن زعموا فيه التفوق من غير تحكيم الروية وللتقليد فعل غريب فى الاخلاق والعادات والافكار وسائر الشؤون الانسانية وقلب احوالها فهولاء الذين اشربت قلوبهم تقليد المعطلة استهانوا بفضائل سلفهم واستخفوا بها وودوا لوتجردوا عنها وما يتجردون ان تم لهم ذلك الا من الفضيلة ومذاهبها والانسانية وكمالاتها · وليس الذنب فى ذلك ذنب العلم بل الذنب ذنب التعليم الفاسد لان العلم يوصل الى الحق ولا يثمر الا الفضيلة والصلاح · ولا حيا الله شجرة لاتمد ظلا ولا تثمر ثمرا فهى بالقطع اولى منها بالبقاء حتى لاتكون عقبة كؤودا فى طريق السائرين :

عجيب امر من يدرك النقص من هؤلاء المقلدة ويقف عنده ولا يعلم ان وراءه كمالا محضا يجب ان يسعي له ويضرب بيد العزائم ليصل اليه · ولقد انصف من قال : الخلاف الفلسفيّ اعظم خطرا من الخلاف العلميّ واشد صعوبة وكل الاقوال التى تقوم بشأنه ينقض بعضها بعضا · والعلم الطبيعيّ مبنيّ على الامتحان والتجربة والمشاهدة · والعلماء انفسهم يقولون اليوم انهم اطفال على شاطىء بحر العلم العظيم · وكانه عناهم من قال

اليس عجيبا بان امرأ * لطيف الخصام دقيق الكلم
يموت وما حصلت نفسه * سوى علمه انه ماعلم

واما سبب الاختلاف فناشئ أوّلا عن ان الانسان لايزال جاهلا · وثانيا ان الامور التي لاتقع تحت حواسه لايمكنه ان يحكم فيها حكما واحدا لتشعبها وتناقضها ولذا فلا يجوز ان يسمى العلم الحاضر — يعنى الفلسفيّ — علما حقيقيا لان العلم المطلق يقتضى ان يكون صاحبه قد ادرك كنه كل شيء وأنّى به فلاوظيفة للعلم العصريّ المذكور الا البحث عن ظواهر الاشياء وقشورها ومتستخرجاته مستعدة للتغيير كلما اتسع نطاق العلم وانفرج مدى الاكتشاف كما انقلب كثير من مسائل الهيئةوقواعدها الاولى بما حدث بعدها ظهراً لبطن فاذا كانت هذه حالة العلم الجديد امامهم افليس من الهوس اتخاذه آلة لنفى رواسخ الاصول ورواسى قضايا العقول وموقفه في الاضطراب مارايت أو الافتراء عليه بانه ينقض ذلك ويبطله فى حال كونه على العكس من ذلك فانه يرشد الى اسرار وحكم وبدائع تؤيدالعقدالصحيح وتقرب اليه فى مجال

الحق الصريح « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب »

مطابقة الشرع للعقل
ومؤاخاة العلم للدين

قال حكيم : العقل حجة الله القاطعة البالغه . واصل براهينه الساطعة الدامغه . وبواسطته استعبد عباده الكمله . والى من خصه به ارسل رسله . ثم العقل جوّز ارسال الرسل . ولا يَرُدّ ماتُقوّى به لتوضيح السبل . والنقل لا ياتى بما يناقض العقل . وانما يَرِد بما يزكى قضاه ويصقل مرائى احكامه احسن صقل . ونظير ماحصل للعقل بالشرع من الاستئناس . ماحصل للكتاب من معاضدة السنة والاجماع والقياس . ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول . لاشبه فرعا يوجد ماله من اصول . اذا اقبلت مواكب الاوامر الالهية على لسان الرسول . خضعت جماجم العقول منقادة بزمام الانقياد والقبول . سامعة لما يرد منها . مطيعة لما يصدر عنها . فتارة يظهر للعقل ما للاوامر الشرعية من الحكم . كنار على علم . وتارة يعجز عن الاطلاع على ماتضمنته الاحكام النقلية من الحكم . فاذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل فى حكمته ادراك ، آثره واكده واستمسك به فى تصرّفاته اقوى استمساك . وان لم يكن له فى ادراكه مدخل . نادى بلسان العجز والتسليم سبحان من لا يسئل عما يفعل ،(١)

(١) الذي عليه المحققون ان جميع الاحكام المشروعة اصولها وفروعها كلياتها وجزئياتها معقولة المعنى وان حكمها واسرارها اما مذكورة بالعبارة او الاشارة او بالتنبيه على امثالها—

وقال الامام الغزالي : يستحيل على الوحي الالهي والشرع الحق ان يرد بما ينبو عنه العقل بمعنى ان يكون برهان العقل يدل على استحالته نعم ليس بمحال ان يرد بما يقصر العقل عن ادراكه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه . وليس كل مالا يدركه العقل محالا في نفسه بل لو لم نشاهد قط النار واخراجها فاخبرنا مخبر وقال اصك خشبة بخشبة واستخرج منهما شيئا احمر بمقدار عدسة فتاكل هذه البلدة واهلها حتى لا يبقى منهم شيء من غير ان ينتقل ذلك الى جوفها ومن غير ان يزيد في حجمها بل تاكل نفسها فلا تبقى هي ولا البلد لكنا نقول هذا الشيء ينبو عنه العقل ولا يقبله وهذه صورة النار والحسّ قد صدق ذلك وكذلك قد يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو ماليس بمالوف والمحال مالا

— اومطوية احالة على اقتضاء العقل السليم اوالفطرة اورعاية المصلحة . وان عدم العلم ليس علما بالعدم . وقد حض الغزالي في الاحياء على تعرّف الاسرار في الباب السادس من الجزء الاول في اسباب اليقين وعبارته : ومنها ان يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد مايسمعه من غيره وانما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما امر به وقاله فاذا قلده في تلقي اقواله وافعاله بالقبول فينبغي ان يكون حريصا على فهم اسراره فان المقلد انما يفعل الفعل لان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله . وفعله لابد وان يكون لسرّ فيه فينبغي ان يكون شديد البحث عن اسرار الاعمال والاقوال فانه ان اكتفى بحفظ مايقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما ولذلك كان يقال فلان من اوعية العلم فلا يسمى عالما اذا كان شانه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والاسرار اه وقال في اواخر كتاب اسرار الطهارة : واعلم ان العالم لايكون وارثا للنبي صلى الله عليه وسلم الا اذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لايكون بينه وبين النبي الا درجة واحدة وهي درجة النبوة :

يتصور كونه اه

وقال الامام ابن تيمية : العقل الصريح موافق للرسول دائما لايخالفه فان الميزان مع الكتاب « والله انزل الكتاب بالحق والميزان » لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ماجاء به فياتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه . فالرسل صلوات الله عليهم تخبر بمحيرات العقول لاتخبر بمحالات العقول اه

ولذا اتفق العلماء على انه اذا تعارض العقل والنقل أوّل النقل بالعقل اذ لايمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ولا بانتفاء ذلك لاستلزامه ارتفاع النقيضين لكن بقى ان يقدم النقل على العقل او العقل على النقل والاول باطل لانه ابطال للاصل بالفرع وايضاحه ان النقل لايمكن اثباته الا بالعقل وذلك لان اثبات الصانع ومعرفة النبوة وسائر مايتوقف صحة النقل عليه لايتم الا بطريق العقل فهو اصل للنقل الذى تتوقف صحته عليه فاذا قدم على العقل وحكم بثبوت مقتضاه وحده فقد ابطل الاصل بالفرع ويلزم منه ابطال الفرع ايضا اذ تكون حينئذ صحة النقل متفرعة على حكم العقل الذى يجوز فساده وبطلانه فلا تقطع بصحة النقل فلزم من تصحيح النقل بتقديمه على العقل عدم صحته واذا كان تصحيح الشىء منجرا الى افساده كان مناقضا لنفسه فكان باطلا واذا لم يمكن تقديم النقل على العقل بالدليل السابق فقد تعين تقديم العقل على النقل وهو المطلوب ، هذا خلاصة مافى المواقف للعضد وشرحه وهكذا يقال فى كل ماعارضه العلم الصحيح القطعى

اعنى لزوم تاويله به ، على ان الاطلاق والاستعمال العربى لا ينحصر فى الحقيقة بل المجاز ابلغ واوسع واكثر كما تقرر فى محله (١) وبالجملة فالعلم والدين اليفان متحابان يتفرعان من اصل واحد ولذلك لا يمكن ان يسلب احدهما ما يوجبه الآخر قال بعضهم : ما احرى من عثر على ظاهر اختلاف ان يعزو ذلك الى جهله وضعفه . وقدمنا انه لم يزل كثير من المسائل التى قررها ائمة الفن الطبيعى هم منها فى شك ولما غاب عنهم من اسرارها اكثر بكثير مما اشرفوا عليه

قل للذى يدعى فى العلم معرفة * حفظت شيئا وغابت عنك اشياء

فليس من الحكمة ان لا يصدق الانسان الا بما يراه بنفسه فان عمره لا يكفى لسبر غور فن واحد فما بالك بمجموع المحاولات الانسانية . ولذا كان مما يؤخر فى تقدم الناظر ويرجعه القهقرى ان يضيق دائرة بحثه ويقيد نفسه من غير بحث بعدم تصديق الاشياء التى يزعم انها لا تنطبق عليها النواميس الطبيعية المعروفة الآن فان هذا عار فاضح لا يغتفر لذوى العقول السليمة لان النواميس لم تكتشف كلها بعد ، والعلوم ناقصة لم يوقف لها على حد ، ولذلك ترى اساطين الفلسفة هم اول المعترفين فى كل نوع من فروع العلم بانهم لم ينالوا من العلم الاجزأ محدودا واكثرهم علما اوفرهم تواضعا وكلهم يقرون بان ما حصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء من الكون ليس الا عدما بالنسبة

(١) راجع ماجاء فى المثل السائر في الفصل السابع في الحقيقة والمجاز من ان المجاز اولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة . وما جاء فى المزهر فى النوع الرابع والعشرين من ان اكثر اللغة مع تامله مجاز لا حقيقة . وما جاء في دلائل الاعجاز في فصول تحقيق الفصاحة والبلاغة من كون الكناية والمجاز بانواعه ابلغ من الحقيقة

لما يجهلونه ، وكل من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف والنفس عزوف فما عودتها من شئ جرت عليه والمتحيز الى تقوية قلبه ورد قوته عليه وافهامه موضع رايه وتوقيفه على الامر الذى اشغل صدره احوج منه الى المنازعة ومن زينت له نفسه انه ارتقى ارق الحكمة وادق الفلسفة فهو فى وادى الوهم واسر الحسبان او به غلبة من مرة اوفساد من خلط ولعل تقليد من قبله قد اضله واعماه واصمه لان الحكمة بارزة والاساس محكم والشواهد ناطقة والادلة حاضرة

اضطرار الانسان الى الايمان وآفات الماديين على العمران

اتفقت كلمة الفلاسفة والحكماء العقلاء على انه لا كمال للانسان مطلقا بل ولا وصول له الى التمسك باهداب الآداب واقتباس انوار الاستبصار الا باقتفاء آداب الدين والاخذ بهديه القويم والسلوك على صراطه المستقيم . ذلك لان الانسان وان تثقف عقله بالعلوم المادية والآداب العرفيه لاتزال فيه نزعة من حب الاثرة والميل عن جادة الوسط المطلوب بين الافراط والتفريط في الامور سيما اذا امن اللائم وبعد عن الرقيب وانفسح له مجال التاويل فقد يصل الى الدرك الاسفل من هاوية الفساد وسوء الحال وهو يظنه اقترابا من الكمال المطلوب وقد عميت بصيرته بما غشيها من انواع التساهل ونزعات التاويل الباطل ، وقد تمضى عليه الاحقاب فى التجارب ليختار لنفسه مايجده اوفق بمطلوبه من الكمال وامس بحاجته من الآداب ثم يرى بعد كل هذا الفساد انه لايزال كما كان حيث ابتدا . ولم يستشرف بعد على شىء من معالم الاهتدا فهو كمن اجهد نفسه بالسير حول دائرة يطلب طرفها فلا يرى امامه الا البعد

الغير المتناهي · وماذا عساه يحصل بعد ذلك على شيء من مطلوبه اللهم الا ان يكون زيادة الحيرة وكثرة القلق وربما استحوذ عليه اليأس المهلك فلا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى

واما المسترشد بهدى الدين الآلهي فقد كفي هذا العناء واستراح من تلك الحيرة حيث تكفل له من لا ينطق عن الهوى ببيان طريق الوصول الى السعادة المطلوبة على احسن مايرام ، من كل مافيه كمال انتظام ، فالدين هو الداعي الى سبيل الرشد وطرق السعادة البشرية ليهتدوا بها الى المصالح التي تقوم بها حياتهم · ويقوّم معوجّ عملهم وينتظم في الحياة الدنيا شأنهم · ويظهر جوهر كمالهم الذي يهيئهم للترقي في سلّم المدينة · والتوصل الى السعادة الابدية وقد اخذ دين الاسلام من ذلك باوفر سهم اذ كان اجمع الاديان ، لما تمس اليه حاجة الانسان ، وتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ولذلك سمي دين الفطرة · ثم لم يدع حكمة ولا كمالا ولا ادبا ولا هدى ولا علما ولا مطلبا لقوام البشر الا وقد نبه عليه ، أواشار اليه ، فاستقل بامره ، ولم يبق حاجة لغيره ، وبذلك صار لبنة التمام ، وفاح به مسك الختام ، وكملت النعمة على الأنام

وبالجملة فدين الامة هو مدرسة اخلاقها · ودستور عقولها · ومصباح حياتها · وقانون وجودها · فلا تشرف عواطف الامة وتتهذب اميالها · وتتزكى سرائرها الا بالعقائد الصحيحة ولا يصان نظامها من الخلل والتفرق الا بالدين ولا يندفع خطر الفوضى التي تهوى بالشعوب من الهلكة الى مكان سحيق الا

بالايمان الصحيح فبقدر تمكن العقيدة من نفوس افراد الامة تكون سعادتهم وقوام حياتهم والعكس بالعكس

انظر الى من المّ الالحاد بقلوبهم وتولت الاهواء نفوسهم كيف يكونون أجراء على الرذيلة واجرى فى سبيلها اذ لا زاجر من الايمان يؤنبهم · ولا وازع يمنعهم من اقتراف المنكرات والسعى بالفساد واجتراح السيئات اين هؤلاء ممن اذا تمثلت امامهم الموبقات · وزينت لهم نفوسهم الشهوات ، كان لهم من الفضيلة زجر ومن قوة اليقين وازع لصحة ايمانهم بالله وما جاءه من عنده · وصدق يقينهم بوعيد الله ووعده « افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم »

وقد بين كثير من الاعلام آفات الماديين وما الحقوا بالنوع الانسانى من المضار التى خبث اثرها وساء ذكرها ويكفى ان مقصودهم محو الاديان ووضع اساس الاباحة والاشتراك فى الاموال والابضاع بين الناس عامة (نعوذ بالله) وكيفما وجدوا فى امة افسدوا أخلاقها وايما ذاهب ذهب فى غور مقاصد الآخذين بطريقتهم تجلى له ان لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية اذ لا ريب فى ان الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعىّ ولن يستحكم اساس للتمدن بدون الدين البتة فان الدين يقيد النفوس عن التدهور فى التأثم وعن الاندفاع الى انواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض ويحجز عن الغدر والخيانة وفعل كل خبيثة وعن الوقوع فى كل رذيلة ويحمل العقول على كسب الكمال البشري واعمال الهمة فى كشف الحقائق وتعرّف

اسرار الكون . هذا يسير مما نبه عليه حكماء الامة الخبيرون كما يعلم ذلك من وقف على حكمهم التى اقتطفنا منها هذه الشذرة وبالله التوفيق

رسوخ العقيدة بالرسوخ فى العلم

كلما ازداد المرء علما بالفنون الكونية ورسخت قدمه في العلوم الطبيعية ازداد بموجد الكون معرفة وبالآيات الدالة عليه بصيرة . وكلما قلت معارفه ابتعد عن الخالق بنسبتها . وهكذا كلما راجت اسواق العلوم الحكمية وتبينت اسبابها كان الاعتقاد بوجود الله اشد واقوى وسقطت لدى براهينها شبهات الخراصين(١) وشاهده ماياتى به مهرة المدققين فى العلوم الطبيعية من الادلة القاطعة المنوعة التى تؤيد وجود الله سبحانه . وبالضرورة معرفة العلل والاسباب تؤدى الى الاذعان بموجدها ومسببها وقد جاء فى مقالة لاحد الائمة الحكماء مايؤيد هذا المعنى حيث قال :

كلما ارتقى الانسان فى العلم . ولطف وجدانه بالفهم . ونفذ عقله في اسرار الكون تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء تنتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه ان يلبس لباس المادة لان مالاحد له محال ان تحيط وجوده الحدود وقد كان هذا شان اليونانيين نشئوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وتدق وترث بارتقائهم فى العلوم وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى

(١) ما الطف ماقاله الامام ابن تيمية في هذا المعنى : كلما ظهر الاسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم :

انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم الى التوحيـد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة · وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقـراط وافلاطون وارسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع فى محـو ماغشى نفوسهم من ظلمات الوثنيـة الاولى · ومن قرأ جمهورية افلاطون — التى نقلت الى العربية ايام المامون تحت اسم المدينة الفاضلة — علم كيف يقارع افلاطون مابقى من آثار الوثنيـة من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الامة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف ان تكون عليها · وبعد ان اوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهـم التنزيه الى الجهل بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت اشد صفاء وابهر سطوعا · كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير ان رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبهـا عند الوسائط وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها الى مشهد الوجود الاعلى وتشرق بهـم من هناك على العالم باسره فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة الى تلك القدرة الشامله والعظمة الغالبـة الفاضل والمفضول والفروع والاصول · وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقـول · كل يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدّرتها الحكمة وتمت بها النعمة فاىّ مقام اعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته مافصل منه

فى فهمه وما اجمل فى كليات علمه يحكم عليه بانه مربوب لرب واحد هو رب العالمين وان لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا فى الايجاد ولا فى الامداد بل هو وحده يمكنه بما سنّ له الشرع ان يصل بنفسه الي تلك الحضرة وان يستمد منها المعونة فى كل شوءنه اه

وبالجملة فالعلم الصحيح اعظم باعث للاعتقاد والايمان واكبر سائق اليه وان الانسان كلما ازداد علما ازداد يقينا وجزما

طرف للسلف مع الدهرية

(روى) انه خاصم جماعة من الدهرية اباحنيفة رضى الله عنه فقال لهم ماتقولون فى رجل يقول لكم انى رايت سفينة مشحونة بالاحمال . مملوءة من الاثقال . قداحتوشتها فى لجة البحر امواج متلاطمة . ورياح مختلفة . وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها . ولامتعهد يدفعها . هل يجوز ذلك فى العقل قالوا لاهذا شيء لايقبله العقل فقال ابوحنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف احوالها وتغير اعمالها وسعة اطرافها وتباين اكنافها من غير صانع وحافظ : فقالوا له صدقت وتابوا

(وسئل) ابوحنيفة رحمه الله تعالى مرة اخرى فاستدل بان الوالد يريد الذكر فيكون انثى وبالعكس فدل على الصانع

(وسئل) الشافعى رضى الله عنه ماالدليل على وجود الصانع فقال ورقة الفرصاد (١)

---

(١) بكسر الفاء شجر التوت قال الاسود بن يعفر : —

طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد تا كلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل والشاة فيخرج منها البعر ويا كلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الاشياء كذلك مع ان الطبع واحد قال الرازى فاستحسنوا منه ذلك واسلموا على يده وهم سبعة عشر

(وحكى) عن احمد بن حنبل رضى الله عنه انه تمسك بقلعة حصينة ملساء لافرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل : عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ

(وسئل) مالك رضى الله عنه فاستدل باختلاف الاصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات

(وقال) رجل لجعفر بن محمد رضى الله عنهما ماالدليل على الله تعالى ولا تذكرلى العالم والعرض والجوهر فقال له هل ركبت البحر قال نعم قال هل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق قال نعم قال فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين قال نعم قال هل تتبعت نفسك ان ثمه من ينجيك قال نعم قال فان ذاك هو الله

(وسئل) حكيم فاجاب : لو لم يكن للعالم صانع لكان اضيع ضائع هل رايت مصنوعا بلا صانع . وسقفا مرفوعا بلا رافع . وهل نفى للصانع الا مكابره . وما

ولقد لهوت وللشباب بشاشة * بسلافة مزجت بماء غوادى
يسعى بها ذوتومتين منطق * قنأتْ انامله من الفرصاد

والتومة الحبة من الدر والسلافة اول الخمر والغوادى السحائب تاتى غدوة (تاج)

يجحده الا النفوس الكافره ·

(وسئل) ابن هانىء فقال

تامل في رياض الارض وانظر * الى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات * وازهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بان الله ليس له شريك

(وسئل) اعرابى عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير · وآثار الاقدام على المسير · فسماء ذات ابراج · وارض ذات فجاج · وبحار ذات امواج الا تدل على العليم الخبير

(وسئل) صوفى عن الدليل فقال : اغني الصباح عن المصباح

(وقال) آخر عرفته بالنحلة فى احد طرفيها عسل وفى الآخر سم وفى رواية باحد طرفيها تعسل وبالآخر تلسع والعسل مقلوب اللسع

(ويحكى) ان الفخر الرازى مرّ فى طريق تحف به تلامذته واتباعه فهدأت الاصوات اجلالا له وكان ثمه امراة عابدة فقالت مادعا لهدوء اصوات الناس فقالوا اجلالاً لمن يقيم على وجود الله الف دليل فقالت لهم ويحه لو عرفه لما احتاج الى دليل واحد فبلغه فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب وهم ينظرون من غير حجاب

(وقيل) لطبيب بم عرفت ربك قال باهليلج مجفف اطلق ولعاب ملين امسك

والنوادر فى هذا الباب تفوت الحصر يمرمنها كثير بالمطالع كتب المحاضرات (١)

(١) فن المحاضرات من اهم الفنون التي تتحلي بها الاماثل وتتزين بها الصدور في المحافل—

موازنة بديعية بين دليلين فى هذا الباب

قال الشيخ الحسن بن عبدالله العسكري فى التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم: احسن الالفاظ فى البلاغة مايزيد فى كشف المعنى مع اختصاره باقل مايمكن من العبارة باعذب الالفاظ واخفها على الاسماع · والبلاغة ليست مقصورة على امة دون امة ولا على ملك دون سوقة ولا على لسان دون لسان بل هي مقسومة على اكثر الالسنة فهم فيها مشتركون وهي موجودة فى كلام اليونانية وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ولكنها فى العرب اكثر لكثرة تصرفها فى النظم والنثر والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز (ثم قال الشيخ) وساذكر فى هذا الموضع صدرا من الفصول المختارة من غير اللسان العربي ثم اذكر بعده صدرا من الفصول العربية مما يصلح للمذاكرة ويبعث على النشاط فاذا قرأها قارئ دلت على انفسها فى الايجاز والحذف والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة · فمن ذلك قول سقراط « دل الجسم على صانعه » فجمع بثلاث لفظات خفاف معاني كثيرة جليلة القدر لان الجسم يدل على انه لم يصنع نفسه وان له صانعا حكيما كما يدل البناء على البانى والكتاب على الكاتب · فانظر كم بين هذا وبين مايحكى عن بعض ملوكهم انه سئل ماالذى يدل على معرفة الله ويثبت العلم بالغيب فقال ان لكل ظاهر من صغير او كبير علما فهو يصرفه ويحوطه فمن كان معتبرا بالجليل من ذلك فلينظر الى السماء فيعلم ان لها بارئا

—من تضلع منها رق طبعه ووفر فهمه وزاد لطفه وظرفه وادرك المخرج من كل شئ وقد اهمله — وا اسفاه — الناس ولا غرو ان يهمل الكماليات · من فرّط في الحاجيات:

يجرى فلكها و يدبر امرها ومن اعتبر بالصغير فلينظر الى حبة الخردل فيعلم ان لها مدبرا ينشئها و يركبها و يقدر لها اقواتا من الارض والماء و يوقت لهـا زمانا لهشمها ، وامر النبوة والآيات وما يحدث فى انفس الناس من حيث لا يعلمون ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه واجتماع من شك فى الله وكذب به على انهم لم يحدثوا انفسهم فكل ذلك يهديك الى الله ويدل على انه انشأ الخلق ودبر هذه الامور . (قال الشيخ) وهذا الكلام على طوله قد انتظم اكثر معانيه في قول سقراط « دل الجسم على صانعه »

المطلب الرابع
فى مسائل مهمات من علم النبوات

بيان ان من تمام العناية بالموجودات بعثة الانبياء عليهم الصلوات والتسليمات

قال الشيخ الرئيس : من المعلوم أن نوع الانسان محتاج الى اجتماع وشركة فى ضروريات حاجاته مكفيا في آخر من نوعه يكون ذلك الآخر ايضا مكفيا به ولا تتم الشركة الا بمعاملة ومعاوضة يجريان بينهما يفرّغ كل واحد منهما صاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير ، ولا بد في المعاملة من سنة وعدل ولا بد من سانّ معدّل ولا بد من ان يكون بحيث يخاطب الناس و يلزمهم السنة فلا بد من ان يكون انسانا ، ولا يجوز ان يترك النـاس وآرائهم في ذلك فيختلفون و يرى كل واحد منهم ماله عدلا وما عليـه جورا وظلما فالحاجة الى هذا الانسان في ان يبقى نوع الانسـان أشد من الحاجة الى

انبات الشعر على الاشفار والحاجبين فلا يجوز ان تكون العناية الاولى تقتضى امثال تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هي اثبتها ولا ان يكون مايعلمه فى نظام الامر الضرورى حصوله لتمهيد نظام الخير لايوجد بل كيف يجوز ان لا يوجد وما هو متعلق بوجوده مبنى على وجوده . فلا بد اذن من « نبيّ » هو انسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على انها من عند ربه يدعوهم الى التوحيد ويمنعهم من الشرك ويسن لهم الشرائع والاحكام ويحثهم على مكارم الاخلاق وينهاهم عن التباغض والتحاسد ويرغبهم فى الآخرة وثوابها ثم يكرر عليهم العبادات ليحصل لهم تذكر المعبود بالتكرير واستفادة ملكة الالتفات الى الحق والاعراض عن الباطل اه

وقال الجاحظ : لوترك الناس وقوى عقولهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزوعهم الى مايرديهم ويطغيهم حتى يكونوا هم الذين يحتجرون من كل مافسدهم بقدر قواهم وحتي يقفوا على حد الضار والنافع ويعرفوا فصل مابين الداء والدواء والاغذية والسموم كان قد كلفهم شططا واسلمهم الى عدوهم وشغلهم عن طاعته التي هي اجدى الامور عليهم وانفعها لهم ومن اجلها عدّل التركيب وسوى البُنْية واخرجهم من حد الطفولية والجهل الى البلوغ والاعتدال والصحة وتمام الارادة والآلة ولذلك قال عز ذكره « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم الاّ لصلاحهم ولا يجوز صلاحهم الا بتبقيتهم ، ولولا الامر والنهى ماكان للتبقية وتعديل الفطرة معنى . ولما أن كان لابد للعباد من ان يكونوا

مامورين منهيين بين عدوّ عاص ومطيع ولىّ علمنا ان الناس لايستطيعون مدافعة طبائعهم ومخالفة اهوائهم الا بالزجر الشديد والتوعد بالعقاب الاليم فى الآجل اذ كان شانهم ايثار الادنى وتسويف الاقصى ، واذا كانت عقول الناس لاتبلغ جميع مصالحهم فى دنياهم فهم عن مصالح دينهم اعجز فلما كان ذلك كذلك علمنا انه لابد للناس من امام يعرفهم جميع مصالحهم وذلك هو « الرسول » فالرسول هو الذى يشرع الشريعة ويبتدئ الملة ويقيم الناس على حمل مراشدهم اه . وقال النصير الطوسى فى فوائد البعثة : ضرورة وجود الانبياء لتكميل الاشخاص بالعقائد الحقة والاخلاق الفاضلة والافعال المحمودة النافعة لهم فى عاجلهم وآجلهم وتكميل النوع باجتماعهم على الخير والفضيلة وتساعدهم فى الامور الدينية وسياسة الخارجين عن جادة الخير والصلاح اه ثم ان بديهة الفطرة تتقاضى الناس باتباع الانبياء قال الرازى : اعلم ان اكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وما ذاك الا الانبياء عليهم السلام وبديهة الفطرة شاهدة بانه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل اه

آيات النبوة

قال الامام الراغب الاصفهانى فى الذريعة : لكل نبي آيتان احداهما عقلية يعرفها اولوا البصائر من الصديقين ومن يجرى مجراهم والثانية حسية يدركها اولوا الابصار من العامة فالاولى مالهم من اصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة وانوارهم الساطعة التى لاتخفى على اولى البصائر كما قال الشاعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

لولم يكن فيه آيات مبينة * كانت بداهته تغنيك عن خبره

وذلك ان حق النبي ان يكون من اكرم تربة فى العالم . وحيث يكون عقل اربابها اوفر ولهذا لم يبعث نبي من الاطراف التى تضعف عقول اصحابها . ويجب ان يكون من عنصر كريم من بيت الفضل ولهذا قال تعالى « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران علي العالمين ذرية بعضها من بعض » ونبه بقوله « ذرية بعضها من بعض » انه جعل النبوة فى بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه اشرف . ويجب ان يكون عليهم انوار تروق من رآها واخلاق تملك من ابتلاها كما قال تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم « وانك لعلى خلق عظيم » ويجب ان يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه اذ كان متخصصا بنور العقل ولذلك قال تعالى « وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا » الآية وهذه الاحوال اذا حصلت لايحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ولا يطلبها كما لا تطلب الانبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ولهذا لما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضي الله عنه الاسلام تلقاه بالقبول . واما الآية الثانية فهى المعجزة التي تدركها الحواس من الانبياء وذلك يطلبه احد رجلين اما ناقص عن الفرق بين الكلام الآلهى وبين الكلام البشرى وعن ادراك سائر ماتقدم ذكره فيحتاج الى مايدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك . واما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا » الى قوله « قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » اه

وقال الفارابي : النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الاكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الاصغر فتاتى بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شئ عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ من الكتاب الذي لا يبطل وذوات الملائكة التى هي الرسل فتبلغ مما عند الله الى عامة الخلق اه

وقال ابن رشد فى اثبات الخوارق علما : اذا صح الوجود وامكن ان يتغير جسم عما ليس بجسم ولا قوة فى جسم تغير استحالة فان ما اعطى من ذلك السبب الممكن اذ ليس كل ما كان ممكنا فى طبيعته يقدر الانسان ان يفعله فان الممكن فى حق الانسان معلوم . واكثر الممكنات فى انفسها ممتنعة عليه فيكون تصديق النبي ان ياتي بالخارق وهو ممتنع على الانسان ممكن فى نفسه . وليس يحتاج فى ذلك ان نضع ان الامور الممتنعة فى العقل ممكنة فى حق الانبياء . واذا تاملت المعجزات التى صح وجودها وجدتها من هذا الجنس . وابينها فى ذلك « كتاب الله العزيز » الذى لم يكن كونه خارقا من طريق السماع كانقلاب العصا حية وانما ثبت كونه معجزا بطريق الحس والاعتبار لكل انسان وجد ويوجد الى يوم القيامة وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات (ثم قال) وطريق الخواص فى تصديق الانبياء طريق آخر قد نبه عليه ابو حامد فى غير ما موضع وهو الفعل الصادر عن الصفة التي بها سمى النبي نبيا وهو الاعلام بالغيوب ووضع الشرائع الموافقة للحق والمفيدة من الاعمال ما فيه سعادة جميع الخلق (ثم قال) والذى يقول القدماء فى امر الوحى والرؤيا انما هو عن الله تعالى

بتوسط موجود روحانى ليس بجسم ويسميه الحذاق منهم العقل الفعال ويسمى فى الشريعة ملكا اه

وقال النصير الطوسى : اما انخراق العادة فليس مما ينكره المتكلمون لانه جائز مع القول بالفاعل المختار ولا مما ينكره الحكماء لانهم يقولون بان للنفوس الزكية قوى ربما توءثر فى اكثر الاجسام التى فى عالم الكون والفساد اه

بيان ان العلوم التى تخبر بها الانبياء ماتت بحسرتها قدماء الفلاسفة والحكماء

يظهر لكل من سبر ما للفلاسفة المتقدمين والمتاخرين من التخالف والتظنن والافتراض واجهاد الافكار لقطع المفاوز العلمية ان كلامهم فى الآلهيات والكوائن العلوية كلام قاصر جدا وفيه تخليط كثير وان إجادتهم للمباحث غالبا فى الامور الطبيعية وفى كلياتها : على انهم كثيرا مايصرحون بانهم لم يزالو بعد فى دور الطفولية : واما طرائق الوحى الربانى والفيض الصمدانى فلم تشرق عليهم انواره ، ولم تبرق نحوهم اسراره ، لذا كان الغيب الذى تخبر به الانبياء والكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها وتقسّم الكائنات قسمة صحيحة لايعرفونها البتة فان هذا لايكون مصدره الا الوحى وجليّ ان مالا يشهده الفلاسفة من الموجودات اعظم قدرا وصفة مما يشهدونه فضلا عما لم تصل اليه مداركهم من حقائق الكائنات : وحينئذ فنفيهم لما يخبر به الوحى الذى قام البرهان على صحته لادليل عليه وليس لهم بهذا النفى علم ولاحجة فان عدم العلم ليس علما بالعدم الاان هذا مرض اكثر من عرف نوعا من العلم وامتاز به عمن لايعرفه

فتراه لجهله نافيا لما لايعلمه : وضلال بني آدم فيما جحدوه ونفوه بغير علم اكثر من ضلالهم فيما اثبتوا وصدقوا به قال تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله » ، هذا ماشار له الامام ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص

وقال صاحب رسائل اخوان الصفا فى القسم الرابع من الرسالة السابعة في بيان محاسن الدين الحنيف والموازنة بينه وبين ماللفلاسفة مامثاله : ان الانبياء عليهم السلام كلهم مع تباعد ازمانهم واختلاف لغاتهم وموضوعات شرائعهم وافتنان سننهم هم متفقون على راي واحد ومقصد واحد فيما يشيرون اليه في دعوتهم الامم واما الفلاسفه فليس شريعتهم واحدة ولا دينهم واحد بل ارائهم مختلفة واقاويلهم متناقضة تورث لاتباعهم حيرة لاتنجلي غمرتها فكيف يرضى العاقل عن مذهب الفلاسفة مع اختلافهم ويعرض عن البحث والنظر في كتب الانبياء عليهم السلام مع اتفاقها . واعلم انه انما ذهب على اكثر المتفلسفين والباحثين عن حقائق الاشياء معرفة كتب الانبياء عليهم الصلاة والسلام لتركهم البحث عنها واعراضهم عن النظر فيها ولقصور فهمهم عن تصورها اه

وما اصدق ماقيل : ان ماانى به الانبياء هو الذى مات في حسرة الوقوف عليه الفلاسفة الاول والحكماء . فكم خبطوا في الوجود والموجد خبط عشواء . وكم تاهوا في بيداء الجهالة والحيرة قرونا واجيالا فلما رحمت الامم — والحمد لله — ببعثة الانبياء لاسيما خاتمهم صلوات الله عليهم تمهدت السبل لحل العويصات واستنارت المدرك بطلعة الحق وتبين ان مايدعون اليه من اظهر الاشياء واجلاها وانه فطرة الله التى فطر الناس عليها الا ان غموضه لضعف

العقول وجهلها لعدم هاد لها ومرشد ولذلك لايعدم الوحى على المدا منصفامن اعدائه بل لايزالون يتقربون الى حكمته كلما تنورت مداركهم وتنبهت مشاعرهم

بيان المنة على العالمين ببعثة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه

كل من اوى الى حرم الانصاف ، وتنكب عن شعاب الهوى والاعتساف ، علم حاجة الناس كافة الى رسالة خاتم النبيين ، واكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلى الله عليه وسلم واهل الارض يومئذ — كما قال على رضى الله عنه — ملل متفرقة · واهواء منتشرة · وطوائف متشتتة · بين مشبه لله بخلقه · اوملحد فى اسمه · اومشير الى غيره · ضلال فى حيره · وخابطون فى فتنه · قد استهوتهم الاهواء · واستزلتهم الكبرياء · واستخفتهم الجاهلية الجهلاء · حيارى فى زلزال من الامر · وبلاء من الجهل فهداهم به من الضلاله · وانقذهم بمكانه من الجهاله · اه وقد عظم الله به المن · وبسط بمكانه عليهم الامن · وعرفهم بطلعته اليمن · فجرى مجرى الغيث اذا عمّ وطبق · وقرن الشمس اذا ذرّ واشرق · فسطعت مصابيح الحق وانواره · وطلعت شموس العلم واقماره · وبرز به الحق فى احسن ملابسه · ونجم العرفان فى ازكى مغارسه · وفاض الخير ودواعيه · وحسم الشر وعواديه · واخمد جمر الفتنة · وجمع شمل الالفة · واقام قناة الدين · وبسط باع العدل واطال عنان الاحسان · لم يدع للباطل علما الا وضعه · ولا ركنا الا ضعضعه · اجتث اصول الضلالة وفروعها · وحصد نجومها وزروعها · وابطل الباطل واحق الحق · واحل النقمة بمن

فارق العصا وشق · ما لجأ اليه لاجئ الا سعد جده وورى زنده · ونفذ حده ولم يفارق الاعتصام بحبله مفارق الا حالفه الخسران · وعانقه الخذلان · ورصدت له المنون · وطحنته الحرب الطحون · من اخلص له اضمارا واظهارا فاز بنجاته · ومن الحد فى موالاته اعلانا واسرارا خسر فى محياه ومماته · ولا غرو فهو صلى الله عليه وسلم خيرة الله وخاصته · واثرته وخالصته · اخلص الاخلصين · واخص الاخصين · ورحمة للدانين والقاصين · صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الاكرمين

بيان كون القرآن اعظم خوارق الانبياء

اول معجز دعا به النبي صلى الله عليه وسلم الي نبوته · وصدع فيه برسالته · هو القرآن الكريم · والذكر الحكيم · فقهرت شواهده من باين وعاند · وحجت دلائله من ناكر وجاحد · وقد بين غير واحد من الائمة (١) سر كون القرآن اعظم آيات النبيين اعجازا · واوضحها طريقة وامتيازا · فمن ذلك ماقاله ابو القاسم الراغب الاصفهانى فى آخر فصل من مقدمة تفسيره فى فصل اعجاز القرآن : المعجزات التى اتى بها الانبياء عليهم السلام ضربان حسى وعقلى فالحسى مايدرك بالبصر كطوفان نوح وعصا موسى عليهما السلام · والعقلي مايدرك بالبصيرة كالاخبار عن الغيب تعريضا وتصريحا والاتيان بحقائق

---

(١) راجع فصول الجاحظ وما كتبه الامام ابن حزم فى الفصل والماوردى في اعلام والقاضى عياض فى الشفا وتقى الدين ابن تيمية فى آخر الجواب الصحيح وهو اوسعها واجمعها وغيرهم ولسهولة الوقوف عليها لم نطل الكلام بايرادها

العلوم التى حصلت من غير تعلم ·

فاما الحسى فيشترك فى ادراكه العامة والخاصة وهو اوقع عند طبقات العامة وآخذ بمجامع قلوبهم واسرع لادراكهم الا انه لا يكاد يفرق بين ما يكون معجزة فى الحقيقة وبين ما يكون كهانة اوشعبذة اوسحرا اوسببا اتفاقيا اومواطأة اواحتيالا هندسيا اوتمويها اوافتعالا إلا ذو سعة فى العلوم التى يعرف بها هذه الاشياء واما العقلى فيختص بادراكه كملة الخواص من ذوى العقول الراجحة والافهام الثاقبة والروية المتناهية الذين يغنيهم ادراك الحق ·

وجعل تعالى اكثر معجزات بنى اسرائيل حسيا لبلادتهم وقلة بصيرتهم · واكثر معجزات هذه الامة عقليا لذكائهم وكمال افهامهم التي صاروا بها كالانبياء ولذلك قال عليه السلام « كادت امتى ان تكون انبياء » (١) ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ وكانت العقليات باقية غير متبدلة جعل اكثر معجزاتها مثلها باقية

وما اتى به النبى صلى الله عليه وسلم من معجزاته الحسية كتسبيح الحصا في يده ومكالمة الذئب له ومجىء الشجرة اليه فقد حواها وحصاها اصحاب الحديث واما العقليات فمن تفكر فيما اورده عليه السلام من الحكم التي قصرت عن بعضها افهام حكماء الامم باوجز عبارة اطلع على اشياء عجيبة

(١) لينظر من خرجه فانى لم اظفر له فيما بين يدي من الاصول باصل نعم روى « علماء امتى كانبياء بني اسرائيل » و « اقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد » و « الشيخ فى قومه كالنبى فى امته » وقد تكلم فيها من صنف فى الموضوعات

ومما خصه الله به المعجزات «القرآن» وهو آية حسية عقلية · صامتة ناطقة · باقية على الدهر · مبثوثة في الارض · ولذلك قال تعالى «وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين · اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» ودعاهم ليلا ونهارا مع كونهم اولي بسطة في البيان الى المعارضة بنحو قوله «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله» وفي موضع آخر «وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» وقال «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» فجعل عجزهم علما للرسالة فلو ماقدروا ماقصروا وبذلوا أرواحهم في اطفاء نوره وتوهين امره فلما رايناهم تارة يقولون «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» وتارة يقولون «لو نشاء لقلنا مثل هذا» وتارة يصفونه بانه اساطير الأولين · وتارة يقولون «لولا انزل عليه القرآن جملة واحدة» وتارة يقولون «ائت بقرآن غير هذا أو بدله» كل ذلك عجزاً عن الاتيان بمثله علمنا قصورهم عنه · ومحال ان يقال انه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزة لنقل مادقّ وجلّ

وهذه الجملة المذكورة وان كانت دالة على كون القرآن معجزا فليس بمقنع الا بتبيين فصلين (احدهما) أن نبين ماالذى هو معجز هو اللفظ ام المعنى ام النظم ام ثلثتها فان كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثه (والثاني) ان المعجز هو ماكان نوعه غير داخل تحت الامكان كاحياء الموتى وابداع الاجسام · فاما ماكان نوعه مقدورا فمحله محل الافضل وما كان من باب الافضل في النوع

فانه لايحسم نسبة مادونه اليه وان تباعدت النسبة حتى صـار جزأ من الف فان النجار الحاذق وان لم يبلغ شأوه لايكون معجزا إذا استطاع غيره جنس فعله، فنقول وبالله التوفيق

ان الاعجاز قد ذكر فى القرآن على وجهين (احدهما) اعجاز متعلق بفصاحته (والثانى) بصرف الناس عن معارضته

فاما الاعجاز المتعلق بالفصاحة فليس يتعلق ذلك بعنصره — الذى هو اللفظ والمعنى — وذاك ان الفاظه الفاظهم ولذلك قال تعالى « قرآنا عربيـا » وقال « الم ذلك الكتاب » تنبيها ان هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام — ولا يتعلق ايضا بمعانيه فان كثيرا منها موجود فى كتب المتقدمين ولذلك قال تعالى « وانه لفى زبر الاولين » وقال « اولم يأتهم بينة ما فى الصحف الاولى » وما هو معجز فيه من جهة المعنى كالاخبار بالغيب فاعجازه ليس يرجع الى القرآن بما هو قرآن بل هو لكونه مخبرًا بالغيب وذلك سواء كونه بهذا النظم او بغيره وسواء كان موردًا بالفارسية او بالعربية او بلغة اخرى او باشـارة او بعبارة . فاذًا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا كما انه بالنظم المخصوص صار الشعر شعرا والخطبة خطبة . فالنظم صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمـه لا بعنصره كالخاتم والقرط والخلخال اختلف احكامها واسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة . فاذا ثبت هذا ثبت ان الاعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص

وبيان كونه معجزا هو ان نبين نظم الكلام ثم نبين ان هذا النظم مخالف لنظم سائره فنقول

لتاليف الكلام خمس مراتب (الاولى) نظمُ وضمُ حروفِ التهجي بعضها الى بعض حتى يتركب منها الكلمات الثلاث . الاسم والفعل والحرف (والثانية) ان يوءلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة وهو النوع الذى يتداوله الناس جميعا فى مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له المنثور من الكلام (والثالثة) ان يضم بعض ذلك الى بعض ضما له مبادئ ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له المنظوم (والرابعة) ان يجعل فى اواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع (والخامسة) ان يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ويقال له الشعر وقد انتهى . وبالحق صار كذلك فان الكلام اما منثور فقط اومع النثر نظم . اومع النظم سجع . اومع السجع وزن ، والمنظوم اما محاورة ويقال لها الخطابة — واما مكاتبة ويقال لها الرسالة . وانواع الكلام لاتخرج عن هذه الجملة . والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظمٍ ليس هو نظمَ شيء منها بدلالة انه لايصح ان يقال القرآن رسالة اوخطابة اوشعر كما يصح ان يقال هو كلام ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم . ولهذا قال تعالى « وانه لكتاب عزيز لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » تنبيها على ان تاليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن ان يزاد فيه كحال الكتب الأخر

(فان قيل) ولم لم يبلغ بنظم القرآن الوزن الذى هو الشعر وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة اعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون اذ كل موزون منظوم

وليس كل منظوم موزونا (قيل) انما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية فى الشعر منافية للحكمة الالهية وهو ان القرآن مقر الصدق، ومعدن الحق، وقصوى الشاعر تصوير الباطل فى صورة الحق وتجاوز الحد فى المدح والذم دون استعمال الحق فى تحري الصدق حتى ان الشاعر لايقول الصدق ولا يتحرى الحق الا بالعرض ولهذا يقال (من كانت قوته الخيالية فيه اكثر . كان على قرض الشعر اقدر . ومن كانت قوته العاقلة فيه اكثر . كان فى قرضه اقصر) ولاجل كون الشعر مقر الكذب نزه الله نبيه عليه السلام عنه لما كان مرشحا لصدق المقال وواسطة بين الله و بين العباد فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » فنفى انبغاءه له وقال « وما هو بقول شاعر » اي ليس بقول كاذب ولم يعن ان ذلك ليس بشعر فان وزن الشعر اظهر من ان يشتبه عليهم حتى يحتاج الى ان ينفى عنه . ولاجل شهرة الشعر بالكذب سمى اصحاب البراهين الاقيسة المؤدية فى اكثر الامر الى البطلان والكذب شعرية . وما وقع في القرآن من الالفاظ متزنة فذلك بحسب مايقع فى الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه (واما الاعجاز) المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر ايضا اذا اعتبر وذلك انه مامن صناعة ولا فعلة من الافعال محمودة كانت اومذمومة الا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات الهية بدلالة ان الواحد فالواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب و يتعاطاها بانشراح صدر وقد تضمن ذلك قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقول النبي صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فلما

رَوِيَ اهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة السنتهم وقد دعا الله جماعتهم الى معارضة القرآن وعجّزهم عن الاتيان بمثله ولم تهتز غرائزهم بتة للتصدى لمعارضته لم يخف على ذى لب ان صارفا آلهيا صرفهم عن ذلك واى اعجاز أعظم من ان يكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر ان يعارضوه ومجبرة في الباطن عن ذلك وما اليقهم بانشاد ماقال ابوتمام

فان يك اهملنا فاضعف بسعينا * وان يك اجبرنا ففيم نتعتع

اه كلام الراغب

وقال القاضي ابن رشد : ان خارق النبي صلى الله عليه وسلم الذى تحدى به الناس وجعله دليلا على صدقه فيما ادعى من رسالته هو الكتاب العزيز (فان قيل) من اين يظهر ان الكتاب العزيز معجز وانه يدل على كونه رسولا (قلنا) كون القرآن دلالة على صدق نبوته عليه السلام ينبني على اصلين قد نبه عليهما الكتاب . احدهما ان الصنف الذين يسمون رسلا وانبياء معلوم وجودهم بنفسه وان هذا الصنف من الناس هم الذين يضعون الشرائع للناس بوحى من الله لا بتعلم انساني . وثانيهما ان كل من وجد عنه هذا الفعل الذي هو وضع الشرائع بوحى من الله تعالى فهو نبي" وهذا الاصل ايضا غير مشكوك فيه في الفطر الانسانية فانه كما ان من المعلوم بنفسه ان فعل الطب هو الابراء وان من وجد منه الابراء فهو طبيب كذلك ايضا من المعلوم بنفسه ان فعل الانبياء عليهم السلام هو وضع الشرائع بوحي من الله وان من وجد منه هذا الفعل فهو نبي" (فان قيل) من اين يعلم الاصل الاول وهو ان ههنا صنفا من الناس يضعون

الشرائع بوحي من الله وكذلك من اين يعلم الاصل الثاني وهو ان ماتضمن القرآن من الاعتقادات والاعمال بوحي من الله (قيل) اما الاصل الاول فيعلم بما ينذرون به من وجود الاشياء التي لم توجد بعد فتخرج الى الوجود على الصفة التي انذروا بها وفي الوقت الذي انذروا وبما يامرون به من الافعال وينهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والاعمال التي تدرك فتعلم · وذلك ان الخارق المعتاد اذا كان خارقا في المعرفة بوضع الشرائع دل على ان وضعها لم يكن بتعلم وانما كان بوحي من الله وهو المسمى نبوة · واما الخارق الذي هو ليس في نفس وضع الشرائع مثل انفلاق البحر وغير ذلك فليس يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة وانما يدل اذا اقترنت الى الدلالة الاولى واما اذا اتت مفردة فليس تدل على ذلك ولذلك ليس تدل في الاولياء على هذا المعنى ان وجدت لهم لان الصنف الآخر من الخارق وهو الدال دلالة قطعية ليس هو موجوداً لهم فعلى هذا ينبغي ان تفهم الامر في دلالة المعجز على الانبياء — اعني ان المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة، واما المعجزة في غير ذلك من الافعال فشاهد لها ومقوّ ·

(فان قيل) فمن اين يدل القرآن على انه خارق ومعجز من نوع الخارق الذي يدل دلالة قطعية على صفة النبوة — اعني الخارق الذي في فعل النبوة الذي يدل عليها كما يدل الابراء على صفة الطب الذي هو فعل الطب (قلنا) يوقف على ذلك من وجوه

احدها ان يعلم ان الشرائع التي تضمنها من العلم والعمل ليست مما يمكن ان

يكتسب بتعلم بل بوحى

والثانى ماتضمن من الاعلام بالغيوب

والثالث من نظمه الذى هو خارج عن النظم الذى يكون بفكر وروية اعنى انه يعلم انه من غير جنس ماللبلغاء المتكلمين بلسان العرب سواء من تكلم منهم بذلك بتعلم وصناعة وهم الذين ليسوا باعراب اومن تكلم بذلك من قبل المنشأ عليه وهم العرب الاول . والمعتمد فى ذلك على الوجه الاول

(فان قيل) فمن اين يعرف ان الشرائع التى فيها العلمية والعملية هي بوحي من الله تعالى حتي استحق بذلك ان يقال فيه انه كلام الله (قلنا) يوقف على هذا من طرق احداها ان معرفة وضع الشرائع ليس تنال الا بعد المعرفة بالله وبالسعادة الانسانية والشقاء الانسانى وبالامور التي يتوصل بها الى السعادة وهي الخيرات والحسنات وبالامور التى تعوق عن السعادة وتورث الشقاء الاخروى وهى الشرور والسيئات ومعرفة السعادة الانسانية والشقاء الانسانى تستدعى معرفة ماهي النفس وما جوهرها وهل لها سعادة اخروية وشقاء اخروى ام لا وان كان فما مقدار هذه السعادة وهذا الشقاء . وايضا فبأى مقدار تكون الحسنات سببا للسعادة فانه كما ان الاغذية ليست تكون سببا للصحة باى مقدار استعملت وفى اى وقت استعملت بل بمقدار مخصوص ووقت مخصوص كذلك الامر فى الحسنات والسيئات ولذلك نجد هذه كلها محدودة فى الشرائع وهذا كله اومعظمه ليس يتبين الا بوحى اويكون تبيينه بالوحى أفضل

وايضا فان معرفة الله على التمام انما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات ثم

يحتاج الى هذا كله واضع الشرائع ان يعرف مقدار مايكون به الجمهور سعيدا من هذه المعرفة وایّ الطرق هي الطرق التي ينبغي ان تسلك بهم فى هذه المعارف وهذا كله بل اكثره ليس يدرك بتعلم ولا بصناعة ولا حكمة . وقد يعرف ذلك على اليقين من زاول العلوم وبخاصةٍ وضعَ الشرائع وتقريرَ القوانين والاعلام باحوال المعاد . ولما وجدت هذه كلها فى الكتاب العزيز على مايمكن علم ان ذلك بوحى من عند الله وانه كلامه القاه على لسان نبيه ولذلك قال تعالى منبها على هذا « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله » الآية

ويتأكد هذا المعني بل يصير الي حد القطع واليقين التام اذا علم انه صلى الله عليه وسلم كان اميا نشأ في امة امية عامية بدوية لم يمارسوا العلوم قط ولا نسب اليهم علم ولا تداولوا الفحص عن الموجودات على ماجرت به عادة اليونانيين وغيرهم من الامم الذين كملت الحكمة فيهم في الاحقاب الطويلة والى هذا الاشارة بقوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذًا لارتاب المبطلون » ولذلك اتى الله تعالى على عباده بوجود هذه الصفة في رسوله في غير ما آية من كتابه فقال تعالى « هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم » الآية وقال « الذين يتبعون الرسول النبى الامى » الآية وقد يوقف على هذا المعني بطريق آخر وهو مقايسة هذه الشريعة بسائر الشرائع وذلك انه ان كان فعل الانبياء الذين هم به انبياء انما هو وضع الشرائع بوحى من الله تعالى على ماتقرر الامر في ذلك من الجميع اعني القائلين بالشرائع بوجود الانبياء

صلوات الله عليهم فانه اذا تؤمل ما تضمنته سائر الكتب والشرائع وجدت تفضل فى هذا المعنى سائر الشرائع بمقدار غير متناه ،

وبالجملة فان كانت ههنا كتب واردة فى شرائع استاهلت ان يقال انها كلام الله لغرابتها وخروجها عن جنس كلام البشر ومفارقته بما تضمنت من العلم والعمل فظاهر ان الكتاب العزيز الذى هو القرآن هو اولى بذلك واحرى اضعافا مضاعفة . ولو ذهبنا لنبين فضل شريعة على شريعة وفضل الشريعة المشروعة لنا معشر المسلمين على سائر الشرائع وفضل التعليم الموضوع لنا فى معرفة الله ومعرفة المعاد ومعرفة مابينهما لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة مع اعترافنا بالقصور عن استيفاء ذلك ولهذا قيل فى هذه الشريعة انها خاتمة الشرائع

ولعموم التعليم الذى فى الكتاب العزيز وعموم الشرائع التي فيها اعني كونها مستعدة للجميع كانت هذه الشريعة عامة لجميع الناس ولذلك قال تعالى « قل ياايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » وقال عليه السلام : بعثت الى الاحمر والاسود : فانه يشبه ان يكون الأمر فى الشرائع كالامر فى الاغذية وذلك انه كما ان من الاغذية اغذية تلائم الناس اوالاكثر كذلك الامر فى الشرائع فلهذا المعنى كانت الشرائع التي قبل شريعتنا هذه انما خصّ بها قوم دون قوم وكانت شريعتنا هذه عامة لجميع الناس

واذا كان هذا كله كما وصفنا فقد تبين لك ان دلالة القرآن على نبوته صلى الله عليه وسلم ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية ولا احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص فان تلك وان كانت افعالا لا تظهر الا على ايدي الانبياء

وهى مقنعة عند الجمهور فليست تدل دلالة قطعية اذا انفردت اذ كانت ليست
فعلا من افعال الصفة التى بها سمى النبيّ نبيا . واما القرآن فدلالته على هذه
الصفة هي مثل دلالة الابراء على الطب ومثال ذلك لو ان شخصين ادعيا
الطب فقال احدهما الدليل على انى طبيب انى اسير على الماء وقال الآخر
الدليل على انى طبيب اني ابرئ المرضى فمشى ذلك على الماء وابرأ هذا المرضى
لكان تصديقنا بوجود الطب الذى ابرأ المرضى ببرهان وتصديقنا بوجود الطب
للذى مشى على الماء مقنعا وكذلك وجه الارتباط الذى بين المعجز الذى ليس
هو من افعال الصفة والصفة التى استحق بها النبيّ ان يكون نبيا التي هي الوحي
اه كلام الامام ابن رشد ملخصا

وقال الامام تقى الدين ابن تيمية فى الجواب الصحيح : ولما كان محمد صلى الله
عليه وسلم رسولا الى جميع الثقلين جنهم وانسهم عربهم وعجمهم وهو خاتم
الانبياء لانبى بعده كان من نعمة الله على عباده ومن تمام حجته على خلقه ان
تكون آيات نبوته وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذى بعث اليهم وقد
يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ماليس عند هؤلاء وكان
يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والافقية مايبين به ان القرآن حق كما قال
تعالى « قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق
بعيد سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف
بربك انه على كل شىء شهيد » وشهادته وحده كافية بدون ماينتظر من
الآيات كما قال تعالى « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب »

وشهادته للقرآن ولمحمد تكون باقواله التي انزلها قبل ذلك على انبيائه كما قال تعالى عن اهل الكتاب « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » وتكون باقواله التى انزلها على محمد صلى الله عليه وسلم فان القرآن نفسه آية بينة ومعجزة قاهرة . وتكون بافعاله وهو مايحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فانه صدقهم بها فيما اخبروا به عنه وشهد لهم بانهم صادقون . والقرآن نفسه هو قول الله وفيه شهادة الله بما اخبر به الرسول . وانزاله على محمد صلى الله عليه وسلم واتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله اذ كان البشر لايقدرون على مثله كما قال تعالى « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ومحمد صلى الله عليه وسلم اخبر بهذا فى اول امره اذ كانت هذه الآية فى سورة « سبحان » وهي مكية صدرها بذكر الاسراء الذى كان بمكة باتفاق الناس . وقد اخبر خبرا واكده بالقسم عن جميع الثقلين انسهم وجنهم انهم اذا اجتمعوا على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثله بل يعجزون عن ذلك . وهذا فيه آيات لنبوته . منها اقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الانس والجن الى يوم القيامة بانهم لايفعلون هذا بل يعجزون عنه . وهذا لايقدم عليه من يطلب من الناس ان يصدقوه الا وهو واثق بان الامر كذلك اذ لو كان عنده شك فى ذلك لجوز ان يظهر كذبه فى هذا الخبر فيفسد عليه ماقصده وهذا لايقدم عليه عاقل مع اتفاق الامم — المؤمن بمحمد والكافر به — على كمال عقله ومعرفته وخبرته اذ ساس العالم سياسة لم يسسهم احد بمثلها ثم جعله هذا فى

القرآن المتلوّ المحفوظ الى يوم القيامة الذى يقرأ به فى الصلوات ويسمعه العام والخاص والوليّ والعدوّ دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر . ولا يتصور ان بشرا يجزم بهذا الخبر الا ان يعلم ان هذا مما يعجز عنه الخلق اذ علمُ العالِم بعجز جميع الانس والجن الى يوم القيامة هو من اعظم دلائل كونه معجزا وكونه آية على نبوته فهذا من دلائل نبوته فى اول الامر عند من سمع هذا الكلام وعلم انه من القرآن الذى امرَ بابلاغه الي جميع الخلق وهو وحده كافٍ فى العلم بان القرآن معجز . دع ماسوى ذلك من الدلائل الكثيرة على انه معجز مثل عجز جميع الامم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته . وعدمُ الفعل مع كمال الداعى يستلزم عدم القدرة فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة وانتفت المعارضة علم عجز جميع الامم عن معارضته وهذا برهان بيّن يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بان القرآن معجز فذلك آية مستقلة لنبوته وهي آية ظاهرة باقية الى آخر الدهر معلومة لكل احد وهى من اعظم الآيات فان كونه معجزا يعلم بادلة متعددة والاعجاز فيه من وجوه متعددة فتنوعت دلائل اعجازه وتنوعت وجوه اعجازه وكل وجه من الوجوه فهو دليل على اعجازه وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل ولهذا قال تعالى « وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الايات عند الله وانما انا نذير مبين . اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » فهو كافٍ فى الدعوة والبيان . وهو كاف فى الحجج والبرهان اه

وقال بعض الائمة : للاسلام فى الحقيقة دعوتان دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم

فاما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ماحواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى ان للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الاكوان

واما الدعوة الثانية فهى التى يحتج بها الاسلام بخارق العادة وما ادراك ماهو الخارق للعادة الذى يعتمد عليه الاسلام . هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره . ولم ينقطع اثره . هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الاخبار فهو فضل من التأكيد . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو انه جاء على لسان امىّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم . وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوما للمعوج . كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الامم . منقذا لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا اشرفوا عليه ، وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه بشىء من مثله فعجزوا ولجأوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى ان الجأوهم الى الدفاع عن حقهم . وكان من امرهم ماكان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها باضوائها .

وتنشر انوارها فى أجوائها : اه

قال الامام الماوردى : وقد اظهر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم من آعلام نبوته بعد ثبوتها بمعجز القرآن . واستغنائه عما سواه من البرهان . ماجعله زيادة استبصار يحج بها من قلت فطنته . ويذعن لها من ضعفت بصيرته . ليكون اعجاز القرآن مدركا بالخواطر الثاقبة تفكرا واستدلالا . واعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطا واستظهارا . فيكون البليد مقهورا بوهمه وعيانه . واللبيب محجوجا بفهمه وبيانه . لان لكل فريق من الناس طريقا هي عليهم اقرب . ولهم اجذب . فكان ماجمع انقيادَ الفرق اوضح سبيلا . واعم دليلا :

برهان ضرورى لنبوة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

قال الامام تقي الدين ابن تيمية : كل من دعا الخلق الى متابعته وطاعته على سبيل الحتم والايجاب بان يصدقوه فيما اخبر ويطيعوه فيما اوجبه وامر به باطنا وظاهرا ولا يسوّغ مخالفته بوجه من الوجوه لافى الباطن ولا فى الظاهر فاما ان يكون عالما بكل مايخبر به من الغيوب جازما بصدق نفسه جزما لايحتمل النقيض عالما بان مايامر به هو عدل لايجوز لمن امره ان يعصيه بوجه من الوجوه . واما ان لايكون جازما بذلك . فان كان جازما بذلك كان هذا هو « النبي المعصوم » الذى لايخبر الا بحق وصدق ولا يامر الا بعدل بخلاف القسم الذى يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه فان هذا قد يامر باشياء يجوز ان تكون المصلحة والعدل فى خلافها ويخبر باشياء باجتهاده يجوز ان تكون

المصلحة والعدل فى خلافها ويخبر باشياء باجتهاده يجوز ان يكون الامر فيها بخلاف ذلك ولا بد ان يغلط فى بعض مايخبر به من العلميات وما يامر به من العلميات فانه لامعصوم الا الانبياء ولهذا لم يجب الايمان بكل مايقوله بشر الا ان يكون نبيا

واذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر ان محمدا ذكر انه رسول كابراهيم وموسى وموسى وعيسى بل اخبر انه سيد ولد آدم وان آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة . وانه لما اسرى به وعرج الى ربه علا على الانبياء كلهم على ابراهيم وموسي وهرون وعيسى ويحيي وغيرهم . واخبر انه لانبي بعده . وان امته هم الآخرون فى الخلق السابقون يوم القيامة . وان الكتاب الذى انزل اليه احسن الحديث وانه مهيمن على مابين يديه من الكتب مع تصديقه لذلك وقد علم بالاضطرار من سيرته انه كان يتحرى الصدق والعدل وانه ماجرت عليه كذبة قط وعلم انه كان جازما بما يخبر به مع كثرة مايخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة وانه وحده قام يدعو الناس الى ماجاء به ومن عادة طالب الملك والرياسة ولو كان عادلا ان يستعين بمن يعينه كاقار به واصدقائه ونحوهم وان يبذل للنفوس من العاجل مايرغبها به كالمال والرياسة ويرهب من خالفه ومحمد صلى الله عليه وسلم دعا الناس وحده وهو بمكة فآمن به المهاجرون ثم آمن به الانصار بالمدينة ثم آمن به اهل البحرين ولم يعط احدا منهم درهما ولا كان معه مايخيفهم به لا سيف ولا غيره بل اقام بمكة بضع عشرة سنة وهو والمؤمنون به مستضعفون لم يكن له مال يبذله لهم ولا سيف يخيفهم به

(ثم قال تقي الدين) والاخبار المأثورة في اصناف آياته وبراهينه كثيرة جدا وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة وعلى انواع من الاخبار بالغيوب المستقبلة مفصلة كأنما رآها بعينه لم يأت منها خبر الا كما اخبر به وهذا امر لم يكن قط الا لنبي . اما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء فيكذبون كثيرا ويخبرون بجمل غير مفصلة . واما اهل الولاية والصلاح فاعظمهم كشفا يخبر من ذلك بامور قليلة لا تبلغ عشر معشار ما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بها مفصلة كخبره

وفي القرآن من الاخبار بالمستقبلات شيء كثير كقوله تعالى « الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد » فغلبت الروم فارس في بضع سنين وكقوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا » وكان كما اخبر وقال تعالى « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » وكان كما اخبر ووعد وقال تعالى « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » وكان كما اخبر وقال تعالى « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » الى قوله « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » فاخبر انهم لن يفعلوا وكان كما اخبر . واخبر انه قال للمسيح « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا »

يعنى اليهود « الى يوم القيامة » وكان كما اخبر . وانزل فى مكة « ام يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر » فكان كما اخبر هزم الجمع وولوا الدبر . وقال « ولوقاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا » فكان كما اخبر . وقال « ومن الذين قالوا » الآية فكان كما اخبر . وقال عن اليهود « كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله » فكان كما اخبر وقال « لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لاينصرون » وكان كذلك فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية الا انتصر عليهم المسلمون وما زال الاسلام فى عز وظهور حتى ظهر على اهل المشرق والمغرب . وقال تعالى خطابا لليهود « قل ياايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم والله اعلم بالظالمين » فاخبر عن اليهود انهم لن يتمنوا الموت ابدا وكان كما اخبر وقال عن الوليد « ساصليه سقر » وعن ابى لهب « سيصلى نارا ذات لهب » فكان كما اخبر مات الوليد كافرا ومات ابولهب كافرا وقال فى سورة الفتح « وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين » وقال « لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » وقال « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولى باس شديد تقاتلونهم او يسلمون » وهذا كله وقع كما اخبر فحصلت لهم الغنائم الكثيرة ودخلوا المسجد الحرام آمنين ودعيت الاعراب الى قتال الروم والفرس يقاتلونهم او يسلمون وقال تعالى

« اذا جاء نصرالله والفتح ورايت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » فدخل الناس فى دين الله افواجا بعد الفتح فما مات النبي صلى الله وسلم وفى بلاد العرب موضع لم يدخله الاسلام انتهى وانظر بقية كلامه فى اخباره صلى الله عليه وسلم عن الغيوب المروية في الاحاديث الصحيحة فى الجواب الصحيح

برهان آخر ضرورى أيضاً لنبوته صلوات الله عليه

قال الامام ابن حزم فى الفِصَل : وبرهان ضرورى لمن تدبره حسيٌّ لامحيد عنه وهو ان النبيّ صلى الله عليه وسلم اتى الى قوم لقاح (١) لايطيعون لاحد ولا ينقادون لرئيس نشأ على هذا اباوءهم واجدادهم واسلافهم منذ الوف من الاعوام قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم والانفة فى طباعهم وهم اعداد عظيمة ملئوا جزيرة العرب وهي نحو شهرين فى شهرين قدصارت طباعهم طباع السباع وهم الوف الالوف قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض ابدا فدعاهم بلا مال ولا اتباع — بل خذله قومه — الى ان ينحطوا من ذلك العز الى غرم الزكاة . ومن الحرية والظلم الى جرى الاحكام عليهم . ومن طول الايدى بقتل من احبوا واخذ مال من احبوا الى القصاص من النفس ومن قطع الاعضاء ومن اللطمة مِنْ اَجَلِّ من فيهم لاقل علج (٢) غريب دخل فيهم . والى اسقاط الانفة والفخر الى ضرب الظهور بالسياط او بالنعال ان شربوا خمرا اوقذفوا

---

(١) اللقاح كسحاب الحي الذين لايدينون للجبابرة كما ذكره (٢) العلج هو الكافر من العجم

انسانا . والى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة الى ان يموتوا ان زنوا فانقادا كثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف مامنهم احد اخذ بغلبة الا مكة وخيبر فقط وما غزا قط غزوة يقاتل فيها الا تسع غزوات بعضها عليه و بعضها له . فصح ضرورة انهم انما آمنوا به طوعا لا كرها . وتبدلت طبائعهم بقدرة الله تعالى من الظلم الى العدل . ومن الجهل الى العلم . ومن الفسق والقسوة الى العدل العظيم الذى لم يبلغه اكابر الفلاسفة . واسقطوا كلهم اولهم عن آخرهم طلب الثار، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وابيه واعدى الناس له صحبة الاخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ولا رياسة ينفردون بها دون من اسلم من غيرهم ولا مال يتعجلونه فقد علم الناس كيف كانت سيرة ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة . فهل هذا الا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم كما قال تعالى « لو انفقت مافى الارض جميعا ماالفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم » ثم بقى عليه الصلاة والسلام كذلك بين اظهرهم بلا حارس ولا ديوان جند ولا بيت مال محروسا معصوما . فهل يصح من اعلام الانبياء مانقل عنه عليه الصلاة والسلام . كلا . وهذا لاينكره احد من الناس

وقال ابن حزم رحمه الله ايضا قبل ذلك : كانت العرب بلا خلاف قوما لقاحا لايملكهم احد كمضر وربيعة واياد (١) وقضاعة اوملوكا فى بلادهم يتوارثون

---

(١) اياد ككتاب حى من معد

الملك كابرا عن كابر كملوك اليمن وعمان (١) وشهر بن بارام ملك صفا (٢) والمنذر بن ساوى ملك البحرين · والنجاشي ملك الحبشة وجيفر وعياذ ابنى الجلندى ملكى عمان (٣) فانقادوا كلهم لظهور الحق وبهوره وآمنوا به صلى الله عليه وسلم طوعا وهم آلاف آلاف وصاروا اخوة كبني اب وام وانحل كل من امكنه الانحلال عن ملكه منهم الى رسله طوعا بلا خوف غزو ولا اعطاء مال ولا طمع فى غز بل كلهم اقوى جيشا من جيشه واكثر مالا وسلاحا منه واوسع بلدا من بلده ·كذى الكلاع (٤) وكان ملكا متوجا ابن ملوك متوجين تسجد له جميع رعيته يركب امامه الف عبد من عبيده سوى بنى عمه من حمير وذى ظليم (٥) وذى زود (٦) وذي مران (٧) وذى عمرو وغيرهم كلهم ملوك متوجون فى بلادهم هذا كله امر لايجهله احد من حملة الاخبار بل هو منقول كنقل كون بلادهم فى مواضعها (٨) وهكذا كان اسلام جميع

---

(١) كغراب فى القاموس: بلد فى اليمن، وقال ابن الاثير: على البحر تحت البصرة، وقال غيره: عند البحرين (٢) الصفا حصن بالبحرين وهجر كما فى المعجم (٣) جيفر كجعفر من اسماء الاسد الشديد والجلندى بضم الجيم وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال آخره الف مقصورة قال فى القاموس اسلم هو واخوه على يد عمرو بن العاص لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما وهما على عمان (٤) بفتح الكاف (٥) كزبير موضع باليمن (٦) بضم الزاي (٧) بفتح الميم وتشديد الراء (٨) اشارة الى ان انقياد الملوك المذكورين له صلوات الله عليه وايمانهم به منقول بالنقل الذى لايشوبه شائبة تردد وهو خبر التواتر وهو مارواه جمع عن جمع يؤمن تواطوءهم على الكذب وقد اتفق الاصوليون على افادته القطع ومنه المرويات المذكورة وقد روى اسلام النجاشى من طرق كثيرة وروايات متنوعة وكلها متجاوبة الاطراف فى تحقيق اسلامه—

العرب اولهم كالاوس والخزرج ثم سائرهم قبيلةً قبيلة لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم من معجزاته وما اتبعه الاوس والخزرج الا وهو فريد نابذه قومه حسداً له اذ كان فقيرا يتيما اميا لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والجاهلية يرعى غنم قومه يتقوّت بها فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم وعصمه من كل من اراده بلا حرس ولا حاجب ولا بواب ولا قصر يمتنع فيه على كثرة من اراد قتله من شجعان العرب وفُتاكهم كعامر ابن الطفيل واربد بن جزء (١) وغورث بن الحارث (٢) وغيرهم مع اقرار اعدائه بنبوته كمسيلمة (٣) وسجاح (٤) وطليحة (٥)

—ولو لم يكن منها الا ماصح عنه صلى الله عليه وسلم من صلاته عليه لما جاءه نعيه لكفى وذلك متفق على ثبوته اتفاقا يزيل كل ريبة

(١) بفتح الجيم (٢) بفتح الغين المعجمة وسكون الواو (٣) مسيلمة رجل من بنى حنيفة كان قدم مع جماعة من قومه على النبى صلى الله عليه وسلم وصار يقول ان جعل لى محمد الامر من بعده تبعته فقال له النبى صلى الله عليه وسلم وكان في يده قطعة جريد : لوسالتني هذه القطعة مااعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك وان ادبرت ليعقرنك الله . ثم رجع بمن معه الي منازلهم وهي اليمامة بين نجد والبحرين وادعى انه اشترك مع النبي فى النبوة وكتب كتابا للنبي صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله سلام عليك فاني قد أُشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض الخ فكتب له صلوات الله عليه : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين : ثم قتل في عهد الصديق كما تراه مفصلا في التاريخ

« ٤ » امرأة من بني تميم تنبأت وخطبها مسيلمة الكذاب وتزوجته ولهما حديث مشهور

« ٥ » هو طليحة بن خويلد الاسدى كان كاهنا ادعى النبوة في حياة النبي صلي الله عليه وسلم فتبعه افاريق ونزل سميراء من بلاد بني اسد شرقى نجد ثم اسلم في عهد الصديق رضى الله عنه وله ذكر جميل في فتح العراق وقصته معروفة في التاريخ

والاسود (١) وهو مكذب لهم . فهل بعد هذا برهان او بعد هذه الكفاية من الله تعالى كفاية وهو لا يبغى دنيا ولا يمنى بها من اتبعه بل انذر الانصار بالاثرة عليهم بعده وتابعوه على الصبر على ذلك (٢)

قام له اصحابه على قدم فمنعهم وانكر ذلك عليهم واعلمهم ان القيام لله تعالى لا لخلقه . ورضوا بالسجود له فاستعظم ذلك وانكره الا لله وحده . ولا شك فى ان هذه ليست صفة طالب دنيا قط اصلا ولا صفة راغب فى غلبة ولا بعد صوت بل هذه حقيقة النبوة الخالصة لمن كان له ادنى فهم

ثم قال الامام ابن حزم : وايضا فان سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضى تصديقه ضرورة وتشهد له بانه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى وذلك انه عليه الصلاة والسلام نشأ كما قلنا فى بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ولا خرج عن تلك البلاد قط الا خرجتين احداهما الى الشام وهو صبيّ مع عمه الى اول ارض الشام (٣)

« ١ » الاسود رجل من عنس ادعى النبوة في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم لما راى الاسلام انتشر في اليمن واثار على دعوته رجالا ثم قتل وكانت مدته الى ان هلك قريبا من اربعة اشهر وجاءت البشارة بقتله الى المدينة وقد توفى النبي صلى الله عليه وسلم

« ٢ » قال ابن ابي الحديد في شرح النهج ان الدنيا خلصت صفوا عفوا بعدُ لبني امية الذين كانوا من قبل اعدائه واخرجوه عن اوطانه وقاتلوه كما قال ابوسفيان لما مر بقبر حمزة رضى الله عنه : ياباعمارة ان الامر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به انتهى ويمر بقارئ الصحيحين من الاخبار بالغيوب عن مثل هذا كثير من الاخبار فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « ٣ » يعنى بصرى من بلاد حوران

ورجع . والاخرى ايضا الى اول الشام ولم يطل بها البقاء ولا فارق قومه قط ثم اوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها فلم تتغير نفسه ولا حالت سيرته الى ان مات ودرعه مرهونة فى شعير لقوت اهله اصواع ليست بالكثيرة . ولم يبت قط فى ملكه دينار ولادرهم . وكان ياكل على الارض ماوجد ويخصف نعله بيده ويرقع ثوبه ويؤثر على نفسه وقتل رجل من افاضل اصحابه مثل فقده يهدّ عسكرا قتل بين اظهر اعدائه من اليهود فلم يتسبب الى اذى اعدائه بذلك اذ لم يوجب الله تعالى له ذلك ولا توصل بذلك الى دمائهم ولا الى دم واحد منهم ولا الى اموالهم بل فداه من عند نفسه بمائة ناقة وهو فى تلك الحال محتاج الى بعير واحد يتقوى به وهذا امر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الارض واهل الدنيا من اصحاب بيوت الاموال بوجه من الوجوه ولا يقتضى هذا ايضا ظاهر السيرة والسياسة فصح يقينا بلا شك انه انما كان متبعا ما امر به ربه عز وجل كان ذلك مضرا به فى دنياه غاية الاضرار أو كان غير مضر به (١)

«١» يشير الامام ابن حزم الى قصة قتيل بني حارثة من الانصار في خيبر، وذلك انه خرج عبدالله بن سهل الانصارى وابن عمه محيصة بن مسعود ابن زيد في نفر الى خيبر يمتارون تمرا فتفرقوا فيها وهي يومئذ صلح ثم ان محيصة وجد عبدالله قتيلا يتشحط في دمه في ناحية من نواحى خيبر فاتى محيصة الى اليهود فقال انتم والله قتلتموه قالوا ماقتلنا ولا علمنا قاتلا ثم انطلق اخو القتيل وابناء عمه الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا شانه حيث قتل فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم تاتون بالبينة على من قتله قالوا مالنا بينة قال فتحلفون خمسين يمينا على رجل منهم فيدفع برمته قالوا كيف نحلف على مالا نعلم قال فيحلفون لكم خمسين يمينا قالوا لانرضى بايمان اليهود فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبطل دمه فوداه بمائة من الابل من عنده . هذا—

وهذا عجيب لمن تدبره ثم حضرته صلى الله عليه وسلم المنية وايقن بالموت وله

—ماروا، البخاري في صحيحه وكل من صنف في الصحاح . وهذا القضاء النبوي يمثل عدله صلى الله عليه وسلم وانصافه وكرم اخلاقه وسخاءة وجوده وعدم محاباته في الحق ولياله اوصاحبا . ويمثل قيامه بحسن العهد ووفاء الذمة لليهود حالتئذ لان هذه وقعت في خيبر بعد فتحها واقرار النبي صلى الله عليه وسلم اهلها فيها على ان يعملوا في المزارع بالشطر مما يخرج منها . وقول ابن حزم هنا في اعجابه بهذه المكارم النبوية ان امر القضاء فيها لا يقتضى ظاهر السيرة والسياسة : اى لان ظاهر سيرة القتيل تقتضي الصاق اللوث والشبهة في جانب المدعى عليهم البتة لانه قتل في دارهم و بين أظهرهم وهم اعداوه فكان ظاهر الحال يقتضى ان لا يبرءوا اصلا وان يحملوا الاقرار والاعتراف لقوة جانب المدعي باللوث الذي يقوى دعواه . وكذلك كان يقتضى ظاهر السياسة اعمال الصارم البتار في ناحية الشبهة جزاء وفاقا وتأديبا وزجرا وحفظا للامن وحسما لاثارة الفتن — اواخذ الدية من جهة اللوث ارضاء لذوى الحق وصونا من هدر الدم فلم يكن هذا ولا ذاك بل كان قضاء آخر وهو قضاء الحق العدل وحكم الحكيم الفصل . وذلك لان الاصل البينة وهي شهادة من شاهد القتل وكان عدلا يوثق به فان فقدت فخمسون يمينا يحلفها المدعون على رجل يسمونه وانما غلظت القضية بوفرة ايمانها المذكورة ليحتاط المقتحم لليمين وليتبصر ان الامر ليس بالسهل لحرمة الدماء وكون الاصل فيها العصمة — فان ابوا الحلف ترد الايمان على المدعى عليهم فيستحلفون خمسين يمينا ماقتلناه ولا علمنا من قتله فان حلفوا برؤا اذ ليس غير هذا منهم لجهالة القاتل وسعة مكان اللوث وامكان ان ذلك من عمل بد اجنبية مجتازة . فاذا ابى اولياء القتيل ذلك فما بقي الا الحكمة والدرء بالتى هي احسن وطفوء غليان الصدور وذلك بمارآه النبي صلي الله وسلم من الصلح والاحسان والطول والامتنان فوداه من ماله رحمة بذوى ذمته وعهده واحسانا الى اصحابه وانصاره . فيا ايها الواقف علي هذه المكارم والمراحم النبوية باهل الذمة والعهد من يهود خيبر اذا تاملت هذا وعرفته تعلم ان الحكم الذى قضى به سعد بن معاذ على مواليه من يهود بني قريظة من ابادة خضرائهم واقره النبي صلى الله عليه وسلم انما هو لجنايتهم—

عم اخو ابيه هو احب الناس اليه وابن عم هو من اخص الناس به وهو ايضا زوج ابنته وكلاهما عنده من الفضل والدين والسياسة فى الدنيا والباس والحلم وخلال الخير ما كان كل واحد منهما حقيقا بسياسة العالم كله فلم يحابهما وهما من اشد الناس محبة فيه وهو من احب الناس فيهما اذ كان غيرهما متقدما لهما فى الفضل قاصداً اتباع ما امر به صلى الله عليه وسلم . ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه فلسا فما فوقه وهم كلهم احب الناس اليه وطوعهم له ، وهذه امور لمن تاملها كافية مغنية فى انه انما تصرّف بأمر الله تعالى له لا بسياسة ولا بهوى فوضح بما ذكرنا «ولله الحمد كثيرا» ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق وان شريعته التى اتى بها هى التى وضحت براهينها واضطرت دلائلها الى تصديقها والقطع على انها الحق الذى لا حق سواه . وانها دين الله تعالى الذي لا دين له فى العالم غيره اه كلامه بحروفه رحمه الله تعالى

استدلال هرقل عظيم الروم على نبوته صلى الله عليه وسلم

روى الامام البخارى فى صحيحه عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ان اباسفيان ابن حرب اخبره ان هرقل ارسل اليه في ركب من قريش وكانوا

— على الدين واهله جناية لا تغتفر بوجه ما كما ستراه موضحا في تعليقة آتية ان شاء الله تعالى وكما ان لكل مقام مقالا فلكل قضية حكم . ومن نظر الى القضايا النبوية فلينظر بعين الانصاف ليرى كيف يظهر نور العدل وقصد الحق وليمثل نفسه مشاهدا لذاك الجهاد الاكبر جهاد كسح الفساد من طريق الحق فصلوات الله على الرحمة المهداة للعالمين ، في كل وقت وحين ،

تجارا بالشام (١) في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ فيها اباسفيان (٢) فاتوه بايليا (٣) فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ودعا ترجمانه فقال ايكم اقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم انه نبيّ فقال ابوسفيان قلت انا اقربهم نسبا قال ادنوه مني وقربوا اصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه قل لهم اني سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبني فكذبوه قال (٤) فوالله لولا الحياء من ان يأثروا عليّ (٥) كذبا لكذبت عليه ثم كان اول ماسالني عنه ان « قال » كيف نسبه فيكم « قلت » هو فينا ذو نسب « قال » فهل قال هذا القول منكم احد قبله قط « قلت » لا « قال » فهل كان من آبائه ملك « قلت » لا « قال » فاشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم « قلت » بل ضعفاؤهم « قال » ايزيدون ام ينقصون « قلت » بل يزيدون « قال » فهل يرتد احد منهم سخطة لدينه بعد ان يدخل فيه « قلت » لا « قال » فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ماقال « قلت » لا « قال » فهل يغدر « قلت » لا « قال » فهل قاتلتموه « قلت » نعم « قال » كيف كان قتالكم اياه « قلت » الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه « قال » ماذا يامركم « قلت » يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا مايقول اباؤكم ويامرنا بالصلاة والصدق والصدقة والعفاف

(١) في رواية بغزة وكانت وجه متجرهم (٢) يعني مدة الصلح الذي عقد بالحديبية سنة ست من الهجرة قبل اسلام ابي سفيان لان اسلامه عام فتح مكة سنة ثمان من الهجرة (٣) هي مدينة بيت المقدس (٤) اي ابوسفيان (٥) قال الدماميني على فيه بمعنى عن ويحتمل التضمين

والصلة (١) فقال للترجمان قل له « سالتك » عن نسبه فذكرت انه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها « وسالتك » هل قال احد منكم هذا القول قبله فذكرت ان لا فقلت لو كان احد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله « وسالتك » هل كان من آبائه من ملك فذكرت ان لا قلت فلو كان من ملك قلت رجل يطلب ملك ابيه « وسالتك » هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ماقال فذكرت ان لا فقد اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله « وسالتك » اشراف الناس اتبعوه ام ضعفاؤهم فذكرت ان ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل « وسالتك » ايزيدون ام ينقصون فذكرت انهم يزيدون وكذلك أمر الايمان حتى يتم « وسالتك » ايرتد احد سخطة لدينه بعد ان يدخل فيه فذكرت ان لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب لايسخطه احد « وسالتك » هل يغدر فذكرت ان لا وكذلك الرسل لاتغدر « وسالتك » هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت ان قد

---

(١) وفى هذا المعنى يقول حكيم الشعراء ابوالعلاء المعرى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

دعاكم الى خير الامور محمد * وليس العوالى فى القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحا * وشهب الدجا من طالعات وآفل
والزمكم ماليس يعجز حمله * اخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس * وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمرا خلت ارباب شربها * من الطيش ارباب النعام الجوافل
يجرون ثوب الملك جرا وآنس * لدى البدو أذيال الغوانى الروافل
فصلى عليه الله ماذر شارق * وما فت مسكا ذكره فى المحافل .

فعل وان حربكم وحربه تكون دولا يدال عليكم المرة وتدالون عليه الاخرى وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة (١) «وسالتك» بم يأمركم فذكرت انه يامركم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الاوثان ويامركم بالصلاة والصدق والعفاف فان كان ماتقول حقا فسيملك موضع

---

(١) قال الامام ابن القيم فى مفتاح دار السعادة فى هذا المعنى فاذا تاملت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه وصبره في الله واحتماله مالم يحتمله نبي قبله وتلوّن الاحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وامن واقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل احبابه واوليائه بين يديه واذى الكفار له بسائر انواع الاذى من القول والفعل والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على امر الله يدعو الى الله فلم يؤذ نبيٌّ ماأوذى ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ماأعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله اقرب الخلق اليه وسيلة واعظمهم عنده جاها واسمعهم عنده شفاعة وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها الى اعلا المقامات وهذا حال ورثته من بعده الامثل فالامثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به الى كماله بحسب متابعته له ومن لانصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو ياكل منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن اولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في اهله مسرور له شأن ولهم شان وهو في وادوهم في وادهمه مايقيم جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته وهمهم اقامة دين الله واعلاء كلمته واعزاز اوليائه وان تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لاغيره ورسوله المطاع لاسواه فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه انبيائه ورسله وعباده المؤمنين ماتتقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل الى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة الا على جسر المحنة والابتلاء

كذا المعالى اذا مارمت تدركها ✲ فاعبر اليها على جسر من التعب .

قدمىّ هاتين (١) وقد كنت اعلم انه خارج لم اكن اظنه منكم فلو انى اعلم انى اخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه قال ابوسفيان ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرئ « الحديث » وفى رواية فى الصحيح فى كتاب الجهاد بعد ان ساله عن هذه الصفات العشر قال هرقل : وهذه صفة النبيّ : اى المشار اليه والمرموز له في كتب العهدين قال الامام ابن تيمية رحمه الله : وما استدل به هرقل من العلم بصفاته هو الاستدلال على عينه فان الناس فى النبوة على ثلاث درجات منهم من يحتاج

---

(١)وفي هذا المعنى كتب حكيم من المتاخرين مقالةً جاء منها : ارسل طرفك الى نشأة الأمة وتبين اسباب نهوضها الاول فترى ان ماجمع كلمتها وانهض همم آحادها ولحم بين افرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤس الامم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو « دين » قويم الاصول محكم القواعد شامل لانواع الحكم باعث على الالفة داع الى المحبة مزكٍ للنفوس مطهر للقلوب من ادران الخسائس منوّر للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الى جميع فروع المدنية انظر الى تاريخ الامة قبل بعثة الدين وما كانت عليه من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين وحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم اخلاقها وسدد احكامها فسادت على العالم وساست من تولته بالعدل والانصاف وبعد ان كانت عقول ابنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى بلادها طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل امة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك باصول دينها اه

الى ان يعلم جنس النبوة كالذين كذبوا الرسل وقالوا ماانزل الله على بشر من شيء . ومنهم من يقر بالرسل في الجملة لكن لا يوءمن بما يجب من حقيقة ارسالهم كالملاحدة اهل البدع الذين يعظمون الانبياء مع اعتقادهم فى الباطن ماينافض بعض ماجاوءا به لشبهات انعقدت في قلوبهم ظنوها مناقضة لما اخبرت به الرسل فيحتاجون ان يوفقوا بينهما (الى ان قال) وهرقل لم يكن محتاجا الى الايمان بجنس النبوات فانه كان من اهل الكتاب واهل الكتاب يقرون بجنس النبوة فانهم يقرون بنبوة نوح والخليل وانبياء بنى اسرائيل ، والذين يحتاجون الى معرفة النبي المعين نوعان: نوع عرفوا انه يبعث نبي وقد يعرفون بعض نعوته فيحتاجون ان يعرفوا عينه . وهرقل وامثاله من اهل الكتاب كانوا من هذا النوع فكانوا يعلمون ان نبيا سيبعث وانما كان حاجتهم الى ان يعرفوا هل هو هذا النبي المذكور ام غيره فيكون مايحتاجون اليه من دلائل صدقه ايسر مما يحتاج اليه من لا يوءمن بالرسل اولا يعرف ان نبيا سيبعث (الى آخر ماذكره فى آخر الجواب الصحيح فانظره)

بيان خصائصه صلى الله عليه وسلم وفضائله ، وشرف اخلاقه وشمائله ، المؤيدة لنبوته ، والمبرهنة على عموم رسالته

قال الامام الماوردى رحمه الله تعالى : المهيأ لاشرف الاخلاق واشرف الافعال . الموءهل لاعلى المنازل وافضل الاعمال . لانها اصول تقود الى ماناسبها ووافقها . وتنفر مما باينها وخالفها . ولا منزلة فى العالم اعلى من النبوة

التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق فكان افضل الخلق بها اخص . واكملهم بشروطها احق بها وامس . ولم يكن فى عصر الرسول وما دانى طرفيه مَنْ قاربه فى فضله ولا داناه فى كماله خلقا وخلقا وقولا وفعلا وبذلك وصفه الله تعالى فى كتابه بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » والفضل وان لم يكن من معجزات النبوة فهو من اماراتها وتكامل الفضل معوز فصار كالمعجز . وكمال الفضل موجب للصدق والصدق موجب لقبول القول فجاز ان يكون من دلائل الرسل

فاذا وضح هذا فالكمال المعتبر فى البشر يكون من اربعة اوجه كمال الخُلق وكمال الخَلق وفضائل الاقوال وفضائل الاعمال

فاما الوجه الاول فى كمال خُلقه بعد اعتدال صورته فيكون باربعة اوصاف احدها السكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم، الداعية الى التقديم والتسليم . وكان اعظم مهيب في النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين اتوه مع ارتياعهم بصولة الاكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابره فكان (صلى الله عليه وسلم) فى نفوسهم اهيب وفى اعينهم اعظم وان لم يتعاظم باهبة ولم يتطاول بسطوة بل كان بالتواضع موصوفا وبالوطأة (١) معروفا

والثاني فى الطلاقة الموجبة للاخلاص والمحبة الباعثة على المصافاة والمودة وقد كان « صلوات الله عليه » محبوبا استحكمت محبة طلاقته فى النفوس حتى لم يَقْلُهُ مصاحب . ولم يتباعد منه مقارب . وكان احب الى اصحابه من

(١) الوطأة السهولة

الآباء والابنا · وشرب البارد على الظما ·

والثالث حسن القبول الجالب لممايلة القلوب حتى تسرع الى طاعته · وتذعن بموافقته وقد كان قبول منظره صلى الله عليه وسلم مستوليا على القلوب ولذلك استحكمت مصاحبته فى النفوس حتى لم ينفر منه معاند · ولا استوحش منه مباعد الا من ساقه الحسد الى شقوته · وقاده الحرمان الى مخالفته ·

والرابع ميل النفوس الى متابعته · وانقيادها لموافقته · وثباته على شدائده ومصابرته · فما شذ عنه معها من اخلص · ولا ندّ عنه فيها من تخصص ·

وهذه الاربعة من دواعى السعادة ، وقوانين الرسالة ، وقد تكاملت فيه فكمل لما يوازيها ، واستحق مايقتضيها ،

واما الوجه الثاني فى كمال اخلاقه فيكون بست خصال

(احداهن) رجاحة عقله وصحة وهمه وصدق فراسته وقد دل على وفور ذلك فيه صحة رأيه وصواب تدبيره وحسن تألفه وانه مااستُغفِل فى مكيدة ولا استعجز في شديدة بل كان يلحظ الاعجاز فى المبادى فيكشف عيوبها ويحل خطوبها وهذا لاينتظم الا باصدق وهم واوضح جزم

(والخصلة الثانية) ثباته فى الشدائد وهو مطلوب وصبره على الباساء والضراء وهو مكروب ومحروب «١» ونفسه فى اختلاف الاحوال ساكنة لايخور في شديدة ولا يستكين لعظيمة وقد لقى بمكة من قريش مايشيب النواصى ، ويهد الصياصى وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى

«١» اى مطلوب يقال حربه حرَبا كطلبه طلبا فهو محروب وحريب

(والخصلة الثالثة) زهده فى الدنيا واعراضه عنها وقناعته بالبلاغ منها فلم يمل الى غضارتها ولم يَلِهْ لحلاوتها وقد ملك من اقصى الحجاز الى عذار العراق ومن اقصى اليمن الى شحر عمان وهو ازهد الناس فيما يقتنى ويدّخر واعرضهم عما يستفاد ويحتكر لم يخلف عينا ولا دينا ولا حفر نهرا ولا شيد قصرا ولم يورث ولده واهله متاعا ولا مالا ليصرفهم عن الرغبة فى الدنيا كما صرف نفسه عنها فيكونوا على مثل حاله فى الزهد فيها، وحقيق بمن كان فى الدنيا بهذه الزهادة حتى اجتذب اصحابه اليها ان لا يُتهَم بطلبها ويكذب على الله تعالى فى ادعاء الآخرة بها ويقنع فى العاجل وقد سلب الآجل بالميسور النزر ، ورضي بالعيش الكدر

(والخصلة الرابعة) تواضعه للناس وهم اتباع، وخفض جناحه لهم وهو مطاع يمشي في الاسواق ويجلس على التراب ويمتزج باصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم الا باطراقه وحيائه، فصار بالتواضع متميزا، وبالتذلل متعززا، ولقد دخل عليه بعض الاعراب فارتاع من هيبته فقال خفض عليك فانما انا ابن امرأة كانت تاكل القديد بمكة وهذا من شرف اخلاقه وكريم شيمه فهى غريزة فطر عليها وجبلة طبع بها لم تندر فتعدّ، ولم تحصر فتحدّ،

(والخصلة الخامسة) حلمه ووقاره عن طيش يهزه، اوخُرق يستفزه، فقد كان احلم فى النفار من كل حليم ۰ واسلم فى الخصام من كل سليم ۰ وقدمني بجفوة الاعراب فلم يوجد منه نادره ۰ ولم يحفظ عليه بادره ۰ ولا حليم غيره الا ذو عثرة ۰ ولا وقور سواه الا ذو هفوة ، فان الله تعالى عصمه من نزغ الهوى وطيش القدرة بهفوة اوعثرة ليكون بامته رؤفا ۰ وعلى الخلق عطوفا

قد تناولته قريش بكل كبيره ، وقصدته بكل جريره ، وهو صبور عليهم ومعرض عنهم ، وما تفردّ بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم ، ولا ارا ذلهم دون عظمائهم ، بل تمالأ عليه الجلة والدون ، فكلما كانوا عليه من الامر الحّ ، كان عنهم اعرض واصفح ، حتى قهر فعفا ، وقدر فغفر (وقال لهم) حين ظفر بهم عام الفتح وقد اجتمعوا اليه ماظنكم بي قالوا ابن عم كريم فان تعف فذاك الظن بك وان تنتقم فقد اسأنا فقال بل اقول كما قال يوسف لاخوته « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين » (وقال) اللهم قد اذقت اول قريش نكالا فاذق آخرهم نوالا (واتته) هند بنت عتبة وقد بقرت بطن عمه حمزة ولا كت كبده فصفح عنها واعطاها يده لبيعتها (فان قيل) فقد ضرب رقاب بني قريظة صبرا (١) في يوم واحد وهم نحو سبعمائة (٢) فاين موضع العفو والصفح (قيل) انما فعل ذلك في حقوق الله تعالى وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم فحكم ان من جرت عليه الموسى قتل ومن لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذا حكم الله من فوق سبعة ارقعة : فلم يجز ان يعفو عن حق وجب لله تعالى عليهم وانما يختص عفوه بحق نفسه (٣)

---

(١) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فانه مقتول صبرا اه تاج وكل من حبس لقتل اوحلف فقد صبر اه اساس (٢) في حديث جابر عند الترمذى والنسائي وابن حبان باسناد صحيح انهم كانوا اربعمائه مقاتل اه فتح الباري (٣) ملخص جواب الماوردي رحمه الله هنا وتوضيحه ان عفوه عليه السلام المستفيضة اخباره والمتواتره انباؤه انما هو فيما كان لخاصة نفسه اذ لم ينتصر لنفسه ولم يغضب لها في واقعة —

(والخصلة السادسة) حفظه للعهد ، ووفاؤه بالوعد ، فانه ما نقض لمحافظ عهدا

— قط واما ما كان حقا من حقوق الله وحداً من حدوده التى شرعها وامر بها فلا عفو ولا هوادة ، وما كان من امر بنى قريظة فهو من حقوق الله الواجب اقامتها لانهم كانوا من المحاربين لله ولرسوله ومن السعاة في الارض بالفساد ومعلوم ما نزل في مثلهم من قوله تعالى « انما جزآء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا » الى آخر الآية . وهؤلاء يهود قريظة فعلوا من الغدر ونكث العهد ونقض الميثاق الذي واثقهم به عليه الصلاة والسلام وعاهدهم عليه مالا يفعله الا عدوّ ماكر وخائن غادر فقد والوا اعدائه من كفار قريش وغطفان وعاقدوهم على حربه وعلى استباحة المدينة المنورة وعلى ابادة المسلمين والاسلام كما يعلم ذلك من وقف على تعاقدهم مع كفار قريش في مكة لذا اوحى اليه ان يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يامن المسلمون جانبهم في شدة . ولما سار عليه الصلاة والسلام اليهم ونزل بساحتهم ابوا ان يسلموا انفسهم حتى يحكم فيهم من اصحابه صلوات الله عليه من كان اقرب اليهم مودة وارعى لهم جوارا وهو سعد بن معاذ رضى الله عنه فانهم كانوا حلفاءه في الجاهلية ومواليه فلما اتى به للحكم قال : آن لسعد ان لا تاخذه في الله لومة لائم : ثم حكم بقتل رجالهم فاذا كان هذا حكم من هو سيدهم ومولاهم وهو ابر الناس بهم افليس الا لان جريمتهم لا تغتفر وجريرتهم لا تحتمل بلى ولاجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم له : قضيت بحكم الله : فانه تعالى كان شرع جزاء المحاربين في الآية السالفة . والاية تشملهم شمولا جليا . و يدخلون في حكمها دخولا اوليا . فقضاء سعد رضى الله عنه قضاء بالنص وصدع بالحق في امضاء الحد . على من خان وغدر وتعدى الحد . ومن المعلوم بالضرورة انه لم تخل شريعة موحاة ولا قانون عادل ولا نظام مدنى بلغ من الرقيّ والتعديل اقصاه من سنّ القصاص والعقوبة بالتدمير لمثل من شملتهم الاية الكريمة . وكل من فسدت ملكته . وخبثت طينته . ومرنت على الضرر والاضرار نفسه فما دواء العضو المجذم الا البتر . ولا الشجر الشائك الا النار . ولا العثره في —

ولا اخلف لمراقب وعدا · يرى الغدر من كبائر الذنوب · والاخلاف من مساوئ الشيم · فيلتزم فيهما الاغلظ · ويرتكب فيهما الاصعب · حفظا لعهده · ووفاء بوعده · حتى يبتدئ معاهدوه بنقضه · فيجعل الله تعالى له مخرجا كفعل اليهود من بني قريظة وبنى النضير وكفعل قريش بصلح الحديبية فجعل الله تعالى له فى نكثهم الخيرة

فهذه ست خصال تكاملت في خُلُقه · فضله الله تعالى على جميع خَلقه

(واما الوجه الثالث فى فضائل اقواله فمعتبر بثمان خصال)

(احداهن) مااوتى من الحكمة البالغة · واعطى من العلوم الجمة الباهرة · وهو اميّ من امة امية لم يقرأ كتابا · ولا درس علما · ولا صحب عالما ولا معلما · فاتى بما بهر العقول · واذهل الفطن · من اتقان ماابان · واحكام ماأظهر · فلم يعثر فيه بزلل فى قول اوعمل · وقد شرع من تقدم من حكماء

—الطريق الا الازاحة باى وجه كان معروف ذلك في قوانين العدل وسنن المصالح العامة · وقد اجمع الاخلاقيون على وجوب ازالة الفساد من جادة الصلاح وكسح عقبات الضلال من وجه الهدى ليسير الاصلاح سيره و يبلغ ماقدرله · وما مثل بنى قريظه الا كمثل من قال

يقولون لى دار العدا تنج منهمُ * فقلت مدارة العدا ليس تنفع
ولو انني داربت دهريَ حية * اذا مكنت يوما من اللسع تلسع

ومن درس السيرة النبوية حق دراستها وسبر ماجرياتها مع خصومها فانه لايجد فيها الا الحكم العدل · والقضاء الفصل · ومن اخذته الحيرة في مسئلة فليات البيوت من ابوابها وليسال اهل الذكر · وليس توقف من توقف بحجة ولا سند كما ان عدم العلم ليس علما بالعدم « وفوق كل ذي علم عليم » والله العليم الحكيم

الفلاسفة سننا حملوا الناس على التديّن بها حين علموا انه « لا اصلاح للعالم الابدين ينقادون له ويعملون به » (١) فما راق لها اثر · ولا فاق لها خبر · وهم ينبوع الحكم · واعيان الامم · وما هذه الفطرة فى الرسول الا من صفاء جوهره وخلوص مخبره ·

(والخصلة الثانية) حفظه لما اطلعه الله تعالى عليه من قصص الانبياء مع الامم واخبار العالم فى الزمن الاقدم · حتى لم يعزب عنه منها صغير ولا كبير · ولا شذ عنه منها قليل ولا كثير · وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه · ولا يحفظها بعين تحرسه · وماذاك الا من ذهن صحيح · وصدر فسيح · وقلب شريح وهذه الثلاثة آلة مااستودع من الرسالة وحمل من اعباء النبوة فجدير ان يكون

(١) تامل هذه الحكمة الجامعة للماوردي ولا تنس مااسلفناه في هذا المعنى ولقد تذكرت لبعض الائمة الحكماء جملة من مقالة له في ذلك قال رحمه الله : فعلاج الامة التى خملت بعد النباهة وضيمت بعد المنعة انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ باحكامه على ماكان في بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة و بيع الارواح لشرف الامة ولان جرثومة الدين متاصلة في النفوس بالوراثة من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفى من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسرى نفثها في جميع الارواح لاقرب وقت فاذا قاموا لشؤنهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا اصول دينهم الحقة نصب اعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى ومن طلب اصلاح امة بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الا بخسا ولا يكسبها الا تعسا · فالدين سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل اه

بها مبعوثا . وعلى القيام بها محثوثا .

(والخصلة الثالثة) إحكامه لما شرع باظهر دليل . وبيانه باوضح تعليل . حتى لم يخرج منه مايوجبه معقول . ولادخل فيه ماتدفعه العقول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اوتيت جوامع الكلم واختصرت الى الحكمة اختصارا . لانه نبه بالقليل على الكثير فكف عن الاطاله . وكشف عن الجهاله . وما تيسر ذلك الا وهو عليه معان واليه مقاد .

(والخصلة الرابعة) ماامر به من محاسن الاخلاق . ودعا اليه من مستحسن الآداب . وحث عليه من صلة الارحام . وندب اليه من التعطف على الضعفاء والايتام . ثم مانهى عنه من التباغض والتحاسد . وكف عنه من التقاطع والتباعد . لتكون الفضائل فيهم اكثر . ومحاسن الاخلاق بينهم انشر . ومستحسن الآداب عليهم اظهر . وتكون الى الخير اسرع . ومن الشر امنع . فيتحقق فيهم قول الله تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فلزموا اوامره . واتقوا زواجره . فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم حتى عزّ بهم الاسلام بعد ضعفه . وذل بهم الشرك بعد عزه . فصاروا ائمة ابرارا . وقادة اخيارا .

(والخصلة الخامسة) وضوح جوابه اذا سُئِل . وظهور حجاجه اذا جودل . لايحصره عى . ولا يقطعه عجز . ولا يعارضه خصم فى جدال الا كان جوابه اوضح . وحجاجه ارجح .

(والخصلة السادسة) انه محفوظ اللسان من تحريف فى قول واسترسال فى

خبر يكون الى الكذب منسوبا . وللصدق مجانبا . فانه لم يزل مشهورا بالصدق فى خبره فاشيا وكثيرا حتى صار بالصدق مرقوما . و بالامانة مرسوما . وكانت قريش باسرها تتيقن صدقه قبل الى الاسلام فجهروا بتكذيبه فى استدعائهم اليه فمنهم من كذبه حسدا . ومنهم من كذبه عنادا . ومنهم من كذبه استبعادا ان يكون نبيا أو رسولا . ولو حفظوا عليه كذبة نادرة فى غير الرسالة لجعلوها دليلا على تكذيبه فى الرسالة . (ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر الزم ، ومن عصم منه فى حق نفسه كان فى حقوق الله تعالى اعصم) وحسبك بهذا دفعاً لجاحد ، ورداً لمعاند ،

(والخصلة السابعة) تحرير كلامه فى التوخى به ابان حاجته ، والاقتصار منه على قدر كفايته ، فلا يسترسل فيه هدرا ولا يحجم عنه حصرا ، وهو فيما عدا حالتى الحاجة والكفاية اجمل الناس صمتا ، واحسنهم سمتا . ولذلك حفظ كلامه حتى لم يختل . وظهر رونقه حتى لم يعتل . واستعذبته الافواه . حتى بقى محفوظا فى القلوب مدوّنا فى الكتب . فلن يسلم الاكثار من زلل . ولا الهذر من ملل .

(والخصلة الثامنة) انه افصح الناس لسانا . واوضحهم بيانا . واوجزهم كلاما واجزلهم الفاظا . واصحهم معاني . لايظهر فيه هجنة التكلف . ولا يتخلله فيهقة التعسف « ١ » وقد دون كثير من جوامع كلمه ومن كلامه الذى

« ١ » في القاموس : تفيهق في كلامه تنطع وتوسع كانه ملأ به فمه . والفيهق الواسع من كل شئ وفيهق الاناء امتلأ

لا يشاكل فى فصاحته وبلاغته · ومع ذلك فلا ياتي عليه احصاء · ولا يبلغه استقصاء · ولو مزج كلامه بغيره لتميز باسلوبه · ولظهر فيه آثار التنافر فلم يلتبس حقه من باطله ولبان صدقه من كذبه · هذا ولم يكن متعاطيا للبلاغة · ولا مخالطا لاهلها من خطباء اوشعراء اوفصحاء وانما هو من غرائز طبعه · وبداية جبلته · وما ذاك الا لغاية تراد · وحادثة تشاد ·

(واما الوجه الرابع في فضائل افعاله فمختبر بثمان خصال)

(احداهن) حسن سيرته · وصحة سياسته · فى دين نقل به الامة عن مالوف وصرفهم به عن معروف الى غير معروف · فاذعنت به النفوس طوعا · وانقادت خوفا وطمعا · وشديد عادة منتزعة الا لمن كان مع التايد الالهى معانا بحزم صائب · وعزم ثاقب · ولئن كان مامورا بما شرع فهى الحجة القاهرة · ولئن كان مجتهدا فيها فهي الآية الباهرة (١) وحسبك بما استقرت قواعده على الابد · حتى انتقل عن سلف الى خلف يزاد فيهم حلاوته · ويشتد فيهم جدته · ويرونه نظاما لاعصار تنقلب صروفها · ويختلف مالوفها · ان يكون لمن قام به برهانا · ولمن ارتاب به بيانا

(والخصلة الثانيه) ان جمع بين رغبة من استمال · ورهبة من استطاع · حتى اجتمع الفريقان على نصرته · وقاموا بحقوق دعوته · رغبا في عاجل وآجل · ورهبا من زائل ونازل · لاختلاف الشيم والطباع فى الانقياد

---

(١) يرحم الله الماوردى لقد ذكرنا بكلامه هذا في النبوة ماسبق لنا في الدليل ٢٥ من ادلة وجود الحق تعالى مما يحج به الخصم في جانب التوحيد ايضا فجدد به عهدا

الذى لاينتظم باحدهما ولا يستديم الا بهما فلذلك صار الدين بهما مستقرا · والصلاح بها مستمرا

(والخصلة الثالثة) انه عدل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير الى التوسط وخير الامور اوساطها · وليس لماجاوز العدل حظ من رشد · ولا نصيب من سداد

(والخصلة الرابعة) انه لم يمل باصحابه الى الدنيا ولا الى رفضها وامرهم فيها بالاعتدال · وقال « خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه » وهذا صحيح لان الانقطاع الى احدهما اختلال والجمع بينهما اعتدال · وقال صلى الله عليه وسلم « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وانما كان كذلك لان منها يتزود لآخرته · ويستكثر فيها من طاعته · ولانه لايخلو تاركها من ان يكون محروما مضاعا · او مرحوما مراعى وهو في الاول كَلّ وفى الثانى مستذل

(والخصلة الخامسة) تصدّيه لمعالم الدين ونوازل الاحكام حتى اوضح للامة ما كلفوه من العبادات · وبين لهم مايحل ويحرم من مباحات ومحظورات · وفصل لهم مايجوز ويمتنع من عقود ومناكح ومعاملات · حتى احتاج اهل الكتاب فى كثير من معاملاتهم ومواريثهم لشرعه · ولم يحتج شرعه الى الى شرع غيره · ثم مهد لشرعه اصولا تدل على الحوادث المغفله · ويستنبط لها الاحكام المعلله · فاغنى عن نص بعد ارتفاعه · وعن التباس بعد اغفاله ثم امر الشاهد ان يبلغ الغائب ليعلم بانذاره · ويحتج باظهاره · فقال صلى الله عليه وسلم « بلغوا عنى ولا تكذبوا علىّ فرب مبلَّغ اوعى من سامع ورب

حامل فقه الى من هو افقه منه » فاحكم ماشرع من نص وتنبيه . وعم بما امر ، من حاضر وبعيد . حتي صار لما تحمله من الشرع موءديا . ولما تقلده من حقوق الامة موفيا . لئلا يكون في حقوق الله زلل . وذلك في برهة من زمانه لم يستوف تطاول الاستيعاب حتي اوجز وانجز . وما ذاك الا بديع معجز .

(والخصلة السادسة) انتصابه لجهاد الاعداء (١) وقد احاطوا بجهاته واحدقوا

---

(١) قال الامام ابن القيم : لما بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم استجاب له ولخلفائه بعده اكثر الاديان طوعا واختيارا ولم يكره احدا قط على الدين وانما كان يقاتل من يحاربه واما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالا لامر ربه سبحانه حيث يقول « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وهذا نفي في معنى النهى اى لاتكرهوا احدا على الدين (ثم قال) والصحيح ان الآية على عمومها في حق كل كافر . وهذا ظاهر على قول من يجوز اخذ الجزية من جميع الكفار فلا يكرهون على الدخول في الدين بل اما ان يدخلوا في الدين واما ان يعطوا الجزية كما يقول اهل العراق واهل المدنية ومن تامل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم تبين له انه لم يكره احدا على دينه قط وانما قاتل من قاتله . واما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيما على هدنته لم ينقض عهده بل امره الله تعالى ان يفي لهم بعهدهم مااستقاموا له كما قال تعالى « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ولما قدم المدينة صالح اليهود واقرهم على دينهم فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدوءه بالقتال قاتلهم فمن على بعضهم واجلى بعضهم وقتل بعضهم وكذلك لما هادن قريشا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدؤاهم بقتاله ونقضوا عهده فعند ذلك غزاهم في ديارهم وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم احد ويوم الخندق ويوم بدر ايضا هم جاؤا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم . والمقصود انه صلى الله عليه وسلم لم يكره احدا على الدخول في دينه البتة وانما دخل الناس اختيارا وطوعا فاكثر اهل الارض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وانه رسول الله حقا . وللبحث هذا تتمه في اوائل كتابه (هداية الحيارى) وكذا في كتابه —

بجنباته · وهو في قطب مهجور · وعدد محقور · فزاد به من قل · وعزّ به من ذُل · وصار باثخانه في الاعداء محذورا · وبالرعب منه منصورا فجمع بين التصدى لشرع الدين حتى ظهر وانتشر · وبين الانتصاب لجهاد العدوّ حتى قهر وانتصر · والجمع بينهما معوز الا لمن امدّه الله بمعونته وايده بلطفه · والمعوز معجز ·

(والخصلة السابعة) ماخصّ به من الشجاعة فى حروبه · والنجدة فى مصابرة عدوّه · فانه لم يشهد حربا فى فزاع · الا صابر حتى انجلت عن ظفر او دفاع وهو فى موقفه لم يزل عنه هربا · ولا حاز فيه رغبا · بل ثبت بقلب آمن · وجاش ساكن · قد ولى عنه اصحابه يوم حنين حتى بقى بازاء جمع كثير · وجم غفير · في تسعة من اهل بيته واصحابه · على بغلة مسبوقة ان طلبت · غير مستعدة لهرب ولا طلب · وهو ينادى اصحابه ويظهر نفسه ويقول الىّ عباد الله « انا النبي لا كذب · انا ابن عبد المطلب » فعادوا اشذاذا وارسالا وهوازن تراه وتحجم عنه · فما هاب حرب من كاثره · ولا انكفأ عن مصاولة من صابره · وقد عضده الله تعالى بانجاد وانجاد فانحازوا وصبر حتى امدّه الله بنصره · وما لهذه الشجاعة من عديل · ولقد طرق المدينة فزع فانطلق الناس نحو الصوت فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم اليه فتلقوه عائدا على فرس عُرْيٍ لابى طلحة الانصارى وعليه السيف فجعل يقول : ايها الناس لم تراعوا لم تراعوا : ثم قال لابا طلحة : انا وجدناه بحرا : وكان

—(زاد المعاد) فالتراجع

الفرس يبطئ فما سبقه فرس بعد ذلك وما ذاك الاعن ثقة من ان الله تعالى سينصره . وان دينه سيظهره . تحقيقا لقوله تعالى « ليظهره على الدين كله » (١) وتصديقا لقول رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم زويت لى الارض فرايت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي مازوى لى منها . وكفى بهذا قياما بحقه وشاهدا على صدقه .

(والخصلة الثامنة) . امنح من السخاء والجود . حتى جاد بكل موجود . وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصع من شعير لطعام اهله . وقد ملك جزيرة العرب وكان فيها ملوك واقيال . لهم خزائن واموال يقتنونها ذخرا ويتباهون بها فخرا . ويستمتعون بها اشرا وبطرا وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى دينارا ولا درهما . لا ياكل الا الخشب (٢) ولا يلبس الا الخشن . ويعطى الجزل الخطير . ويصل الجمّ الغفير . ويتجرع مرارة الاقلال . ويصبر على سغب الاختلال وكان يقول « انا اولى بالمؤمنين من انفسهم فمن ترك دنيا اوضياعا (٣) فعليّ ومن ترك مالا فلورثته » فهل مثل هذا الكرم والجود . كرم وجود . ام هل لمثل هذا الاعراض والزهادة

---

(١) قال ابن تيميه : قد اظهره الله علما وحجة وبيانا علي كل دين كما اظهره قوة ونصرا وتاييدا . وقد امتلات الارض منه ومن امته في مشارق الارض ومغاربها وسلطانهم دائم لايقدر احد ان يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك من بعدهم عن خيار الارض واوسطها اه

(٢) الخشب كالخشن لفظا ومعنى واخشوشب في عيشه صبر على الجهد (قاموس)

(٣) الضياع بالفتح العيال اوضيعهم

اعراض وزهد · هيهات · هل يُدرك شأو من هذه شذور من فضائله ·
ويسير من محاسنه التى لايحصى لها عدد · ولا يدرك لها امد · لم تكمل في
غيره فيساويه · ولا كذّب بها ضد يناويه · ولقد جهد كل منافق ومعاند ·
وكل زنديق وملحد ان يزرى عليه فى قول اوفعل · اويظفر بهفوة في جد
اوهزل · فلم يجد اليه سبيلا وقد جهد جهده · وجمع كيده · فاى فضل
اعظم من فضل شاهده الحسدة والاعداء · فلم يجدوا فيه مغمزاً الثالب اوقادح
ولا مطعنا لجارح اوفاضح · فهو كما قال الشاعر

شهد الانام بفضله حتى العدا ❊ والفضل ماشهدت به الاعداء

وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها · واستكمل لغايات الامور آلتها · ان يكون لزعامة
العالم مؤهلا · وللقيام بمصالح الخلق موكلا · ولا غاية بعد النبوة ان يعم به
صلاح اوينحسم به فساد · فاقتضى ان يكون لها أهلا · وللقيام بها مؤهلا · ولذلك
استقرت به حين بعث رسولا · ونهض بحقوقها حين قام به كفيلا · فناسبها
وناسبته · ولم يذهل لها حين اتته · وكل متناسبين متشاكلان · وكل
متشاكلين مؤتلفان · وكل مؤتلفين متفقان · والاتفاق وفاق هو اصل كل
انتظام · وقاعدة كل التئام فكان ذلك من اوضح الشواهد على صحة نبوته ·
واظهر الامارات في صدق رسالته · فما ينكرها بعد الوضوح · الا مفضوح(١)
وبالجملة فآية اخلاقه صلوات الله عليه آية كبرى · وعلم من اعلام نبوته العظمى
وقد اجملها الجاحظ بقوله : وآية اخرى لايعرفها الا الخاصة · ومتى ذكرت

(١) الى هنا تم كلام الماوردي رحمه الله بتلخيص من كتابه اعلام النبوة

الخاصة فالعامة فى ذلك مثل الخاصة · وهي الاخلاق والافعال التي لم تجتمع لبشر قط قبله · ولا تجتمع لبشر بعده · وذلك انا لم نر ولم نسمع لاحد قط كصبره · ولا كحلمه · ولا كوفائه · ولا كزهده · ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته · وكرم عشرته · ولا كتواضعه · ولا كحفظه ولا كصمته اذا صمت · ولا كقوله اذا قال · ولا كعجيب منشئه · ولا كعفوه ولا كدوام طريقته · وقلة امتنانه · ولم نجد شجاعا قط الا وقد جال جولة وفرّ فره · وانحازمره · ولا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهري ان يحدث انه صلي الله عليه وسلم جال جولة قط · ولا فر فرة قط · ولا حام عن غزوة ولا هاب حربا من مكاثرة اه وذلك من اعجب ما آتاه الله نبيا قط مع سائر ماجاء به من الآيات · ومن ضروب البرهانات · اذ اعداؤه جمهم غفير · وجمعهم كثير فخصمهم حين جادلوه · وصابرهم حين عاندوه · وكابد من الشدائد مالم يثبت عليها الا كل معصوم · ولم يسلم منها الا منصور · الى ان علت كلمته وظهرت دعوته · وكل هذه آيات تنذر بالحق · وتلائم الصدق · لان الله لا يهدى كيد الخائنين · ولا يصلح عمل المفسدين ·

آية كمال الدين

قال الامام ابن القيم واذا تاملت الحكمة الباهرة فى هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على اكمل عقل رجل منهم فوقها · وحسب العقول الكاملة الفاضلة ان ادركت حسنها وشهدت

بفضلها وانه ماطرق العالم شريعة اكمل ولا أجل ولا اعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان ولو لم يات الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانا وآية وشاهدا على انها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والاحسان والاحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب وانها من اعظم نعم الله التي انعم بها على عباده فما انعم عليهم بنعمة اجل من ان هداهم لها وجعلهم من اهلها وممن ارتضاهم لها وارتضاها لهم فلهذا امتن على عباده بان هداهم لها قال تعالى « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وقال معرفا لعباده ومذكرا لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره على ان جعلهم من اهلها « اليوم اكملت لكم دينكم » الآية . وتامل كيف وصف الدين الذى اختاره لهم بالكمال . والنعمة التي اسبغها عليهم بالتمام ايذانا في الدين بانه لانقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام ايذانا بدوامها واتصالها وانه لا يسلبهم اياها بعد اذ اعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار . وتامل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين واضافة الدين اليهم اذ هم القائمون به المقيمون له . واضاف النعمة اليه سبحانه اذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته وهم قابلوها . واتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وانه شيء خصوا به دون الامم — وفي اتمام النعمة بعلى

المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة فجاء « اتممت » فى مقابلة « اكملت » و « عليكم » فى مقابلة « لكم » و « نعمتى » فى مقابلة « دينكم » واكد ذلك وزاده تقريرا وكمالا واتماما للنعمة بقوله « ورضيت لكم الاسلام دينا وكان بعض السلف الصالح يقول : ياله من دين لو ان له رجالا : اه كلام ابن القيم عليه الرحمة فى مفتاح دار السعادة

﴿ خاتمة في فائدتين ﴾

﴿ الاولى في ان الحق كلما جحد أوعورض أقام تعالى من الآيات مايؤيده ﴾

قال الامام تقي الدين رحمه الله : ان الحق اذا جحد وعورض بالشبهات اقام الله تعالى مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من ادلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ماعرضه من الحجج الداحضة فالقرآن لما كذب به المشركون واجتهدوا على ابطاله بكل طريق مع انه تحداهم بالاتيان بعشر سور ثم بالاتيان بسورة واحدة كان ذلك مما دل ذوى الالباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الاسباب ولو اتبعوه من غير معارضة واصرار على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام وابطل الله ماجاؤا به كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ماجاء به موسى عليه السلام وهذا من الفروق بين آيات الانبياء وبراهينهم التى تسمى بالمعجزات وبين ماقد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشياطين من التصرفات فان بين هذين

فروقا متعددة منها ماذكره الله تعالى فى قوله « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم » ومنها مابينه فى آيات التحدى من ان آيات الانبياء عليهم السلام لايمكن ان تعارض بالمثل فضلا عن الاقوى ولا يمكن احدا ابطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين فانه يمكن معارضتها بمثلها واقوى منها ويمكن ابطالها . وكذلك سائر اعداء الانبياء من المجرمين شياطين الانس والجن الذين يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا اذا اظهروا من حججهم مايحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ويموهون فى ذلك بما يلفقونه كان ذلك من اسباب ظهور الايمان الذى وعد الله تعالى بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان ... قال الله تعالى «لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز» وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التى يظهر بها الحق من الباطل . والحالى من العاطل . والهدى من الضلال . والصدق من المحال . والغي من الرشاد . والصلاح من الفساد . والخطأ من السداد . وهذا كالمحنة للرجال التى تميز بين الخبيث والطيب قال الله تعالى « ماكان الله ليذر المؤمنين على ماانتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وقال تعالى « الم احسب الناس ان يتركوا ان يقالوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » والفتنة هى الامتحان والاختبار كما قال موسى عليه السلام « ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من

تشاء» اى امتحانك واختبارك تضل بها من خالف الرسل وتهدى بها من اتبعهم والفتنة للانسان كفتنة الذهب اذا ادخل كير الامتحان فانها تميز جيده من رديئه فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن ازداد جودة والباطل كالمغشوش المغشى اذا امتحن ظهر فساده ، فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظر ، ظهرت له البراهين ، وقوى به اليقين ، وازداد به ايمان المؤمنين ، واشرق نوره في صدر العالمين ، والدين الباطل اذا جادل عنه المجادل ، ورام ان يقيم عوده المائل ، اقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ويبين ان صاحبه الاحمق كاذب مائق ، وظهر فيه من الفساد والتناقص والالحاد ، والضلال والجهل والمحال ، مايظهر به لعموم الرجال ، ان اهله من اضل الضلال ، حتى يظهر فيه من الفساد ، مالم يكن يعرفه اكثر العباد ، ويتنبه بذلك من كان غافلا من سنة الرقاد من كان لايميز الغى من الرشاد ، ويحيى بالعلم والايمان من كان ميت القلب لايعرف معروف «الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين

(وقال رحمه الله ايضا) ومما ينبغى ان يعلم ان الله اذا ارسل نبيّا واتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجه ، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب اجابتهم الي ذلك بل وقد لا ينبغى ذلك لانه اذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة واذا جاء بثالثة طولب برابعة «فان طلب المتعنتين لا امد له» ومعلوم انه من قامت عليه حجة بينة في مسئلة علم وحق من حقوق العباد التى يتخاصمون

فيها لو قال انا لا اقبل حتي تقوم عليه حجة ثانيه وثالثة كان ظالما متعديا ولم يجب أجابته الى ذلك ولا يمكن الحكامُ الخصومَ من ذلك بل اذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك ولو قال المطلوب اريد بينة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب الى ذلك . فحق الله الذي اوجبه على عباده من توحيده والايمان به ورسله اولى اذا قامت بينة اوجبت على الخلق الايمان برسله ان لا يجب اجابة الطالب الى ثانية وثالثه

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة فيتابع تعالى بين الآيات كما ارسل محمداً صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها فان الادلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان اوكد واظهر وايسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة احد الادلة من لم يعرف دلالة الآخر وقد يبلغ هذا مالم يبلغ هذا . وقد يرسل الانبياء بآيات متتابعة ويقسي قلوب الكفار عن الايمان لتتابع الآيات آية بعد آية لينتشر ذلك ويظهر ويبلغ ذلك قوما آخرين فيكون ذلك سببا لايمانهم اه

الفائدة الثانية

(في تاثير لسان البرهان في تبيان الحق وطرد وساوس الشيطان)

قال بعض الحكماء : من الناس من يحسب ان الكلام مع المبطلين ضرب من العبث وانما هو فضيحة لمذهبهم وتشهير لرأيهم على غير جدوى اذ اصبحوا بحيث لاينفع فيهم القول

وهذا راى من لا خبرة له بالشرع ولا دراية عنده بتاثير القول فاما الفضيحة فلو كان

في اتقائها خير باطلاق لتعطل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر · واى شرع ام اي عقل يامر باتقاء الفضيحة في درء المفاسد ومع ذلك فاي عورة مستورة منهم حتى تتقى الفضيحة من كشفها

واما عدم نفع القول فمن المكابرة في الواقع · وهل كان كون او فساد في بداوة او حضارة الا بفعل القول من تاليف وتنفير وتحذير وتطمين ووعد ووعيد وتثبيط وتهييج وتسكين وتحريك الى غير ذلك من افانين اللسان وضروب البيان · وهل الانبياء صلوات الله عليهم دعوا الخلق الى الاديان باكثر من قوة اللسان · وهل الكتب السماوية تنزلت الا بالبيان · وهل ثارت احقاد اوسكنت والتحمت ملاحم وانفصلت · واريقت دماء اوحقنت بمثل القول وشبه اللفظ · ولم اقيمت المنابر وخطب الخطباء ووعظ الوعاظ وسعى المبشرون والدعاة وشرع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر اليس الا سر اللسان · وحكمة البيان · وفضل الكلام · وبالجملة فهل فى الدنيا شيء من عظائم الامور الا وهو غرس اللفظ وحصيد النطق · وعلى كل حال فالامر في ذلك اوضح من ان يحتاج الى اطناب · وانما ليس لثمرة القول ابان محدود فقد تسرع وقد تبطيء · ورب رجل يتكلم بكلمة لا يوءبه لها في جيله فتثمر فى جيل آخر ثمرة يتمتع بها اهل الارض جميعا فادعاء ان المبطلين لا ينفع فيهم الكلام حماقة وجهالة

كذلك من الناس يزعم ان داء المفسدين قد ازمن وتاصل بعد ان استفحل وفشا في عروقهم وانبسط وسرى في دمهم وامتد وتشعب في اعصابهم وصار

لا يرجى برؤه بل لا يؤمل تلطيفه حتى يداوى كما قطع بذلك بعض القانطين واذا فالانتداب لمقاومته لا يورثهم الا التنغيص ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك

قنوطهم هذا منشؤه عدم صحة النية وصدق العزيمة خاب ظنهم وكذب حدسهم وما الداعي (حاسبهم الله) لهذا اليأس وباب الخير مفتوح وداعي الرشاد مُلح وخاطر العزم معترض · فما عليهم لو بذلوا جُهدهم في ذلك السبيل عوض افراغ وسعهم فى القال والقيل · فان نجحوا كانوا مشكورين وان لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين

هذا وحيث ان لكل معلول علة ولا يمكن استئصال المعلولات الا باستئصال عللها فعلى من يريد ان يضع نفسه موضع الطبيب ان يبحث عن علة المبطل واصل خلله ثم يحاول استئصال الاصل بما يراه ناجحا من عقاقير الارشاد والاستدلال فانه ان فعل يوشك ان ينجح ان شاء الله

ومهما يكن للمبطل من قدرة على مقاومة الحقائق بالسفسطة فان من اساليب البرهان مالا ينفع معه سفسطة ولا ياتى عليه سحر ولا تدفعه حيلة فالحق اكبر من ان يكافح ولئن ثبت الباطل امامة مرة فقلما يثبت اخرى ومآله الى الفرار على كل حال اه

وما الطف قول الاصفهانى عليه الرحمة : الحق يتضح بالادله · والشهور تشتهر بالاهله · وشفاء الصدور بالبلة · والدين لو لا شطب البيان اعزل · والقلم لو لا اسنان البرهان مغزل · لا يفكُ شبكة الشك · الا ظُبة تدور في

قُراب الفك · وطالب الحق ضيف الله · والدليل القاطع سيف الله، به يفك العلم وينشر · وبه يبقر الحق ويقشر · ومثل العلوم والبرهان · كمثل المصباح والادهان · والحجة للاحكام · كالعماد للخيام · والعهاد للهيام · ومثل المقلد بين يدي المحقق · مثل الضرير بين يدى البصير المحدق، ومثل الحكيم والحشوى · كالميتة والمشوى (١) ما المقلد الاجمل مخشوش · له عمل مغشوش · قصاراه لوح منقوش · يقنع بظواهر الكلمات · ولا يعرف النور من الظلمات · شغله نقل النقل عن نخبة العقل · فما اسعد من هُدِى الى العلم ونزل رباعه · وارى الحق ورزق اتباعه · الزم اليقين · تكن من المتقين واعلم واعرض عن الجاهلين · واعمل فنعم اجر العاملين ·

قال المؤلف

وههنا وقف بنا القلم فالحمد لله على ما الهم، والشكر له على ما انعم، وقد بلغت مدة تسويده اربعة اشهر اولها العشر الاخير من رمضان عام (١٣٢٥) ولما اعدت النظر في تنقيحه طرأ ما اوقف النظر فيه شهرى صفر وربيع اواخر (اجل المصادرة والاضطهاد، وبلوغ الروح الحلقوم من الاستبداد) ثم من الله تعالى بنزوغ ما احتجب منه فى ربيع الثاني فرجعت الى اتمام تبييضه حتي كمل

(١) نشر في التمثيل على غير ترتيب اللف فان الميتة مثال للحشوى · والمشوي مثال للحكيم والحشوى واحد الحشوية بسكون الشين · وفتحها غلط · نسبة للحشو بمعنى العامة والتباع وقيل غير ذلك · ولنا في التعريف بهم فى شرح «لقطة العجلان» في آخر فصل منها كلام جدير بالمراجعة .

في اواخر جمادى الثانية سنة (١٣٢٦) في الاسبوع الذى منحت فيه الامة العثمانية العمل بالدستور المبنى على قواعد العدل واحترام راي الشورى ونشر العلوم وتحرير الانفس من قيود الاستعباد · فلله ذلك الاسبوع الذي قلب نظام الملك وغير هيئة البلاد وبدل الارض غير الارض اذ انسلخت عنها حياتها الاولى حياة الخمول والذل، والاسر والضعف والجهل، واستبدلت بحياة العز والنشاط، والقوة والعلم والارتباط، فلك الحمد ربنا على سحائب مكروه جليتها، وغوامر كربات كشفتها، وسماء نعمة أمطرتها، وجداول كرامة اجريتها، وناشئة رحمة نشرتها، وجُنة عافية البستها، (اللهم) ولك الحمد على ما ايدتنا بقوتك، وشددت ازرنا بنصرك · واخزيت من انتضى سيف عداوته · وشحذ ظُبَةَ مديته · فاعليت كعبنا عليه · ووجهت ما سدد من مكايده اليه · (اللهم) فاجعلنا ممن يديم ذكرك · ولا ينقض عهدك · ولا يغفل عن شكرك · ولا يستخف بامرك · (اللهم) واحشرنا مع العلماء الخاشين من الله وحسابه · الماشين على سبيل النبى صلى الله عليه وسلم وصحابه · الذين في افواههم بيض بواتر على رقاب المبطلين · وفي ايديهم سمر عواتر فى ثغر المعطلين · (اللهم) وتفضل على العلماء بالارشاد للسداد · وعلى المتعلمين بالرغبة والاجتهاد · وعلى المستمعين باتباع الامر · وعلى المؤمنين بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر · (اللهم) وفقنا اذا اشكلت الامور لاهداها · واذا تشابهت الاعمال لازكاها · وتوجنا بالكفاية · وسمنا حسن الولايه · وصل على سيدنا محمد وآله اجمعين · واجعلنا لانعمك من الشاكرين · ولآلائك

من الذاكرين . آمين . والحمد لله رب العالمين

بحمده تعالى وعونه تم هذا الكتاب في منتصف شعبان عام (١٣٢٦)
بمطبعة الفيحاء بدمشق الشام خاصة السيد مصطفى افندي شورى
مصححا بنظر الفقير قاسم خير الدين
القاسمي شقيق المؤلف غفر الله لهما
آمين



جدول الخطأ والصواب من كتاب « دلائل التوحيد »

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٤	١٠	البرهان	الرهان
٨	٠٥	على الانسان	على ان الانسان
٠	١٥	ولا من عن رتبة	ولا من نزل عن رتبة
٣٢	١٦	في علم	في عالم
٥٩	٢٢	تختلف	تتخلف
٨٩	١٤	اسقطقس	استقش
٩٢	١٣	استجير	استجيز
٩٧	١٥	غيبيته	غيبية
١٠٣	١٧	يالازلية وحده	بالازلية الا الله وحده
١٠٨	١٩	ليتقن	لتيقن
١١٥	١٩	ليكون	ليكونا
١٢١	٠٩	ينجح	ينج
١٥١	١٤	وحصاها	واحصاها
١٦٥	٠٢	المارودى	الماوردي
١٧٢	٠٩	زيبة	ريبة
١٧٥	٠٩	يحملوا الاقرار	يحملوا علي الاقرار
١٨١	١٧	المارودے	الماوردي
١٩٤	١٧	غرى	عرے
٠٠٠	١٨	لابا طلحة	لابى طلحة
٢٠٠	١٧	يقالوا	يقولوا